

فؤاد زكريّا

نظريّة المعرفة





نَظَرُ رَبِّهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْمَوْقِفُ الطَّبِيعِيُّ لِلْإِنْسَانِ

دكتور
فؤاد زكريا

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نظرية المعرفة

والموقف الطبيعي للإنسان

مقدمة

« يسارع الفلاسفة إلى الترحيب بأى شئ تبدو عليه سيما الغرابة ، ويخالف أول أفكار البشر وأكثرها تلقائية ، ويعدون علامة من علامات سمو علمهم الذى يستطيع كشف آراء بعدت إلى هذا الحد عن وجهة النظر الشائعة . ومن جهة أخرى ، فإن أى شئ يُقترح علينا ويسبب دهشة وإعجاباً، يرضى الذهن إلى حد يجعله يستسلم لهذه الانفعالات السارة حتى لا يعود لديه مجال للاقتناع بأن لذته قد لا يكون لها أى أساس . ومن هذه الاستعدادات لدى الفلاسفة ولدى تلاميذهم ينشأ ذلك التفاهم المتبادل بين الطرفين : إذ يأتى الأولون بمجموعة ضخمة من الآراء الغريبة التى لا يقدم لها تعليل ، ويصدقهم الآخرون على التو » .

(Hume : A Treatise of Human Nature. Book I part II

Section I.)

تفرض كل مهنة على من يحترفها مجموعة من الآراء والمواقف التى تميزه عمن يحترفون مهناً أخرى ، وتبدو غريبة خارجة عن المألوف فى نظر غيره . ومهنة الفلسفة ليست استثناء لهذه القاعدة . فالأمر الذى لا شك فيه أن الباحث المتخصص فى الفلسفة هو اليوم صاحب مهنة لها « جو » خاص يجده غير المتخصص فى الفلسفة غريباً خارجاً عن المألوف . فى هذا « الجو » يقول الفلاسفة بآراء ، ويتخذون مواقف ، هى فى نظرهم من الأمور العادية المألوفة ، مع أنها فى نظر غيرهم مذهلة لا تكاد تصدق . ومن أكثر هذه الآراء

شيوعاً ، تلك التى يعبر عنها الفلاسفة بصور مختلفة منها : إن العالم الخارجى غير موجود ، أو إنه ذاتى . تلك الآراء — المتعلقة بمشكلة تؤلف الجزء الرئيسى فى مبحث المعرفة ، الذى ربما كان أهم أجزاء الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا — هى إذن جزء لا يتجزأ من التراث الفلسفى كما يُنقل من جيل إلى جيل ، ولكنها تبدو بعيدة تماماً عن التصديق ، بل عن التصور ، حالما يخرج بها المرء عن دائرة الفلسفة المتخصصة .

ولا أظن أن أحداً من دارسى الفلسفة لم يمر فى وقت من الأوقات بتلك التجربة التى يتعرض فيها لسخرية الآخرين — الذين قد يكونون أناساً عاديين ، أو أشخاصاً متخصصين فى فروع أخرى من العلم — من مواقف الفلاسفة التى تكاد تصل فى نظر هؤلاء الآخرين إلى حد الجنون ، ومن أهمها ذلك الموقف المثالى وما يقترن به من إنكار لوجود العالم الخارجى أو شك فيه . ولكن لنفرض أن واحداً من هؤلاء المتخصصين فى الفلسفة قد اتخذ الموقف المضاد ، أى دافع عن وجهة النظر « المعتادة » التى يعبر عنها « غير الفلاسفة » ، فماذا يكون رأى الفلاسفة فيه ؟ . إننى لا زلت أذكر نظرة الاستغراب التى نظرها إلى أحد الأساتذة وهو يناقشنى فى البحث الذى تقدمت به لدرجة الدكتوراه ، ودافعت فيه عن وجهة النظر « المعتادة » هذه . لقد سألتنى : أتعنى « حقاً » أن تدافع عن وجهة نظر « الإنسان المعتاد » ؟ وكان فى تساؤله دهشة لا تقل عن تلك التى يبدىها عالم الرياضة إذا سمع أحداً يعترض على صحة جدول الضرب !

هذا إذن هو الموقف السائد فيما يتعلق بالصلة بين الفلاسفة وغير الفلاسفة : فالأولون قد أصبح لهم مجالهم الخاص الذى يترفعون فيه عن وجهة نظر « العامة » ويعدون رفضها أول شرط « للسلوك » إلى ميدان الفلسفة ، والآخرون يدهشون للآراء النظرية الميتافيزيقية لدى الفلاسفة ، ولا يأخذون

بواحد منها في حياتهم المألوفة . ويظل كل من الطرفين متمسكا بموقفه ، دون أية محاولة للتفاهم .

وإذا كان غير الفيلسوف غير ملوم في عدم تعرفه على وجهة نظر الفلسفة ، فإن الفيلسوف بطبيعة مهنته ، ينبغي أن يُلام لأنه يكاد يعد رفض موقف الذهن المعتاد من القضايا المسلم بصحتها ، ويظل هو وطائفته يستخدمون حججهم ومصطلحهم الخاص الذي لا يعرفه غيرهم ، وكأنه من الأسرار الحرفية التي لا ينبغي أن يطلع عليها إلا أربابها .

وإذا كان من « المخجل » في الوسط الفلسفي أن يحاول المرء الدفاع عن « الواقعية الساذجة » فإن من « المضحك » في نظر عالم الجيولوجيا أو عالم النبات أن يحاول المرء إقناعه بأن العالم الذي نراه « من خلقنا نحن » أو أن يثير المرء فكرة كون المظهر الذي يتبدى عليه هذا العالم خادعا ، واحتمال كون العالم « في حقيقته » مخالفا لما ندركه .

وفي رأيي أن استمرار هذا الازدواج هو الأمر المخجل حقاً . وليس مما يشرف الفلاسفة على الإطلاق أن يكتفوا بوصف الآخرين بأنهم من « العامة » ، دون أية محاولة لتحليل سبب ذلك الاعتقاد القوي الذي يدفع « الناس » ، وضمنهم الفلاسفة أنفسهم خلال الجزء الأكبر من حياتهم ، إلى الأخذ بوجهة النظر الطبيعية . إن الفلاسفة يعدون وجهة النظر هذه « خطأ » ينبغي تجاوزه إلى غير رجعة . ولكن كان الأجدر بهم أن يكرسوا شيئا من جهودهم لإيضاح علة انتشار هذا « الخطأ » على هذا النحو الهائل بين جميع الآدميين غير المتفلسفين ، وبين الفلاسفة أنفسهم في لحظات عدم تفلسفهم ! إن ذلك الازدواج الذي يسود حياة من ينكر العالم الخارجي من الفلاسفة ، حين يتصرف في هذه الحياة حسب الموقف الطبيعي ، ويفكر فيها حسب الموقف المثالي ، كان يستحق على الأقل تفسيراً أو تعليلاً — ولكن ، كم من

الفلاسفة كرس أبحاثه لهذه المسألة الحاسمة !؟

إن الفلسفة في حاجة إلى أن تخرج ، من آن لآخر ، من النطاق « الاحترافي » الذي ضربته حول نفسها ، وتحدد علاقتها ببقية مجالات العالم . وهي على الأخص في حاجة إلى أن تنظر بفهم وتقدير ، لا بازدراء وترفع ، إلى وجهة نظر « الإنسان » بالمعنى العام لهذه الكلمة . وينبغي أن تجد في نفسها الشجاعة للربط بين آرائها وبين هذا « الإنسان » ، وإلا فستظل إلى الأبد « مهنة » ضيقة لا تلقى استجابة إلا من ذلك النفر القليل الذي احترفها .

وإن المبرر الوحيد لكتابة هذا البحث إنما هو كونه يعبر عن وجهة نظر شخص هو حقاً من « المتخصصين » في الفلسفة ، ولكنه لم يفقد أبداً شعور الإنسان الطبيعي بالدهشة إزاء كثير من قضايا الفلاسفة . أجل ، فمازلت حتى اليوم أشعر بالدهشة كلما رأيت فيلسوف يشك في وجود العالم الخارجي أو يصفه بأنه من « خلق الذات » — وهي نفس الدهشة التي اعترتني عندما اطلعت على هذا الرأي لأول مرة في أول كتاب فلسفي قرأته . ومنذ تلك اللحظة الأولى لم أكف عن الاعتقاد بأن في الأمر خطأ ، ولكن كانت المشكلة بالنسبة إلى هي : أين يكمن هذا الخطأ ؟

وفي هذا البحث سرد للمحاولات التي بذلتها للاهتمام إلى أصل هذا الخطأ — وهي بلا شك محاولات غير كاملة ، ولن تؤدي إلى دحض كامل للرأي المضاد ، ولكن ميزتها الوحيدة أنها كما قلت تعبير عن وجهة نظر شخص متخصص في الفلسفة لم يفقد في وقت ما ذلك الإيمان البسيط ، أو سمه « الساذج » إن شئت ، والذي يتميز به الإنسان في موقفه الطبيعي . فإذا كان في هذه المحاولة نقص ، فلا يخالجنى شك في أن البشرية ستصل يوماً ما إلى دحض كامل للموقف المثالي ، بحيث يتسق سلوك الإنسان العملي مع تفكيره النظري ، ولا يعود في وسع أحد أن يقول مرة أخرى : إن وجود العالم الخارجي أمر مشكوك فيه ، أو هو وهم لا أساس له ، أو أن ذلك العالم من خلق الذات .

إيضاحات مبدئية

تعريفات : أعنى بالموقف الطبيعى نظرة الإنسان العادى إلى العالم الخارجى ، إذ ينسب إلى هذا العالم ، بما فيه من « أشياء » ، وجودا مستقلا عن ذاته . ولست أعتقد أن صفة « الاستمرار فى الوجود » من الصفات الضرورية للأشياء تبعا لهذا الموقف ، إذ أن شعاع الضوء الذى يظهر فى لمح البصر ثم يختفى ، يمكن مع ذلك أن يعد « خارجيا » ، رغم كونه غير مستمر . وإذن فصفة الاستقلال فى الأشياء أهم من وجهة نظر الموقف الطبيعى ، وهذه الصفة « يجوز » أن تتضمن كون الشئ ذا وجود دائم ، إذ أن المفروض فى الشئ المستقل أن يظل غير متأثر بالتغيرات الذاتية . وهذا الموقف هو الذى تطلق عليه اللغة الإنجليزية اسم Common Sense ويسمى فى الفلسفة على التخصيص باسم « الواقعية الساذجة » ، وهى تسمية ليست دقيقة كل الدقة ، كما سنرى فيما بعد .

وأعنى بالمثالية كل مذهب يعارض الموقف الطبيعى فى نظره إلى العالم الخارجى بإنكار استقلال هذا العالم أو التشكيك فيه . ويلاحظ على هذا المعنى أنه أوسع من المعنى الفلسفى المألوف ، إذ أن فيلسوفا تجريبيا مثل هيوم يعد بهذا المعنى ذا نزعة مثالية ، فى حين يكون من الصعب ، فى ضوء كثير من التصنيفات الفلسفية المألوفة ، إدراجه ضمن المثاليين . كما يلاحظ عليه أنه معنى سلبى ، وهى صفة ربما كانت تحل كثيرا من الإشكالات المتعلقة بالبحث عن طابع مشترك يجمع بين المذاهب المثالية ذات الاتجاهات المختلفة : إذ يتضح آخر الأمر أن العنصر الأساسى الذى يمكن أن يقال إنه مشترك بين كل هذه

الاتجاهات ، هو عنصر المعارضة التامة لموقفنا الطبيعي من العالم الخارجى . كما يلاحظ أخيراً أن التعارض بين المثالية وبين الموقف الطبيعى أشد من التعارض المألوف بين المثالية والواقعية . إذ أن بعض المذاهب « الواقعية » — كالواقعية النقدية — تقف من مشكلة العالم الخارجى موقفا لا يختلف كثيرا عن الموقف المثالى .

هدف البحث : يرمى هذا البحث إلى الدفاع عن موقفنا الطبيعى من العالم الخارجى ، وذلك فى الحدود الخاصة التى تكون مجال هذا الموقف . ووسيلة بلوغ هذا الهدف سلبية فى الأغلب . إذ سنحاول إيضاح الخلط الذى وقعت فيه المثالية فى هذا الميدان الرئيسى من ميادين نظرية المعرفة ، وسنبين كيف تعجز المثالية عن إجابة الأسئلة التى تثيرها : إذ تعجز عن إيجاد تفرقة سليمة بين الظواهر الموضوعية والظواهر الذاتية ، وعن تفسير خارجية العالم ، بحيث تبدو فى نهاية الأمر مجرد تفسير بلغة مختلفة ، للعالم الفعلى كما يقول به الموقف الطبيعى .

مجال البحث : يمثل هذا البحث فى واقع الأمر إعادة تقويم فلسفية لمشكلة المعرفة . ولما كان الاهتمام يتركز فيه على المشكلة ذاتها ، فقد كان من العبث أن نحصر على استيعاب مختلف الاتجاهات الفلسفية الفرعية التى أدلت بآراء فى هذا الموضوع . ومن هنا فقد اكتفينا بالاتجاهات الرئيسية التى تأثرت بها المذاهب الفرعية ، حتى نستطيع أن نتبين معالم المشكلة التى نعالجها دون أن يضيق الخيط الرئيسى لها بين التفاصيل العديدة . وهكذا تغنينا مثلا دراسة نظرية المعرفة عند هيوم (بالنسبة إلى أغراض هذا البحث) عن دراستها عند الوضعيين المحدثين ، أو دراسة كانت عن دراسة الكانتيين المحدثين أو مختلف اتجاهات أصحاب مذهب الظواهر . حقا إن كثيرا من التفاصيل المفيدة ستضيع عندئذ ، غير أن ضياع التفاصيل سيعوضه التركيز على المشكلة فى

أطرافها الرئيسية . وهكذا استُمدت الأمثلة التى صُربت فى الجانب الأكبر من هذا البحث مما يمكن أن يسمى « بالعصر الذهبى لنظرية المعرفة » وهو العصر الذى يمتد من ديكارت إلى كانت وشوبنهاور ، والذى ظهرت فيه آراء يمكن أن تُعد بحق مثلة للاتجاهات الفلسفية « الرئيسية » فى هذا الميدان .

منهج البحث : فى الفلسفات الحديثة ، ولا سيما الفلسفات الأنجلوسكسونية ، ميل إلى معالجة مشكلة المعرفة باتباع المنهج التحليلي . ولهذا المنهج فائدة لا تنكر فى استبعاد الكثير من المغالطات اللفظية والمشاكل الوهمية من مجال الفلسفة . ولكن المنهج الذى نتبعه هاهنا ، والمستوى الذى يتخذه هذا البحث ، أبعد غورا من ذلك : ففى هذا البحث تناقش نقط البداية الأولى ، التى لا يناقشها الكثير من التحليليين أنفسهم ، أو يتركونها تنزلق إلى مناقشاتهم دون وعى منهم . ومن جهة أخرى ، يصدر هذا البحث أحكاماً عامة على الموقف الفلسفى المثالى ، وهى أحكام يندر أن يستطيع الفيلسوف التحليلي إصدارها لانغماسه فى التفاصيل . ذلك لأن الفلسفة التحليلية تفتح على الدوام تفاصيل فرعية ، وهذه الفروع تؤدى إلى فروع أخرى للفروع ، وهكذا .. ويظل التحليل يتسع ويتشعب حتى يمتد إلى أكثر الألفاظ والقضايا شيوعاً . ولهذا كله قيمته . ولكن كثيراً ما يحدث أن تُنسى المشكلة الأصلية فى غمار هذه التفاصيل ، أو أن تفتت إلى مجموعة من المشاكل الفرعية التى تتشعب بدورها ، ويفقد الذهن صلته بالمشكلة من حيث هى مشكلة فلسفية أصيلة ، وتكون لديه عادة جديدة ، وغاية جديدة هى التحليل لأجل التحليل .

ولنضرب لذلك مثلاً : فالفلاسفة التحليليون ، من « مور Moore » إلى « رايل Ryle » ، ظلوا يناقشون تفاصيل البراهين المتعلقة بوجود العالم الخارجى ، وظهرت لهم أثناء هذه المناقشات آلاف المشاكل الفرعية ، التى

حل بعضها ومازال معظمها ينتظر الحل . ومع ذلك ، ظلت هناك مسلمات معينة تنزلق وسط هذا التيار الجارف من التحليلات ، وهى مسلمات لو تطرق الشك إليها لكان معناه القضاء على جميع الجهود التحليلية وذهابها كلها هباء . فمثلا ، يتحدث آير فى كتابه : « مشكلة المعرفة » ، عن مشكلة العالم الخارجى قائلا : « إن رأى القائل إنه قد لا تكون هناك أشياء مادية معينة هو فرض لا يقول به شخص عاقل ، أيا ما كانت الدلائل المؤيدة له . ولكن هذا لا يعنى أنه مستبعد شكليا ... والواقع أنه لا يوجد فى اللحظة الحالية ، وفيما يتعلق بى ، أى شك فى أن هذه المنضدة ، وهذه الورقة موجودة ؛ بل إنى لأعلم أنها موجودة ، وأعلم ذلك على أساس تجربتى الحسية . ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فلا ينتج عنه أن القول بوجودها يخلو منطقيا من أى وصف لتجربتى الحسية »^(١) . هذا رأى يتضمن مثلا لمسلمة هامة لم تناقشها الفلسفة التحليلية فيما يتعلق بمشكلة العالم الخارجى : وهى التسليم بأن وجود الأشياء موضوع للاستدلال « المنطقى » من تجربة الإدراك الحسى — كما تدل على ذلك الكلمات التى وضعنا تحتها خطأ . ولكن ، ماذا يكون الحال لو كانت المسألة من أساسها خارجة عن مجال المنطق والبرهان ؟ وماذا يكون الحال لو عرفنا أن المنطق يعجز عن إثبات أشياء عديدة ، وأن هذه الأشياء مع ذلك موجودة على نحو مستقل فيه عن البرهان وتسبقه ؟ مثل هذا السؤال عن كون مشكلة العالم الخارجى تخضع للبرهان المنطقى أو لا تخضع له (وهو موضوع فصل مستقل فى هذا البحث) خارج تماما عن مجال الفلسفة التحليلية ، بل إن له ، بطبيعته ، أسبقية على كل المشاكل التى تناقش فى هذا المجال . ولو كانت الإجابة عنه نفيا لكان معنى ذلك أن الجهود المضنية

Ayer: The Problem of Knowledge. Pelican Books. London 1956. (١)

التي بذلها عدد كبير من هؤلاء الفلاسفة في مناقشة « البراهين » المتعلقة بوجود العالم الخارجى ، هى جهود « غير ذات موضوع » .
وإذن فالمنهج الذى نتبعه فى هذا البحث هو منهج المناقشة المفصلة فى الطرفين القصيين للفلسفة : المسلمات الأولى والمواقف المبدئية التى يقفها الفلاسفة ، ثم النتائج النهائية التى يصل إليها الباحث فى خاتمة مطافه . وعلى هذا الأساس وحده يكون من الممكن — فى رأينا — إدراك العلاقة بين الفلسفة والموقف الطبيعى (وهى المحور الرئيسى الذى يدور حوله هذا البحث) فى صورتها الحقيقية .

الموقف الطبيعي والعلم

أوضح ما يميز الموقف الطبيعي هو أنه لا يضع مشكلة وجود العالم الخارجى موضع التساؤل ، بل « يطرح جانبا » التفكير فى احتمال عدم وجود العالم وما فيه من « أشياء » . وهذا الموقف ليس « ساذجا » بالضرورة ، إذ أن صفة السذاجة مرتبطة بنوع من الجهل أو « الغفلة » ، فى حين أن كل إنسان ، حتى الفلاسفة والعلماء ، يشارك فى هذا الموقف فى تصرفاته العملية .

ومن جهة أخرى ، فإن وصف هذا الموقف « بالسذاجة » يغفل احتمالا آخر على جانب عظيم من الأهمية : فربما كان هذا الموقف هو الوحيد الذى يضمن للإنسان علاقة متسقة مع العالم الخارجى ، وربما كان هو الحل الوحيد الذى يقتضيه سلوكنا فى هذا العالم ، فى حين أن المواقف المضادة له ، أى المثالية ، إما أن تنتهى إلى إخفاق ، أو تتوقف عند نقطة لا يمكنها المضى إلى ما بعدها ، فتنتهى إلى نوع من اللا أدرية التى لا تحل أى إشكال . وبالاختصار ، فهناك دائما احتمال فى أن يكون الحل الوحيد لمشكلة العالم الخارجى منتميا إلى المجال العملى ، بعد أن يثبت عقم المحاولات « النظرية » للتشكيك فى هذا العالم أو إنكاره . وطالما أن هذا الاحتمال قائم ، فمن الخطأ وصف هذا الموقف بالسذاجة ، بل إن الموقف المضاد قد يكون هو المقرط فى التحليل والنقد بلا جدوى .

وأغلب الظن أن الموقف الطبيعي قد وُصف بالسذاجة نتيجة لتلك الحالات التى يبدو فيها أن تقدم العلم البشرى قد حتم الخروج عنه . مثال ذلك أن علماء الفلك لو كانوا قد التزموا هذا الموقف ، لما وصلوا إلى فكرة دوران

الأرض حول الشمس ، إذ أننا نعتقد في موقفنا الطبيعي أن الأرض هي الثابتة ... وهكذا نجد أن تعريف الموقف الطبيعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتحديد علاقته بالعلم ، أو بالموقف العلمى على الأصح . وسنحاول هنا أن نثبت أنه ، حتى لو وجدت تجارب أو كشوف علمية تبدو مخالفة للموقف الطبيعي ، فإن هذا يرجع إلى اختلاف وظيفة الموقفين الطبيعي والعلمى ، واختلاف الغرض من تجربة الإنسان في كل منهما .

ولإيضاح فكرتنا هذه نضرب مثلاً بطريقة تعريف « آير » للموقف الطبيعي ، أو الموقف « الواقعى الساذج » كما يسميه . فهذا الواقعى الساذج يرى أن « الأشياء المادية التى ندرکها عادة » معطاة « لنا مباشرة ، بمعنى لا يحتاج إلى شرح ، ولا يرى وجها للاستحالة فى أن تكون أشياء كالذرات والإلكترونات مدركة مباشرة ... إلخ . » ^(١) وهنا يظهر ما نعتقد أنه وصف غير دقيق للموقف الطبيعي . فليس من مهمة ذلك الموقف أن يتحدث عن الإلكترونات والذرات ، وليست هذه وظيفته ، ولا علاقة له بهذا المجال . فللموقف الطبيعي مجال معين يقتصر عليه ، ويظل دائماً صحيحاً فى نطاقه . وفى رأينا أن قدراً غير قليل من الأخطاء الفلسفية يرجع إلى عدم الدقة فى تحديد هذا المجال ، أو إلى الخلط بينه وبين مجالات أخرى لا شأن له بها . وسنحاول فيما يلى أن نحدد خصائص هذا الموقف ومجاله بشئ من التفصيل .

فالموقف الطبيعي عملى وحيوى (بيولوجى) فى المحل الأول . إنه ليس موقفاً تحليلياً أو نقدياً نحاول فيه إرجاع الظواهر إلى أصلها أو كشف عللها ، وإنما يتعلق هذا الموقف بسلوكنا العلمى فى هذا العالم . وهو يعبر عن استعداد طبيعى فينا لا يختلف كثيراً عن استعدادنا للأكل والشرب والنوم ، بل إنه هو الذى يجعل هذه الاستعدادات الطبيعية الأخرى ممكنة . ومن المؤكد أن ذلك

النزوع الطبيعي لدى جميع البشر إلى النظر إلى العالم على أنه ينطوى على « أشياء » خارجة عنا ، راجع إلى أن هذه النظرة هي الوحيدة التي تيسر لنا سلوكنا العملي . وعندما نقول إنها تيسر لنا السلوك العملي ، فليس في ذهننا أية فكرة برجماتية عن إثبات صحة الموقف الطبيعي « لنجاحه » في المجال العملي ، بل إن ما نقصده أبعد من هذا بكثير : فنظرة الإنسان الطبيعية إلى العالم ، وهي التي يعده فيها مكونا من أشياء خارجية مستقلة عنه ، أعمق تأصلا في الإنسان من أن تعد مرتبطة بمجرد « النجاح » أو « الصلاحية » . وإنما نحن هنا إزاء ظاهرة لا يستطيع أحد أن يصفها بأنها « محدودة » بأى معنى من المعانى . ولا أظن أن أحدا من الباحثين قد صادف حالة ينظر فيها الإنسان « عمليا » إلى العالم على أنه غير مكون من أشياء خارجية مستقلة عنه ، أعنى حالة يعالج فيها شخص « النار » مثلا — من الناحية العملية — على أنها مجرد فكرة ذاتية في رأسه . وصحيح أننا سمعنا عن حالات كثيرة لأشخاص ألقوا بأنفسهم عمدا في النار ، ولكنى لا أظن أن أحدهم ، طالما كان من العقلاء ، قد فعل ذلك لاعتقاده بأن النار مجرد فكرة في رأسه ، وبالتالي لن تؤذيه ! وإن النتيجة المحزنة التي ينتهى إليها أى فعل عملي كهذا ، لو حدث ، لتدل على شئ واحد : هو أننا في حياتنا العملية اليومية لا نستطيع أن نسلك إلا على أساس هذا الموقف الطبيعي .

ولقد حلل « لوك » فكرة ارتباط الموقف الطبيعي بقدرة الإنسان على السلوك العملي تحليلا رائعا في بضعة نصوص لم تلق الاهتمام الكافى بين الشراح ، ولكن لها أهمية بالغة بالنسبة إلى أغراض هذا البحث . وفي أحد هذا النصوص يقول لوك :

« لو كانت لنا حواس تبلغ من الحدة ما يمكنها من إدراك الدقائق الصغيرة للأجسام ، والتركيب الحقيقى الذى تتوقف عليه كيميائياتها المحسوسة ، لبعثت

فينا دون شك أفكاراً مختلفة كل الاختلاف ، ولاختفى ما هو الآن اللون الأصفر للذهب ، ورأينا محله نسيجاً منظماً من الأجزاء ذات الشكل والحجم الخاص . وهذا ما تكشفه لنا المجاهر بوضوح ... فالدم يبدو للعين المجردة أحمر كله ، ولكن المجهر الجيد الذى يكشف أجزاءه الصغيرة ، لا يطلعنا إلا على كرات حمراء قليلة ، تسبح فى سائل رائق .

« ... إن حواسنا تمكننا من معرفة الأشياء وتميزها وفحصها بحيث يتسنى لنا تطبيقها فى استعمالاتنا ، على أنحاء شتى ، لمواجهة مقتضيات هذه الحياة ولو تغيرت حواسنا ، وأصبحت أسرع وأحد ، لتغيرت مظاهر الأشياء ونظمها الخارجية فى نظرنا تغيراً تاماً ، ولعدت ، كما أظن ، غير متمشية مع وجودنا ، أو رفاهنا على الأقل ، فى هذا العالم الذى نعيش فيه فلو كانت حاسة سمعنا أشد ألف مرة مما هى عليه ، لسمعنا ضجيجاً دائماً يزعجنا ... ولو كانت حاسة الأبصار أحد ألف أو مائة ألف مرة مما هى عليه الآن فى أحسن المجاهر ، لرأت العين المجردة أشياء أصغر بملايين من المرات مما تراه الآن ، ولاتقرب الإنسان من كشف نسيج الأجزاء الدقيقة للأجسام المادية وحركتها ... ولكن ... ربما لم يستطع هذا البصر الحاد الدقيق تحمل وهج الشمس ، أو وضوح النهار ، وربما لم يكن فى وسعه إلا إدراك جزء صغير جداً من أى شئ فى اللحظة الواحدة ، وعلى مسافة قريبة جداً . وإذا كان الإنسان يستطيع بهذه العين المجهرية ... أن ينفذ أكثر من المعتاد فى التركيب الخفى والنسيج الأصيل للأجسام ، فلن يعود عليه هذا التغير بنفع كبير ، إن لم يفده هذا الإبصار الحاد فى الذهاب إلى السوق والتعامل فيه ، وإن لم ير الأشياء التى ينبغى عليه تجنبها عن بُعد كاف .. » (١) .

وفي نص آخر يتحدث لوك عن يقيننا الطبيعي بوجود الأشياء خارجة عنا ، ويوضح ارتباطه بحاجات الإنسان الطبيعية في هذا العالم فيقول : « إن اليقين بوجود الأشياء بالطبيعة عندما تشهد حواسنا بذلك ، لا يبلغ المدى الذى يمكن أن تصل إليه قدرتنا فحسب ، بل يبلغ أيضاً القدر الذى تحتاج إليه طبيعتنا .. فهذا التأكيد بوجود الأشياء خارجنا يكفى لتوجيهنا في اكتساب الخير وتجنب الشر الذى تسببه هذه الأشياء ، وهو ما يهنا في معرفتنا إياها » (١) .

وإذا دلت هذه النصوص المفصلة على شئ ، فإنما تدل على أن لوك قد اهتدى بكل وضوح إلى ذلك الارتباط الأساسى للموقف الطبيعى بقدره الإنسان على السلوك العلمى فى العالم الطبيعى : فإذا حاولت وأنت تسبح أن تنظر إلى البحر على أنه ليس خارجياً ، فلن يكون لهذا من نتيجة سوى غرقك . وإذا شئت ، خلال سيرك ، أن تعد الشجرة فكرة ذاتية فى رأسك ، فلن يؤدى ذلك إلا إلى اصطدام رأسك ذاتها بها .

وإذن فللموقف الطبيعى مجاله الضرورى ، وهو المجال العملى الحيوى . وحواسنا ، مهما كانت « خشونتها » تقدم إلينا صورة للعالم لا نستطيع أن نرفضها رفضاً قاطعاً فى سلوكنا العملى ، وإلا أدى ذلك إلى إلحاق أبلغ الأضرار بحياتنا ذاتها . حقا إن نصيب هذه الحواس يتفاوت نجاحاً أو فشلاً حين تقتحم ميادين أخرى ، كميدان تفسير الظواهر أو فهمها ، ولكنها فى الميدان العضوى العملى لا مفر منها ، وتؤدى وظيفتها الكاملة فيه ، ومن العبث الاعتراض على قدرتها فى هذا الميدان .

* * *

فإذا عدنا إلى النص الأول الذى اقتبسناه من لوك ، لوجدناه فى أول هذا النص يتحدث عن حدة الحواس كما لو كانت تؤدى بنا إلى إدراك « التركيب الحقيقى » الذى تتوقف عليه الكيفيات المحسوسة للأشياء . وتلك هى نقطة الضعف فى هذا النص . وربما كانت فيه مجرد تعبير غير موفق لا يؤثر فى السياق العام للنص ، ولكنها فى ذاتها تمثل اتجاهاً مشتركاً بين كثيرين من مفكرى العلم والفلسفة ، وهو اتجاه كانت له أخطر النتائج بالنسبة إلى التفكير فى مشكلة العالم الخارجى .

فهل هناك بالفعل صورة « حقيقية » للعالم ؟ إننا نستطيع أن نميز على الأقل بين ثلاث صور لهذا العالم :

١ — الصورة « الخشنة » التى تطلعنا عليها حواسنا : صورة العالم بما فيه من « أشياء » نتعامل معها فى حياتنا اليومية .

٢ — الصورة الميكروسكوبية ، التى نرى فيها ، أو نحاول أن نرى « العالم الأصغر » عالم الكائنات الحية الدقيقة أو الخلايا أو الجسيمات .

٣ — الصورة التلسكوبية ، وهى صورة « العالم الأكبر » كما تكشفه لنا المناظير المكبرة بما لديها من قدرة على تقريب مسافات شاسعة إلى أنظارنا . ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن كلا من الصورتين الميكروسكوبية والتلسكوبية تتعرض لاختلافات أساسية كلما كُشفت آلات أقدر على تكبير الجسم الصغير أو تقريب الجسم البعيد .

وفضلاً عن ذلك ، فليس هذا هو العدد الوحيد من الصور الممكنة للعالم : فمن وراء العالم الميكروسكوبى ، هناك عالم الذرات والإلكترونات وهو عالم تعد الجراثيم الميكروسكوبية بالنسبة إليه « عالماً أكبر » . ومن وراء العالم التلسكوبى هناك المجموعات الكونية التى لم يصل إلينا ضوءها حتى الآن ، والتى تعد الأبعاد التلسكوبية بالنسبة إليها « عالماً أصغر » . وفى هذا ولا شك ما يجعل كلمة « الأصغر » و « الأكبر » كلمات نسبية إلى أقصى حد ، ولا يمكن .

أن يكون لها معنى إلا من خلال منظور معين . وعلى أية حال ، فسوف نكتفى لإيضاح فكرتنا ، بالصور الثلاث التى تحدثنا عنها ، على أنها مجرد أمثلة للصور المختلفة الممكنة للعالم .

والآن ، فهل هناك صورة معينة من هذه هى الصحيحة دون الآخرين ؟ هل يستطيع أحد أن يقول إن صورة كوب الماء فى يدى باطلة لأن المظهر يكشف آلافاً من الكائنات الحية الدقيقة فى قطرة واحدة منها ؟ أو أن صورة المريح كما أدركها بعينى المجردة باطلة لأن التلسكوب يدرك بقعاً ملونة وأجواء ليس لها أى أثر فى صورتى هذه ؟ ربما كان هناك ميل لدى البعض إلى الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب ، لأن أحد أطراف المقارنة هنا ، وهو المنظور المعتاد ، متهم دائماً بالخطأ . ولكن النقطة التى نود إثباتها تتضح بسهولة إذا ما أجرينا المقارنة بين الطرفين الآخرين : فهل يجوز لنا أن نشك فى دقة الميكروسكوب ، أو نعتقد ببطلانه ، لعجزه عن إدراك النجوم البعيدة ، أو أن نرمى التلسكوب بالقصور لأنه لا ينقل إلينا دقائق قطرة الماء ؟ إن الجميع سيردون على هذا السؤال قطعاً بالنفى . وهنا نسارع فنسألهم : ولكن « لماذا » لم تشكوا فى دقة الميكروسكوب أو التلسكوب عند ما عجز كل منهما عن إرشادنا فى مجال الآخر ؟ إن الجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن : لكل منهما « مجاله » الخاص . وهذه بعينها هى النقطة التى نود إثباتها .

فصورة العالم « صحيحة » حسب كل مجال من المجالات التى تستخدم فيها هذه الصورة . وبالنسبة إلى أغراض مجال الإنسان العملى الحيوى ، تكون صورة العالم فى الموقف الطبيعى صحيحة تماماً لأنها هى الوحيدة المتسقة مع غايات الإنسان فى هذا العالم . ومن العبث أن تنقد إحدى هذه الصور الثلاث : الصورة الحيوية ، أو الميكروسكوبية ، أو التلسكوبية ، لأنها تعجز عن أداء وظيفة الأخرى .

فإذا جمعنا الآن بين الصورتين الميكروسكوبية والتلسكوبية تحت « جنس » أعم ، هو اسم « الصورة العلمية » ، لجاز لنا أن نعبر عن هذه النتيجة الهامة السابقة تعبيراً آخر ، هو أنه من العبث أن ننقد الصورة التي نكونها للعالم في موقفنا الطبيعي لاختلافها عن الصورة العلمية للعالم ، إذ أن كلا من الصورتين تؤدي وظيفة مختلفة تماماً عن وظيفة الأخرى ، وتسرى على مجال مخالف تماماً لمجالها .

* * *

والآن فلنتحدث عن الخلط بين الموقفين الطبيعي والعلمي ، بضرب أمثلة له ، وبيان آثاره العظيمة الأهمية في التفكير الفلسفي .
ولكى نوضح طبيعة هذا الخلط ، نضرب ذلك المثل المألوف لدينا جميعاً ، مثل العلاقة بين الأرض والشمس من حيث الدوران . فليس أوضح بالنسبة إلى أى شخص لديه أبسط قسط من التعليم في عصرنا هذا ، من أن الأرض هي التي تتحرك حول الشمس . ومع ذلك ، فمجرد القول بتحريك الأرض يعنى أننا دخلنا في مجال « التفسير العلمي » ، لا في مجال الحياة اليومية بما لها من مقتضيات بيولوجية . فرغم وضوح هذه الفكرة ، فإن من المستحيل حتى الآن — وربما ظل من المستحيل إلى الأبد — أن نتصرف في حياتنا اليومية على أساس أن الأرض متحركة ، إذ أن هذه الحركة لا تؤثر مطلقاً في ذلك المجال الحيوى الذى يسود فيه الموقف الطبيعي . ومن هنا كنا لا نزال نرى الناس جميعاً ، بما فيهم كبار علماء الفلك لدينا ، يستخدمون في أحاديثهم المعتادة تعبيرات مثل « عندما طلعت الشمس أو غابت ... » هذه التعبيرات ليست مجرد تعبيرات متوارثة منذ كان الناس يعتقدون بحركة الشمس حول الأرض ، وإنما هي تعبيرات تدل على ما يلزمنا في موقفنا الطبيعي . والدليل على ذلك أننا سنسخر حتماً من ذلك الذى يستخدم في حديثه المعتاد عبارة مثل « قابلت

فتأتى على شاطئ البحر عندما دارت الأرض بحيث لم تعد الشمس ظاهرة ... » لماذا إذن نسخر من مثل هذا التعبير ، مع أنه صحيح ودقيق ، ونفضل عليه تعبيراً آخر أقل دقة هو « بعد غروب الشمس » ؟ لأن المسألة هنا ليست دقة أو عدم دقة ، أو صحة وبطلان ، وإنما هي مسألة مجالين مختلفين لكل منهما مقتضياته الخاصة وينبغى ألا يُخلط بينهما .

ولنسر خطوة أخرى في طريق إيضاح فكرتنا ، فنقول إن الكثيرين ينقدون الموقف الطبيعى على أساس أنه كان عقبة في طريق التقدم العلمى . ففى المثال السابق ، كان الاعتقاد « الطبيعى » بأن الشمس هى المتحركة ، وهو اعتقاد تولده الحواس بإدراكها ثبات الأرض وتغير مواقع الشمس ، عائقاً في سبيل كشف العلاقة الحقيقية بين الأرض والشمس من حيث الحركة ، وظل يغذى حركة مقاومة النظرية الفلكية الجديدة بعد ظهورها بمدة طويلة . وهذا الانتقاد صحيح ولا شك ، ولكن الخطأ هنا في واقع الأمر لم يكن خطأ الموقف الطبيعى ذاته ، بل خطأ العلماء القدماء الذين حاولوا الاكتفاء بالموقف الطبيعى وتفسير كل الظواهر العلمية من خلاله . والأمر الذى لا شك فيه أن الموقف الطبيعى والموقف العلمى يكونان في بداية الأمر متفقين ، ثم يصبح للعلم مجاله الخاص كلما اقتضى تقدمه البحث عن أوجه أخرى للظواهر غير الأوجه المحسوسة مباشرة منها . ولكن الذى ينبغى أن ننبه إليه ، مع اعترافنا بهذا الانتقاد ، هو أن الموقف العلمى حين يستقل عن الموقف الطبيعى لا ينبغى أن يحل محله في ميدانه ، إذ يظل الموقف الطبيعى محتفظاً بصلاحيته وقيمه في الميدان المخصص له ، ويكون الفارق بين حالة العصر المستنير والعصر غير المستنير هو في إدراك الأول لارتباط هذا الموقف بمجاله الخاص ، وكف الأذهان عن محاولة تطبيقه في جميع الميادين .

ولقد كان النزاع الفكرى المشهور الذى دار بين الفيلسوفة الإنجليزية

« سوزان ستبنج S. Stebbing » وبين مجموعة العلماء الإنجليز الذين أقحموا أنفسهم في ميدان الفلسفة وأرادوا استخلاص نتائج فلسفية خطيرة من الكشوف العلمية الثورية التي حفل بها الربع الأول من القرن العشرين — كان هذا النزاع مظهرا من مظاهر مشكلة العلاقة بين العلم والموقف الطبيعي . وقد وقفت « سوزان ستبنج » موقفا حاسما ضد تشويهاات إدنجتن وجيمس جينز التي كانت ، من الوجهة الفلسفية ، بعيدة كل البعد عن ذلك المستوى الرفيع الذى بلغاه في ميادين تخصصهما العلمية ، فقالت : « لا شيء سوى الفوضى يمكن أن ينتج عن ... الخلط بين اللغة التي تستخدم استخداما سليما للتعبير عن الأشياء المحيطة بنا وعن معاملتنا اليومية معها ، وبين اللغة المستخدمة لغرض المناقشة الفلسفية والعلمية . »^(١) ثم زادت فكرتها تحديدا بقولها « ... إن النظريات الحديثة في الذرة لا تقدم أدنى مبرر للقول بأن التطورات الأخيرة في الفيزياء تؤدي ، على أى نحو ، إلى إثبات بطلان المادية ، أو يمكن استخدامها في تقديم أية حجج مؤيدة للمثالية . »^(٢)

ولا شك أيضا أن « تولمين Toulmin » كان في ذهنه هذا النزاع ذاته حين أكد نفس الفكرة التي نقول بها في ضرورة تجنب الخلط بين اللغتين العلمية والفلسفية ، فقال « ليس من حق العالم أن يشكك في أى تفسير للتجربة تقدمه اللغة اليومية المعتادة بحجة أن هذه اللغة تخفق فيما تتصدى له . ذلك لأن اللغة اليومية تصف موضوعات تجربتنا على نحو يحقق أغراضنا المعتادة أكمل تحقيق ... فالمنضدة التي أكتب عليها صلبة ، وكذلك الحال في الكرسي الذي أجلس عليه ، ومن حقي أن أأخذ أيا منهما مثلا للشئ الصلب عندما أقوم بتعليم أى شخص فكرة الصلابة . وعلى أساس معرفتي بصلابتهما أبني اقتناعي بأننى

L. Stebbing : Philosophy and the Physicists p. 47.

(١)

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧٨ .

إذا اصطددمت بأى منهما فى الظلام ، فسوف أصاب بكدمة ... غير أن العالم يطرح جانباً فكرة الصلابة بمعناها اليومى ، لأنها قد تؤدى به إلى الاعتقاد — خطأ — بأن أى شىء لا يمكن أن يخترق المنضدة أو الكرسي حتى ولا شعاع من أشعة ألفا . ومن حقه تماماً أن يفعل ذلك ، بوصفه عالماً فيزيائياً . ولكن من الخطأ ، أو من التخبیط أن يقول إن هذه المنضدة ليست صلبة على الإطلاق ، إذ أن أشعة ألفا تخترقها ، فلا بد إذن أن تكون مليئة بالثقوب . أى أن العالم يكون على خطأ لو تصور أن نتائج تجربته تفند مفهوم الصلابة بمعناها اليومى . »^(١)

وهكذا يمكن القول إن الفكرة التى نادى بها ، والتى يمكننا أن نجد صدى لبعض جوانبها فى كتابات فلسفية أخرى ، ليست على الإطلاق دفاعاً « مطلقاً » عن الموقف الطبيعى ، وإنما هى دفاع عنه فى تلك المجالات التى لا ينبغى أن يزاحمه فيها الموقف العلمى ، والتى ينبغى أن تظل لغة الموقف الطبيعى هى وحدها السائدة فيها . أما فى المجالات التى يجب أن تكون الكلمة الأخيرة فيها للعلم ، فمن السذاجة ، دون شك ، أن يحاول أحد الدفاع عن الموقف الطبيعى على حساب العلم .

ونقد كان الفيلسوف الفرنسى المعاصر « جاستون باشلار » من أشد المفكرين نقداً للموقف الطبيعى ، بوصفه عقبة ظلت تعترض طريق التقدم العلمى ردحاً طويلاً من الزمان . وكان نمو العلم ، فى رأيه ، نمواً متعرجاً لا يسير فى خط مستقيم ، بل يحدث التقدم فيه من خلال صراع مستمر مع الخطأ . فالحقيقة العلمية خطأً تم تصحيحه . وليس ثمة قيمة كبيرة لتلك الحقيقة التى تظهر منذ البداية واضحة ساطعة متميزة عن كل ما عداها (وفى ذلك يتخذ

Stephen E. Toulmin : The Place of Reason in Ethics. Cambridge (١)

باشلار موقفا مضادا تماما لموقف ديكارت ، الذى جعل من الوضوح والتميز معيارا لصحة الأفكار ، وكانت أرفع الحقائق فى نظره هى تلك التى تفرض نفسها على الذهن ، وتصدر عن الحدس ، على نحو لا نملك معه إلا قبولها . (بل إن الخطأ كامن فى قلب الحقيقة . وللخطأ الأولوية فى كل معرفة حقة تتوصل إليها الإنسانية ، لأن هذه المعرفة إنما هى فى الواقع خلاص تدريجى من ريقة الجهل والخطأ الذى يظل يفرض نفسه علينا ما لم نعمل على مقاومته بلا هوادة . ولا جدال فى أن تشبث الخطأ بمواقعه ، واضطرار العلم فى كل خطوة من خطوات تقدمه إلى أن يكافح ويصارع من أجل إزاحة « عقبة » الجهل التى تقف أمامه بعناد ، إنما يرجع إلى تأثير الموقف الطبيعى الذى يراحم الروح العلمية ويمسك بتلابيبها محاولا منعها من المضى فى طريقها قدما .

هذه الحملة الشعواء التى شنّها باشلار على الموقف الطبيعى ، قد توحى بأن رأى الذى ندافع عنه فى هذا الكتاب ، متعارض مع موقف مفكر من أعظم فلاسفة العلم فى عصرنا الحاضر ، وبالفعل استنتج البعض من ذلك أن كتابات باشلار تعد تنفيذا مسبقا لموقف الدفاع عن الموقف الطبيعى^(١) . على أن الأمر الذى ينبغى أن نتنبه إليه هو أن باشلار كان يتحدث على الدوام من المنظور العلمى . فلم تكن مهمته هى إجراء مقارنة « مطلقة » بين الموقف الطبيعى والموقف العلمى ، وإنما كان يبحث فى الموقف الطبيعى من حيث مدى تأثيره فى تطور العلم . ولقد كان من المتوقع ، فى هذه الحالة ، أن يوجه انتقادا مريرا إلى الموقف الطبيعى عندما يتدخل فى مجرى العلم ؛ ويعدّه عقبة أساسية يتعين على العلم أن يكافحها بلا هوادة .

وعلى هذا الأساس أسهب باشلار فى وصف تلك المرحلة التى كان العلماء

(١) انظر : رسالة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام بعنوان : « تطور الجدل بعد هيجل »

يخلطون فيها بين مقتضيات البحث العلمي ومقتضيات الموقف الطبيعي ، وهي المرحلة التي يسميها « بالفترة قبل العلمية période préscientifique » والتي تمتد في رأيه حتى القرن الثامن عشر . ففي هذه المرحلة كان العلماء عاجزين عن التفرقة بين البحث العلمي وبين وقائع الحياة اليومية ؛ وكانوا يملأون كتاباتهم وأبحاثهم بحكايات وقصص تنتمي إلى مجال العالم اليومي ؛ ويبدؤون دائما بإشارات إلى التجربة العامة المألوفة ، ويقفون متعجبين أمام الظواهر الطريفة والملاحظات والمشاهدات المثيرة ؛ وكان التأليف العلمي مختلطا إلى حد بعيد بالصور والمجازات والاستعارات . وفي مثل هذا المجال العيني يستحيل أن يقوم علم بالمعنى الصحيح ، إذ أن العلم إنما هو انتقال من العيني إلى المجرد . والتجريد ، الذي هو تركيب ذهني بحت ، يؤلف عالما علميا خاصا يشيّد عمدا على نحو منفصل عن التجربة المباشرة . ومن هنا كان قول باشلار : « ينبغي أن تتكون الروح العلمية ضد الطبيعة ، وضد ما تدعونا إليه الطبيعة وتلقنا إياه ، في داخلنا وفي خارجنا ، وضد الاندفاع الطبيعي ، والواقعة الطريفة المتنوعة . فمن الواجب أن تتكوّن الروح العلمية عن طريق إعادة تشكيل ذاتها . وهي لا تستطيع أن تتعلم ، إزاء الطبيعة ، إلا بتنقية المواد الطبيعية وتنظيم الظواهر المختلطة ؛ بل إن علم النفس ذاته لن يصبح علميا إلا إذا أصبح نظريا discursive كالفيزياء ، وأدرك أننا لا نستطيع أن نفهم الطبيعة إلا بمقاومتها ، وأن هذا يصدق على ما في داخلنا مثلما يصدق على ما في خارجنا » (١) .

وهكذا كان اعتراض باشلار منصبا ، في الواقع ، على « الخلط » بين مجالي العلم والتجربة اليومية ، لا على هذه الأخيرة في ذاتها .. فإذا اتُّخذت التجربة اليومية أساسا لبحث علمي ، كان من الضروري انتقادها . وتدل فكرة

المقاومة والتصحيح المستمر ، التى أكد باشلار أنها هى المبدأ الأساسى فى تكوين الروح العلمية ، على أنه يعترف ضمنا بأن التجربة اليومية تفرض نفسها علينا فى شتى المجالات ، ولكن الدخول فى ميدان العلم يحتم علينا أن نقاومها ونصحح أخطاءها . ومجمل القول إن باشلار ، فى نقده للموقف الطبيعى ، كان يتحدث من منظور العالم ؛ وكان له كل الحق فى أن ينتقد العلم المرتكز على الموقف الطبيعى ، والعلماء الذين يخلطون بين مقتضيات كل من العلم والحياة اليومية ، ويطبقون معايير الثانية على الأولى ، وكل هذه آراء لا تتعارض على الإطلاق مع ما نقول به من ضرورة الفصل بين المجالين ، وعدم محاسبة أحدهما لعجزه عن تحقيق أهداف الآخر .

* * *

وإذن فمن الضرورى أن نفصل بين مجالى الموقف الطبيعى والموقف العلمى ، ونتجنب الخلط بينهما . ولكن هذا الخلط قد حدث بالفعل خلال تاريخ الفلسفة . وكان مسئولا عن عدد كبير من الأخطاء التى ارتكبت فى ميدان نظرية المعرفة .

ففى الفلسفة القديمة كان الموقف العلمى مندجاً فى الموقف الطبيعى . وكان الخطأ الذى ارتكبه الفلاسفة هو أنهم نظروا إلى الموقف الطبيعى على أنه يمثل العلم فى الوقت ذاته ، ورأوا أن « مقولاته » كفكرة الجوهر ، تعبر أيضاً عن الأسس الأولى للعلم . أى أن طبيعة الأشياء تُفهم فهماً كاملاً من خلال الموقف الطبيعى ، بحيث لا تحتاج إلى البحث عن أية صورة أخرى لها مخالفة لصورتها فى حياتنا اليومية — وهذا هو ما يعلل ظاهرة عدم التفرقة بين الفيلسوف والعالم فى العالم القديم .

أما فى عصر انفصال العلم عن الفلسفة ، فقد ارتكب الفلاسفة الخطأ المضاد ، وهو محاسبة الموقف الطبيعى عن عجزه عن تفسير الظواهر العلمية .

وهكذا نُقِدت مثلاً فكرة « الشيء » ، أو فكرة « الجوهر » على أساس تحليل العلم للصفات المختلفة التى يرجع إليها ما نسميه بالشيء ، وهى صفات بعيدة كل البعد عن صفات « الجوهر » القديم ، ونسى الفلاسفة هنا أن كشف ذلك العالم العلمى الزاخر ليس معناه هدم الأسس التى يقوم عليها الموقف الطبيعى ، إذ أن تلك الأسس ستظل منطبقة على هذا الموقف مهما كانت درجة التقدم التى يبلغها العلم .

ولنتحدث الآن بشيء من التفصيل عن هذين النوعين من الخلط بين الموقف الطبيعى والموقف العلمى .

* * *

فمن المعروف أن الذهن البشرى فى العالم القديم لم يكن لديه العتاد العلمى اللازم لاكتشاف « العالم الأصغر » و « العالم الأكبر » على أسس تجريبية صحيحة . حقاً إن بعض النظريات « الذرية » ، وكذلك بعض النظريات الفلكية قد ظهرت ، ولكن الاستنباط العقلى أو الرياضى كان له الدور الأكبر فى كشف هذه النظريات . أما فى ميادين البحث الأخرى فإن أساس التفكير العلمى كان الارتكاز على وجهة النظر الطبيعية الشائعة ، مع شيء من الترتيب المنهجى الذى تطبق فيه قواعد المنطق الصورى المعروفة . وهكذا كان مجال بحث العلم لا يكاد يختلف كثيراً عن الأشياء كما تراها أعيننا العادية . ولما كان هذا المجال يكوّن النقطة التى يبدأ منها البحث الفلسفى بدوره ، فإن التمييز بين العلم والفلسفة لم يكن ممكناً فى ذلك العهد .

ونستطيع أن نقول إن شيوع فكرة « الجوهر » فى الفلسفة القديمة كان تعبيراً عن ارتكاز الفكر القديم بأسره — فى المجالين العلمى والفلسفى معاً — على الموقف الطبيعى . ففكرة الجوهر ترتبط بالموقف الطبيعى ارتباطاً واضحاً ، إذ أن العنصر الأساسى فى هذا الموقف هو أننا ندرك « أشياء » ،

وفكرة « الشيء » هذه هي الأساس الذي استخلصت منه فكرة الجوهر . وكما يميز الموقف الطبيعي بين الشئ ومظاهره ، فكذلك كانت الفلسفة القديمة تميز بين الجوهر وأعراضه ، على أساس أن الجوهر هو العنصر الثابت من وراء تغيرات الأعراض .

فال معنى الأصلي لفكرة الجوهر عند أرسطو هو « الشئ الفردى »^(١) ، أو ما يمكن أن يشار إليه بكلمة « هذا »^(٢) . وأول تعريف للجوهر في المقال الخامس من الميتافيزيقا هو « الأجسام البسيطة ، أى التراب والنار والماء وكل شئ من هذا القبيل ، وعلى العموم ، الأجسام ، والأشياء المؤلفة منها ، والكائنات الحية والإلهية وأجزاؤها »^(٣) . وفى مستهل المقال الثامن يحدد أرسطو الجواهر المعترف بها اعترافاً عاماً بأنها هي « الجواهر الطبيعية : وهي النار والتراب والماء والهواء ، أى الأجسام البسيطة ، وثانياً : النباتات وأجزاؤها ، والحيوانات وأجزاؤها ، وأخيراً : الكون المادى وأجزاؤه »^(٤) . وإذا تذكرنا أن مقولات أرسطو كانت تحليلاً للطرق التى تقال بها أحكامنا أو عباراتنا على الأشياء ، وأنها كلها تلخيصات لأعم طرق الحكم والحمل فى اللغة المألوفة ، لكانت النتيجة الضرورية هي أن فكرة الجوهر تسجيل لاتجاه عام فى استخدامنا المعتاد للغة . ولم يكن ستخلاص أرسطو لها — شأنه شأن الكثير من عناصر فلسفته ومنطقه — إلا تلخيصاً للأفكار العامة الكامنة من وراء استعمالنا المألوفة .

وصحيح أن أرسطو يضيف إلى معنى الجوهر بوصفه الأجسام البسيطة أو

Categories. 3 b. (١)

Metaphysics. 1003 a. (٢)

Ibid 1017 b. (٣)

1042 a. (٤)

الأشياء الفردية معنى آخر ، هو « ماهية » الأشياء^(١) ، وأن هذا المعنى قد يتخذ ذريعة لنقل الفكرة من مجال الموقف الطبيعي إلى المجال العلمى ، على أساس أن تفسيرها بالماهية معناه أن الجوهر تعبير عن الطبيعة « الحقيقية » — أو العلمية — للأشياء . ولكن الأمر المؤكد أن فكرة وجود ماهية للأشياء هى فكرة قائمة أيضاً على مستوى الموقف الطبيعى ذاته : ففى تعاملنا اليومى مع الأشياء نفرق حتماً بين تغيراتها العرضية أو الكمية أو الكيفية أو الزمانية أو المكانية ، .. إلخ ، وبين الشئ فى ماهيته الحقيقية . وهكذا يكون تعرفى على صديقى « س » بعد سنوات متعددة ، وفى الوقت الذى ازداد فيه جسمه نمواً وتغيرت طباعه واختلفت ملابسه إلخ .. راجعاً إلى تمييزى — فى مستوى الموقف الطبيعى — بين ماهية ذلك الشخص وأعراضه . وإذن فجميع تعريفات فكرة الجوهر عند أرسطو يمكن أن تربط بالموقف الطبيعى ، بحيث تكون الفكرة فى نهاية الأمر تعبيراً واضحاً عن محاولة أرسطو أن « يفلسف » الموقف الطبيعى أو يكشف مقولاته الكامنة . وهذا التفسير طبيعى تماماً من الوجهتين المنطقيه والتاريخية معاً . فلنا كل الحق فى أن نتوقع أن تكون البدايات الأولى لنضوج الفكر البشرى مرتكزة على الموقف الطبيعى ، وأن تكون أول محاولة لبناء منطق شامل تحليلاً للعناصر الرئيسية التى ينطوى عليها هذا الموقف .

ولقد أيد الكثيرون ممن كتبوا فى هذا الموضوع ، رأى القائل بارتباط فكرة الجوهر بالموقف الطبيعى . ففى كتاب Substance & Function يؤكد « كاسير » ضرورة فكرة « الشئ » فى تفكير أرسطو ، من حيث إنها هى الأساس الذى بنيت عليه فكرة الجوهر ، التى تعبر « التصورات » عن ماهيتها الحقيقية ، فيقول « إن تحديد التصور حسب جنسه القريب وفصله إنما هو

ترديد للعملية التي يتكشف بها الجوهر الحقيقي على مراحل متعاقبة في صور وجوده الخاصة . وهكذا فإن فكرة « الجوهر » الأساسية هذه هي التي تركز عليها نظريات أرسطو المنطقية الخالصة على الدوام . وهنا يكون النسق الكامل للتعريفات العلمية تعبيراً كاملاً ، في الآن نفسه ، عن القوى الجوهرية التي تتحكم في العالم الواقعي «^(١) .

وفي موضع آخر يزداد الفكر إيضاحاً حين يتحدث عن « الرأي الساذج في العالم ، الذي يهيب به الفهم المنطقي التقليدي ويرتكز عليه »^(١) . ويتحدث « بلانشيه » عن الارتباط بين دور « الموضوع » في القضية الحملية التقليدية وبين فكرة الجوهر ، وبالتالي عن أثر الموقف الطبيعي في المنطق التقليدي فيقول : « .. إن غلبة الموضوع على المحمول في الحكم تعبر عن أولوية الجوهر على العرض (أو الصفة) في المجال الانتولوجي ، وأولوية الوجود على المعرفة في علاقات الفكر بالواقع .

وإن واقعية الجوهر هذه لتعبر بوضوح ، ومعها منطق التصور الذي ترتبط به عن الفلسفة الغامضة (diffuse) للموقف الطبيعي *sens commun* مدينتنا الغربية »^(٢) .

وإذن ، فأرسطو حين قال بفكرة الجوهر لم يفرض شيئاً على الفكر

Cassirer : Substance & Function . Dover Publications . N. Y. (١)

1953 p . 7 , 8 .

Blanché : la science physique . P. U. F. Paris 1948 p , (٢)

16 . 17 .

نظرة المعرفة

البشرى ، بل لخص طريقة نظر الإنسان إلى الأمور في حياته اليومية ، وأضفى عليها طابعاً فلسفياً . وقد أدرك ذلك « ألن » بوضوح في كتابه عن أرسطو ، إذ قال « لم يكن [أرسطو] هو الذى علّم الناس أن ينظروا إلى الأجسام ، أو أى شىء آخر في العالم ، على أنها جوهرية . وأغلب الظن أن الناس قد فعلوا ذلك من أقدم عصور الفكر البشرى ، إذ أن من طبيعة الذهن البشرى أن يحزم موضوعات بحثه ، أيا كانت ، في جواهر وكميات وعلاقات » ^(١) . وإذن ، ففكرة الجوهر لم تكن عند أرسطو إلا تعبيراً عن ارتباط الفكر في عصره بطريقة النظر المألوفة إلى الأشياء .

* * *

ونستطيع أن نقول إن الخطأ الذى ارتكبه نقاد فكرة الجوهر في الفلسفة الحديثة ، كان هو الاعتقاد بأن الفكرة دخيلة ومفروضة على الذهن البشرى على نحو ما — وهو اعتقاد يتجاهل تلك الصفة الأصلية التى لا يمكن أن ينتزعها من ذهننا أى تقدم فكرى أو علمى ، وهى صفة الاهتداء إلى « أشياء » في تجربتنا اليومية على الدوام . ففى رأى لوك مثلاً أن فكرتنا عن الأنواع الخاصة من الجوهر تتكون عن طريق « ضم تلك المجموعات من الأفكار البسيطة التى ندرك في التجربة وفي ملاحظات حواسنا البشرية أنها موجودة سويًا ، والتى يُعتقد بالتالى أنها تتلو من التركيب الداخلى الخاص ، أو الماهية المجهولة ، لذلك الجوهر . وهكذا نصل إلى تكوين أفكار عن الإنسان والفرس والذهب والماء ، إلخ وهى أمور أهيب بالتجربة الخاصة لكل شخص أن تنبئنى إن كانت لدينا عنه أية فكرة واضحة ، بخلاف كونها أفكاراً بسيطة توجد سويًا ^(٢) .

D. J. Allan : the Philosophy of Aristotle.

(١)

(Home University Library. London 1952) p. 106.

Essay, II, 23, 3.

(٢)

وطالما أن لوك قد استشهد « بالتجربة الخاصة لكل شخص » ، فمن حقنا أن نرد عليه قائلين إن المصدر الأول والأهم لفكرة الجوهر هو تجربة الناس اليومية . ولا يمكن أن يكون وصفنا هذه التجربة دقيقاً أو أميناً إذا قلنا إن الناس يجدون فيها مجموعة من الأفكار البسيطة الموجودة معاً ، ثم يكتفون منها بالتعود فكرتهم عن الجوهر . بل إن الذى يحدث دائماً — لا فى أيام لوك أو أيام أرسطو فحسب — هو أن يبدأ الناس بالنظر إلى موضوعات إدراكهم على أنها « أشياء » . ولا يمكن الوصول إلى الرأى القائل إن الجوهر مجموعة أو حزمة من الصفات الموجودة معاً إلا عن طريق « التحليل الفكرى » ، أما التجربة المألوفة — التى استشهد بها لوك — فتؤدى إلى عكس ما يقول . ومن الغريب أن لوك يقول فى الفقرة التالية مباشرة من كتابه إننا نفترض الأفكار البسيطة موجودة فى جوهر مشترك « لأننا لا نستطيع أن نتصورها موجودة وحدها أو واحدة فى الأخرى »^(١) . وهنا ينبغى أن نسأله : لماذا لا نستطيع أن نتصورها موجودة وحدها ؟ وهل فكر فى سبب هذه الاستحالة أو فى دلالتها ؟ ألا ترجع إلى كون تجربتنا فى الإدراك مصوغة على هذا النحو ؟ وفضلاً عن ذلك ، أليس هذا دليلاً على أن المسألة أكثر من مجرد « التعود » النفسى الذى أشار إليه ؟ وبالمثل يقول هيوم « إن اللون والطعم والشكل والصلابة وغيرها من الصفات المجتمعة فى خوخة أو بطيخة ، تدرك على أنها تكون شيئاً واحداً وذلك نتيجة للعلاقة الوثيقة بينها ، وهى العلاقة التى تجعلها تؤثر فى الفكر على نفس النحو الذى تؤثر عليه الأشياء البسيطة تماماً — ولكن الذهن لا يقنع بذلك : فكلما رأى الشئ فى ضوء آخر ، وجد كل هذه الصفات مختلفة ، تقبل التمييز والانفصال بعضها عن البعض . ولما كان هذا الرأى فى الأشياء يهدم أفكاره

الأولى الأكثر طبيعية، فإنه [أى هذا الرأى] يدفع الخيال إلى ابتداع شىء غير معلوم، أو جوهر « أصلى » ومادة « أصلية » يكون مبدأ الوحدة أو التماسك بين هذه الصفات، وهو الذى يجعل الشىء المركب جديرًا بأن يسمى شيئًا واحدًا، رغم تنوعه وتعقيده «^(١)». وهنا أيضًا يعترف هيوم بارتباط الفكرة « بأفكارنا الأولية الأكثر أصالة » — أى بموقفنا الطبيعى — ولكنه من جهة لا يستخلص الدلالة الحقيقية لهذا الارتباط، ويقدم إلينا من جهة أخرى صورة غريبة كل الغرابة عن تجربتنا: هى تلك التى « يتدع » فيها الذهن أو « يصوغ » دعامة لأفكارنا البسيطة، وكأن الأمر عملية واعية نقوم بها عمدًا، وكأن فى وسعنا تحديد الظروف التى قمنا فيها بمثل هذا الجمع « الخيالى » بين الأفكار البسيطة فى جواهر.

والمهم فى هذا كله، على أية حال، هو أن أعنف الفلاسفة نقدًا لفكرة الجوهر فى الفلسفة كانوا يعترفون فى كتاباتهم ضمناً بأن الفكرة مرتبطة بموقف الإنسان الطبيعى، رغم محاولتهم تصوير التجربة على نحو يخالف ما حدث فعلاً فى هذا الموقف. والنتيجة الحتمية للارتباط بين فكرة الجوهر — مفهومة بمعنى أنها إدراك موضوعات إدراكنا على أنها « أشياء » — وبين التجربة اليومية الفعلية للإنسان، هى أن ذلك الارتباط سيظل مستمرًا وقائمًا مهما تغيرت الظروف العلمية أو الفكرية التى يعيش فيها الإنسان. ذلك لأن الموقف الطبيعى، كما لاحظنا من قبل، غير قابل للتغير، ومقتضياته الأساسية تظل قائمة على الدوام.

وإذا كان ضمن هذه المقتضيات فكرة وجود « أشياء » لها كيان مستقل قائم، وما تؤدى إليه هذه الفكرة من القول بوجود « جواهر »، فإن هذه

المقتضيات ستظل على الدوام لازمة للموقف الطبيعي ، ومن العبث أن يحاول أحد في أى عصر فصلها عنه .

ومع ذلك ، فمن الشائع جدًا أن نجد فيلسوفا يحاول أن يثبت أن نظرة الإنسان إلى العالم بوصفه مؤلفًا من « أشياء » قد تطورت ، وما زالت قابلة للمزيد من التطور . وسنضرب لذلك مثلين :

— (١) ففي كتاب « علم الميكانيكا » يقول إرنست ماخ : « إن الطبيعة تتألف من إحساسات هي عناصرها . ومع ذلك فقد التقط الإنسان البدائي أول الأمر مركبات معينة لهذه العناصر — أعنى تلك التى تتسم بثبات نسبي وبأهمية أعظم بالنسبة إليه . فأول الكلمات وأقدمها هي أسماء « أشياء » . وحتى في هذه المرحلة نجد عملية تجريد للأشياء مما يحيط بها ، ومن التغيرات الصغيرة المستمرة التى تمر بها هذه الإحساسات المركبة ، والتى لا تلاحظ لأنها ليست بذات أهمية عملية . فلا وجود لشيء لا يتغير ، وإنما الشيء تجريد ، والاسم رمز لمركب من العناصر نجرد منه التغيرات . والسبب الذى يجعلنا نطلق كلمة واحدة على مركب كامل هو أننا نريد أن نوحى بكل الإحساسات المكونة دفعة واحدة . فالإحساسات ليست علامات على الأشياء ، وإنما الشيء هو فى الواقع رمز فكري لإحساس مركب ذى ثبات نسبي . وبعبارة أصح ، فالعلم ليس مؤلفًا من « أشياء » هي عناصره ، وإنما من ألوان وأصوات وضغوط وأمكنة وأزمنة ، وبالاختصار ، فهو مؤلف مما نسميه عادة بالإحساسات الفردية » (١) .

فى هذا النص يحاول المؤلف أن يقنعنا بأن فكرة « الشيء » ترجع إلى عملية

D.Ernst Mach : The Science of Mechanics. Quoted from : (١)

« The Age of Ideology » Edited by Henry. D. Aiken. Braziller Press. New york 1957. p. 261, 261.

غير صحيحة قام بها الإنسان البدائي لأغراض عملية ، أى أن لفكرة « الشئ » أصلاً تاريخياً ، مرتبطاً بظروف معينة في مدنية الإنسان ، لا بطبيعة الإنسان نفسه . وهو حين يشير إلى أن أقدم الألفاظ هي أسماء الأشياء ، يرمى إلى إثبات هذا الارتباط بين تكوين فكرة « الشئ » وبين الإنسان البدائي ، على حين أن هذا القدم إن دل على شئ فإنما يدل على تأصل هذه الفكرة في طريقة إدراك الإنسان من حيث هو إنسان ، وعلى أنها لا تتصل من قريب أو بعيد بأية مرحلة حضارية بعينها .

(ب) وتقترب من ذلك إلى حد بعيد تلك المحاولة التي بذلها « مارجنو Margenau » لإثبات تطور قواعد تلك العملية التي يضيف بها الإنسان صبغة الشيئية على موضوعات إدراكه . فهو يذهب في كتابه « طبيعة العالم المادى » إلى أن عملية إضفاء الشيئية (reification) تنطوى على عدة عناصر لا يمكن استخلاصها بالتجريد من المعطيات الحسية ، ومن بين هذه العناصر ، عنصر التركيب وفقاً لقواعد قابلة للتغير ، لا كامن في طبيعة ذهن البشرى كما اعتقد كانت وأتباعه . وهكذا انتهى إلى أن « عملية إضفاء صبغة الشيئية هي في الواقع أول خطوة يتخذها جنسنا في سبيل الوصول إلى الإجراءات الأكثر تعقيداً ، والسائدة حالياً في العلوم الدقيقة »^(١) . ولنذكر هنا أنه يعرف عملية إضفاء صبغة الشيئية بأنها « عملية افتراض « شئ » كلما عرض مظهر حسي »^(٢) . وهذا التعريف ذاته يستتبع أن تكون هذه العملية مختلفة تماماً عن تلك العملية المعقدة التي ندرك بها . فهي عملية افتراض « شئ » ، وليست عملية تعرف على شئ « محدد » . وليست عملية إضفاء صبغة

Margenau : The Nature of Physical Reality, Mc Graw-Hill (١)

Publications.

Ibid - p. 64.

(٢)

الشيئية ، كما ظن « مارجنو » هى تلك العملية المعقدة التى ندرك بها أن هذه الإحساسات تؤلف « شجرة » ، بل هى مجرد العملية التى ندرك بها أن هذه الإحساسات تؤلف « شيئاً » فحسب ، أو على الأصح ، أن هناك « شيئاً » ترتبط به هذه الإحساسات . ونحن نعرف أن العملية الأولى عملية معقدة ، وأنها تؤلف بالفعل الخطوة الأولى نحو التصنيف العلمى ، ولكن من الخطأ تحديدها بأنها عملية إضفاء صبغة الشيئية على الأشياء ، بل إنها قد تكون « تعرفاً » أو تحديداً أو تصنيفاً ، أى تحديد كنه الشيء ، لا مجرد افتراض وجود « شيء » فحسب . فهذا الفعل الأخير ، أعنى مجرد افتراض شيء ، هو فعل أكثر أصالة ، وغير قابل للتغير ، ولا شأن له على الإطلاق بما يحزره العلم من تقدم . ولقد كان الخلط بين ذلك الفعل الأصيل ، البسيط ، وبين العملية الأخرى الأكثر تعقيداً ، وهى تحديد كنه هذا الشيء ، من أهم العوامل التى أدت إلى تعقيد العملية البسيطة الأولى ، فكانت النتيجة النهائية لهذا الخلط هى ظهور تلك الآراء التى يبدو أنها تؤدى إلى القول بأن فعلاً أصيلاً كهذا يمكن أن يتغير تبعاً لتقدم العلم أو تطور مدنية الإنسان .

ولو قيل إن علينا أن نقارن ، زمنياً ، بين النظرة إلى العالم على أنه مكون من إحساسات ، وبين النظرة إليه على أنه مكون من أشياء ، لقلنا إن أساس المقارنة ذاته غير صحيح . فالنظرة الثانية تنتمى إلى الموقف الطبيعى ، والأولى إلى الموقف العلمى . وعلى ذلك فالثانية فى مجالها الخاص ، غير قابلة للتطور ، إذ لا يستطيع أحد أن يدعى أننا كنا أيام أرسطو ننظر إلى التفاحة على أنها شيء أو جوهر ، بينما أصبحنا الآن نعتها بمجموعة من المدركات ، أى لونا وطعماً وشكلاً فحسب ، ونتعامل معها على هذا الأساس . فمن الواضح أن التفاحة كانت ولا تزال ، وستظل دائماً « شيئاً » بالنسبة إلى موقفنا الطبيعى . بل إننا فى هذا الموقف الطبيعى نقول بالشيء أولاً ، ولا ندرك كيفياته

البنسطة ، بما هي كذلك ، إلا في عملية تالية . فمن الخطأ الزعم بأن فكرة « الشيء » حاجز لفظي يحجب عنا المكونات الحقيقية للطبيعة ، وهى الإحساسات المباشرة ، وأن تخطئ هذا الحاجز الذى تضعه اللغة بيننا وبين الطبيعة يوصل حتما إلى هذه المكونات الحقيقية . فالقول بأن العالم ، فى موقفنا الطبيعى ، مكون من « أشياء » ، هو قول أكثر أصالة من أى وضع لحاجز لغوى .

والواقع أن هذا رأى ، الذى يرد فكرة « الشيء » إلى اللغة ، ويجعلها حاجزا لغوياً يحجب عنا حقيقة العالم (وهى الإحساسات أو المعطيات المباشرة) ، ينطوى على سوء فهم لمعنى « الاتصال » ذاته ، وبالتالى فهو تعبير عن نظرة قاصرة إلى طبيعة اللغة ووظيفتها ، بالإضافة إلى ما فيه من أخطاء فى نظرية المعرفة . ذلك لأن وظيفة الاتصال هى نقل فكرة أو معنى من ذهن إلى ذهن آخر ، أما « واسطة » هذا النقل فليست هى التى ينصب عليها الاهتمام . ومن الممكن تشبيه اللغة التى تُتخذ واسطة فى عملية نقل الأفكار من ذهن إلى آخر بالعملة الورقية فى عمليات التبادل الاقتصادى . فصحيح أن هذه العملة الورقية بعيدة كل البعد ، من حيث قيمتها الذاتية ، عن السلع التى نبادلها بها ، وليس للورقة المالية فى ذاتها ، مهما علت قيمتها التبادلية ، قيمة تذكر . ولكن المهم هو أن يعترف الناس فيما بينهم بقيمة واحدة لها . ففى هذا الاعتراف المتبادل تكمن قيمتها وفائدتها ، أما قيمتها الذاتية أو علاقتها بما تتبادل معه فليست لها أهمية . واختلاف القيمة الكامنة للعملة الورقية عما نشتره بها لا يعنى أبدا أنها لا تصلح للاستخدام فى الشراء والتبادل . ولو طبقنا هذا المثل على المشكلة التى نحن بصدد حلها لتبين لنا بوضوح أن اختلاف اللفظ عن الموضوع الذى ندل به عليه لا يعنى أبدا أن هذا اللفظ يشوه طبيعة هذا الموضوع أو يحول بيننا وبين معرفته . والواقع أن المساواة بين الرمز اللغوى وبين ما يدل عليه ليست مطلوبة

على الإطلاق ، وما الرمز إلا جسر يعبر بالمعنى من ذهن إلى آخر ، وهو يكون قد أدى وظيفته كاملة إذا حقق عملية العبور هذه ، بغض النظر عن علاقته — من حيث التشابه أو المساواة — بالموضوع الذى يعبر عنه .

ولكننا لو تركنا هذا النقد اللغوى جانبا ، وعدنا إلى ذلك التقابل الذى يضعه أنصار الانطباعات الحسية بين التجربة المباشرة — التى نكتسبها عن طريق هذه الانطباعات — وبين التجربة غير المباشرة ، أو التحريف الذى يطرأ على التجربة بفضل إدخال فكرة « الشئ » فى إدراكنا ، لأمكننا إن نقول ، على العكس مما ينادى به أصحاب هذا رأى ، إن الزعم بأن الإحساسات المباشرة هى المكونات الحقيقية للطبيعة هو الذى يدل على التأثير بالحواجز اللغوية ، على حين أن القول بأن العالم مكون من « أشياء » هو الذى يعكس تأثير التجربة المباشرة . وهذا القول يبدو مضادا تماما للآراء السابقة الماثورة عن فلاسفة عديدين فى مختلف عصور التفكير الفلسفى . ولكن إثباته فى ضوء التفرقة بين الموقفين العلمى والطبيعى ، ليس عسيرا : فتجربة الإنسان الفعلية المباشرة ليست تجربة ألوان وطعوم وأصوات ، وإنما هى تجربة أشياء كاملة — وهذا أمر يقتضيه تكويننا نفسه لا أخطاء الإنسان البدائى ، أو التفكير قبل العلمى . أما فكرة اللون أو الصوت أو الطعم فلا نصل إليها إلا بالتجريد من هذه التجربة المباشرة ، التى هى واحدة لدى كل البشر وفى كل العصور . وهذا التجريد هو الذى يقتضى تصنيفا لغويا ، وتقسيما لإدراكنا المتكامل إلى عناصر مستقلة ، وهذا التصنيف والتقسيم هما اللذان يكونان أول مرحلة من مراحل التفكير العلمى . وبعبارة أخرى ، فكون الأشياء التى هى موضوع إدراكنا المباشر تنقسم إلى عناصر مميزة ، هو كشف لاحق يقتضى عملية معقدة لا بد لحدوثها من تطور عقلى وتهذيب حضارى وتجريد لغوى معقد . ولقد ناقش « إرنست ناجل » — وهو من أكبر فلاسفة العلم

المعاصرين — مواقف بيرسيون وآير وماخ ، الذين يذهبون إلى أن المعطيات الحسية هي العناصر الأولى والبسيطة لكل معرفة ، وانتهى إلى موقف مشابه لذلك الذى نعرضه ها هنا ، إذ قال : « الواقع أننا إذا تأملنا الأمر من وجهة نظر الحقائق السيكلوجية ، فإن المعطيات الحسية الأولية ليست هي المواد الأصلية الأولى للتجربة ، التى تشيد بواسطتها كل أفكارنا كما تشيد البيوت من أحجار منفصلة . بل إن التجربة الحسية ، على العكس من ذلك ، هي استجابة لأنماط معقدة — وإن تكن غير محللة — من الكيفيات والعلاقات . وتنطوى هذه الاستجابة عادة على ممارسة عادة التفسير والتعرف المبنية على اعتقادات واستدلالات ضمنية لا يمكن استخلاصها من أية تجربة منفردة مؤقتة . وعلى ذلك فاللغة التى نستخدمها عادة لوصف تجاربنا المباشرة ذاتها هي اللغة المعتادة للاتصال الاجتماعى ، التى تنطوى على تميزات ومسلمات يرجع أساسها إلى تجربة جماعية عامة ، وليست لغة تحدد معناها على أساس الإشارة المزعومة إلى ذرات من الإحساسات لم يفسرها الدهن .

« والواقع أن من الممكن فى بعض الأحيان ، تحت ظروف مضبوطة بدقة ، أن نحدد كيفيات بسيطة تدركها الأعضاء الحسية مباشرة . غير أن هذا التحديد إنما يكون خاتمة لعملية مرسومة معقدة من العزل والتجريد ، نقوم بها لأغراض التحليل . وليست هناك شواهد موثوق بها على أن الكيفيات الحسية تدرك على أنها بسائط ذرية ، ما لم يكن ذلك بوصفها نهاية ونتيجة لعملية كهذه . فضلا عن ذلك ، فعلى الرغم من أننا قد نطلق على هذه النواتج اسم المعطيات الحسية ، وندرج فئاتها المختلفة تحت أسماء متباينة ، فإن فائدة هذه الأسماء ومعانيها لا تثبت إلا من حيث هي إرشادات توجهنا إلى القيام بعمليات تتعلق بأوجه نشاط جسمية واضحة . وإذن فمعانى ألفاظ المعطيات الحسية لا تفهم إلا إذا سلمنا بالتميزات والمسلمات التى يفترضها اتصالنا

بالموضوعات الخشنة للتجربة . ومعنى ذلك أن هذه الألفاظ لا يمكن استخدامها وتطبيقها إلا من حيث هى جزء من مفردات لغة الموقف الطبيعى . وبالاختصار فإن لغة المعطيات الحسية ليست لغة قائمة بذاتها ، ولم يفلح أحد حتى الآن فى وضع لغة كهذه . فإن لم يكن ثمة لغة كهذه ، فإن رأى القائل إن كل العبارات النظرية يمكن من حيث المبدأ ترجمتها إلى لغة المضمونات الحسية الخالصة هو رأى مشكوك فيه أصلا ^(١) .

* * *

ولنذكر دائما أن كل ما ذكرناه من نقد لا يصح إلا فى ضوء التمييز الأساسى بين الموقفين الطبيعى والعلمى ، وهو تمييز لم يكن واضحا فى الأذهان فى معظم الأحوال . وبعبارة أخرى ، فنحن نعترف قطعا بأن العلم كان على حق تماما فى استبعاده لفكرة الجوهر ، وفكرة الشيء ، من مجاله الخاص عندما وجدها عقبة فى طريق تقدمه . وفى هذا الصدد لا يستطيع أحد أن ينكر حدوث تقدم ملحوظ من العلم القديم ، الذى كان يخلط بين الموقفين الطبيعى والعلمى ، ويحصر الثانى فى حدود الأول ، إلى العلم الحديث الذى اتبع لنفسه منهجا لا يتقيد فيه بحدود الموقف الطبيعى ، مما أدرى به إلى إحلال العلاقات الرياضية محل الكيفيات المفتقرة إلى الاطراد والتجانس . فخروج العلم عن حدود الموقف الطبيعى كان إذن تقدما لا شك فيه بالنسبة إلى العلم ذاته .

وبهذا المعنى يمكن القول إن « باشلار » كان على حق تماما حين عاب على المشتغلين بالعلم ، فى الفترة الأولى من العصر الحديث ، أنهم كانوا يجسمون صفات ويضفون عليها كيانا قائما بذاته ، وأنهم بذلك أسهموا فى إعاقه العلم ،

(١) Ernest Nagel ; The Structure of Science, New York, Harcourt

الذى لا يعترف إلا بالصفات أو العلاقات ، ولا يؤمن بأية كيانات وهمية تتجسد فيها^(١) .

ولكن الأمر فى الفلسفة يختلف : فعندما وجد الفلاسفة أن العلم الحديث يستغنى عن فكرة الجوهر ويُحل محلها فكرة العلاقات ، اتجهوا إلى استبعاد فكرة الجوهر استبعاداً تاماً ، ولم ينتبهوا إلى أن استغناء العلم عن هذه الفكرة لا يعنى استغناء الإنسان فى موقفه الطبيعى عنها . فالعلم حين شق لنفسه طريقاً

(١) قام باشلار فى كتاب « تكوين الروح العلمية » بنوع من التحليل النفسى للتفكير القائم على الواقعية (بمعنى « الشيئية » ، أى التفكير الذى يجسد الصفات والعلاقات فى صورة « شئ » أو « جوهر ») وفى هذا التحليل يربط بين النزعة الشيئية وبين غريزة التملك عند البخيل ، على أساس أن البخيل ينزع إلى تجميد ما يمتلكه وتجسيمه والحفاظ على ما هو عليه من التغير أو الانسياب . وفى رأينا أن هذا الاتجاه على الرغم من طرافته ، معرض لكثير من المزالق ، ويقبل شتى أنواع التأويلات والاجتهادات . مثال ذلك أننى ، لو كان لى أن أعبر عن رأيي الخاص فى الحالة النفسية التى تجعل الإنسان واقعياً « شيئاً » لركزت تحليلي على عنصر أساسي من عناصر النزعة الواقعية لم يعمل له باشلار حساباً ، هو ذلك الذى يصفه هيدجر بأنه « ترك الموجود يوجد » . ففى الواقعية إصرار على أن يظل الموجود موجوداً على ما هو عليه ، دون أن يغيره الذات أو يبدله إدراكها . ومثل هذا الإصرار مضافاً تماماً للنزوع إلى التملك والاستحواذ . بل إن فيه ، على العكس من ذلك ، نوعاً من السخاء أو الكرم ، والاستعداد لمنح الأشياء الأخرى استقلالها ، وللتعامل معها على أساس أنها ليست جزءاً منا ، وعلى أساس أنها قائمة بذاتها بغض النظر عن موقفنا الخاص منها . ومن هذه الناحية أعتقد أن للمرء كل الحق فى أن يربط على المستوى النفسى ، بين النزعة الواقعية وبين التضج النفسى الذى يسمح للإنسان بأن يتعامل مع الأشياء فى ظل علاقات موضوعية مستقلة ، على حين أن المثالية ترتبط ، نفسياً ، بالنزعة الطفولية التى لا يستطيع فيها المرء أن يتعامل مع الأشياء إلا إذا « ابتلعها » وجعلها جزءاً منه . وعلى أية حال فإن هذا ، كما قلت ، ميدان مخوف بالمخاطر ، يقبل شتى أنواع الاجتهادات .

مستقلا ، نتيجة لاهتدائه إلى منظورات أخرى للعالم مختلفة عن المنظور المعتاد ، قد استغنى عن فكرة الجوهر لأنها لم تعد تلائم هذه المنظورات الجديدة ، ولكن هذا لا يعنى على الإطلاق أنها لم يعد لها مكان فى تجربة الإنسان ، إذ أنها ، هى وفكرة الشئ الوثيقة الارتباط بها ، جزء لا يتجزأ من تجربة الإنسان الطبيعية التى وجدت بعض فروع العلم لزاما عليها أن تتجاوزها . ونقول « بعض فروع العلم » لأن هناك فروعاً تفترض فكرة الجوهر أو الشئ ، وذلك مثل علوم الحيوان والنبات والجيولوجيا والجغرافيا ، الخ ، وهى علوم لن تكف عن معالجة موضوعاتها على أنها « أشياء » بنفس المعنى الذى يدرك به الإنسان موضوعات تجربته فى الموقف الطبيعى على أنها أشياء .

وإذن ، فلم يكن خطأ الفلاسفة القديمة ينحصر فى القول بفكرة الجوهر ذاتها ، وإنما فى الاعتقاد بأن هذه الفكرة ، التى تنطبق على مجال الإنسان المعتاد ، تنطبق أيضا على المجال العلمى — أما الفلاسفة الحديثة فقد ارتكبت الخطأ المضاد ، وهو محاولة استبعادها من جميع المجالات .

وربما كان شعور كانت بخطأ الاتجاه الأخير هو الذى دفعه إلى محاولة تبرير فكرة الجوهر تبريراً ترنسندنتاليا . وعلى أية حال فكثيراً ما انتقد كانت على أساس أن احتفاظه بفكرة الجوهر فى فلسفته كان يمثل خروجاً على الاتجاه العام للعلم الحديث الذى كان قد أخذ يسير بوضوح فى طريق العلاقات الرياضية بدلا من الجواهر . وقد لا يكون هذا الانتقاد فى واقع الأمر إلا مظهراً آخر للخلط الذى طالما أشرنا إليه ، إذ أن « كانت » ربما لم يكن يرمى إلى تبرير الفكرة فى ميدان العلم (والمثل الذى ضربه « بفكرة » بقاء الطاقة فى كتاب نقد العقل الخالص » ص (B228) كان مجرد مثل عارض لا يقصد به إلا إيضاح فكرته (فحسب) ، بل كان يرمى إلى تبريرها على أساس ارتباطها بفكرة

الدوام ، وهى الفكرة التى يعدها « شرطاً ضرورياً هو وحده الذى يتيح لنا تحديد المظاهر على أنها أشياء أو موضوعات فى تجربة ممكنة » . (B 232) وهكذا يمكن أن يقال إن تبرير كانت لفكرة الجوهر كان راجعاً إلى كونها عنصراً أساسياً من تلك العناصر التى تجعل التجربة ممكنة . بل إنه يؤكد رسوخ فكرة الجوهر بين الفلاسفة وفى الذهن المعتاد بوصفها العنصر الثابت من وراء التغيرات (B 227) . وربما كانت حالة « كانت » مثلاً فريداً لفيلسوف اعترف بضرورة فكرة الجوهر فى تجربة الإنسان المعتادة ، وسط اتجاه فلسفى عام كان يرمى إلى استبعادها من جميع المجالات .

* * *

وسنحاول هنا أن نختبر بعض أمثلة الحالات التى انتقد فيها الموقف الطبيعى لعجزه عن الوصول إلى الصورة العلمية للعالم ، مع أن هذا العجز أمر لا مفر منه ، وهو جزء من كيان الموقف الطبيعى المستقل عن العلم .

١ — ففى كتاب « ديكارت والقرن العشرين » يتحدث « فورستبرج » عن المثال الذى ضربه العالم الإنجليزى « إدنجتن » عن المنضدة التى نعرفها من جهة كشيء نكتب عليه ، ويعرفها لنا العلم من جهة أخرى كمجموعة لا متناهية من الجسيمات والموجات ، ألخ ... فىقول عن هذين التفسيرين . « إن أحدهما صادر عن الأطفال وأنصاف المتعمدين ، والآخر راجع إلى ملاحظة بصرية بلغت مستوى رفيعاً من الإحكام العقلى والدقة الرياضية فنحن هنا إزاء تفسيرين ناتجين عن الملاحظة وردا إلينا من عصرين مختلفين من عصور مدنيتنا : فما أعجب هذه النقيضة ! » (١) .

فى هذا النص نجد مثلاً لمفكر يعد الموقف الطبيعى مرتبطاً « بالأطفال

وأنصاف المتعدين « فحسب — ولست أدري كيف يتصرف هذا المفكر ذاته في حياته العملية إزاء ما لديه من منازد ! وهو يصف الموقف الطبيعي والموقف العلمى بأنهما راجعان إلى « عصرين مختلفين » ، وكأن الإنسان في عصرنا العلمى هذا يستطيع أن يستغنى تماما عن فكرة « الشئ » ويعامل المنزدة في جميع تجاربه — بما فيها تجارب الحياة اليومية — على أنها مجموعة من الدقائق والجسيمات !

٢ — وفي كتاب « العلم الفيزيائى » يقول « بلانشيه » : « إن الإصلاح الذى أحدثه تطبيق طريقة التفكير الرياضية على فهمنا للواقع يقترن إذن بتغير أساسى في نظرتنا إلى الواقع وعلاقته بالروح . فلم يعد الواقع نقطة بداية ، بل أصبح حدًا نهائيًا للمعرفة . ولم يعد يعطى للحساسية عن طريق صفات جوهر ، بل إن العقل هو الذى يركبه بأن يجعل منه نسقا من العلاقات . وهكذا تتحقق في ميدان المعرفة وميدان الوجود تلك الثورة « الكبرنيكية » التى قدم إلينا كانت التعبير الفلسفى عنها : فالأشياء من الآن فصاعداً ، هى التى تدور حول الروح بما لهذه من جاذبية » (١) .

مثل هذا التصوير لتطور العلم قد يبدو في ظاهره صحيحاً ، غير أن الخطأ الذى ينبغى أن ننبه إليه هو أن هذا النوع من التفكير يصور الأمور كما لو كان من الواجب أن تختفى تلك الصفات الحسية التى تقدم إلينا الواقع اختفاء تاماً ، فلا يعود هناك مجال إلا لنسق العلاقات الرياضية التى يكونها العقل . ولكن الواقع أنه إذا كانت قد حدثت في مجال العلم « ثورة كبرنيكية » فإن هذه الثورة لم تقض على « النظرة البطليموسية » التى لا تزال قائمة في مجال الموقف الطبيعى ، والتى لا يمكن أن يغير منها تطور العلم .

٣ — ففى المثليين السابقين إذن تعبير عن الاعتقاد الخاطئ بأن تطور المنهج العلمى الحديث يؤدى إلى تغيير « كامل » في نظرة الإنسان إلى العالم ، وكان

الموقف الطبيعي هنا يحاسب على عدم مجاراته لتقدم العلم ، الذى يُظن أنه يؤدى إلى رفض الأول تماما . ومثل هذا الخطأ ناتج بلا شك من عدم التنبه إلى اختلاف وظيفة كل من الموقفين .

غير أن هناك فئة أخرى من النقاد تتخذ الموقف المضاد ، فتحاسب العلم على عجزه عن تقديم وصف كامل لجميع أوجه الموقف الطبيعي — وهو خطأ لا يقل فى نظرنا عن الخطأ السابق .

فى كتاب « العلم والواقع » يقول « برونر » :

« إن أى اختلاف عددى لا يصل أبدا إلى إيضاح كنه اختلاف الألوان .. وإن العلم ، إذ يقتصر على معالجة العالم من ناحيته القابلة للعد ، إنما يختار سبيلا يؤدى إلى تضيق نطاق اتصاله بهذا العالم ...

ونتيجة ذلك أن الفيزياء ناقصة على الدوام ، مادامت نظرتها إلى الشئ عاجزة عن كشف الشئ ذاته لها ... »^(١) .

مثل هذا النقد — الذى يعد محور كتابات فيلسوف مثل برجسون — يحمل على العلم لأنه لا يقدم للعالم صورة عينية ملموسة كتلك التى تجلبها لنا حواسنا — وهذا أيضا خطأ ناتج عن الخلط بين وظيفة الموقف الطبيعي والموقف العلمى . فليس من شأن الموقف العلمى على الإطلاق أن يقدم عن العالم تلك الصورة التى نحتاج إليها فى سلوكنا اليومى ، بما فيها من كيفيات عينية .

ولعل هذه الأمثلة المختارة من مفكرين ذوى اتجاهات مختلفة ، كافية لإيضاح ما نقصده بفكرة الفصل بين المجالين العلمى والطبيعى . فمهمة العلم الأساسية هى تقديم تفسير للظواهر يؤدى إلى « فهمها » وكشف قوانينها العامة . وهو فى سبيل ذلك يتبع منهاجا يؤدى به إلى رد المركب إلى البسيط ،

وإحالة الكيف إلى الكم كلما أمكن ذلك . أما الموقف الطبيعي فهو تعبير عن نظرتنا إلى العالم كما نسلك فيه عملياً على نحو يفى بمطالبنا الحيوية . ومن هنا كان هذا الموقف يُبقى بالضرورة على اختلافات الكيفيات ولا يحاول على الإطلاق ردها إلى نسق كمى مطرد . فالألوان التى يردها العلم إلى موجات ، والتى لا يختلف الواحد منها عن الآخر إلا كمياً ، هى ظاهرة أساسية من وجهة النظر الطبيعية والاختلاف الكيفى بين اللون يؤدى فى ذلك الموقف وظيفة أساسية : فالتمييز بين الأبيض والأسود لا غناء عنه لإمكان الإبصار ، وبالتالى إمكان السلوك العملى وتجنب العوائق ، والتمييز بين الألوان الأخرى يؤدى وظيفة أساسية فى تذوقنا الفنى لموضوعات الإبصار ، والتمييز بين الأصوات لا بد منه للتعامل مع الناس ومع البيئة الطبيعية ، إلخ ...

وهذه التفرقة الواضحة بين وظيفة الموقفين هى وحدها الكفيلة بحفظ حقوق كل منهما كاملة : إذ تؤدى إلى الدفاع عن موقف الإنسان الطبيعى ضد الاعتقاد بإمكان تغلغل الصورة العلمية للعالم فى جميع المجالات ، وإلى الدفاع عن العلم فى الآن نفسه من تهمة العجز عن تقديم صورة « عينية » كاملة للعالم .

الفلسفة والموقف الطبيعي

انتهى بنا بحثنا السابق إلى النتيجة الهامة التالية ، وهى أن الموقفين الطبيعي والعلمى كانا غير واضحين التميز فى الفكر القديم ، شأنه فى ذلك شأن كل محاولة مبتدئة ، ثم تفرعا بالتدرج بحيث اتضحت خصائص كل منهما ووظائفه وأغراضه الخاصة التى يخدمها . كما انتهى بنا هذا البحث إلى نتيجة أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهى أن هذا التمييز غير واضح فى أذهان الكثيرين ، بدليل أن الموقف الطبيعي كثيراً ما يلام لأنه يعجز عن تقديم تفسير للظواهر له دقة التفسير العلمى وإحكامه ، مثلما يلام الموقف العلمى أحياناً لأن الصورة التى يقدمها عن العالم تفتقر إلى عينية الصورة الحسية المعتادة وراثتها .

فأين تقع الفلسفة بين هذين الموقفين ؟ أعنى هل ينتمى البحث الفلسفى إلى مجال الموقف الطبيعى أم إلى مجال الموقف العلمى ؟ مثل هذا السؤال يثير فى واقع الأمر مشكلة طبيعة التفكير الفلسفى بأسرها ، وهى مشكلة تتعدد الآراء فيها بقدر ما تتعدد المذاهب الفلسفية ذاتها .

ولكى نستطيع أن نحدد المجال الذى ينبغى أن نحصر فيه بحثنا لهذه المسألة ، علينا أن نعرض السؤال بطريقة أدق : فما هى بالضبط طبيعة العمل الذى يقوم به الفيلسوف حين يفكر ؟ أهو بحث علمى ؟ إن الأفكار الفلسفية كثيراً ما أثرت فى العلم وتأثرت به ، ولكنى لا أظن أن الكثيرين يعجزون عن تمييز طبيعة مهمة العالم من مهمة الفيلسوف . فهل يمثل تفكير الفيلسوف إذن تعبيراً عن الموقف الطبيعى ؟ الرد المألوف على هذا السؤال هو أن الفلسفة مبحث قائم بذاته ، لا تستطيع أن تقول عنه إنه بحث علمى بالمعنى الدقيق للكلمة ، أو

بمجرد تعبير عن الموقف الطبيعي المعتاد ، الذى يكاد الفلاسفة يخرجون عنه فى معظم الأحوال .

ومع ذلك ، فإن عرض السؤال مازال فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح . فقد تحدثنا من قبل عن الموقف الطبيعي من حيث هو موقف الإنسان فى حياته العملية المعتادة ، حين ينظر إلى العالم على أن فيه « أشياء » ، وحين يعد هذه الأشياء ذات وجود مستقل خارج عنه ، وذكرنا أن الموقف العلمى يبحث عن أوجه كامنة من وراء الوجه الذى يراه إدراكنا المعتاد ، وذلك لأغراض مختلفة تماماً عن أغراض هذا الإدراك ، أعنى لأغراض الفهم والتفسير ، لا السلوك العملى والحيوى وحده . والآن ، فما الذى يتيح للعلم اتخاذ مثل هذا الموقف المستقل عن الموقف الطبيعى ؟ أعنى كيف يتسنى له أن يكون عن عالمنا هذا صورة مختلفة عن تلك التى نكونها فى حياتنا اليومية ؟ لا شك أن الذى أتاح له ذلك هو المنهج من جهة ، والمعدات من جهة أخرى . فبفضل المنهج المنظم الدقيق ، وبفضل الآلات العلمية ، بأوسع معانى هذه الكلمة ، أمكن كشف هذه الصور المتعاقبة للعالم ، التى يزيد العلم دقة على الدوام كلما تقدمت مناهجه ومعداته .

ولكن هل توافر لدى الفيلسوف مثل هذا المنهج وهذه المعدات ؟ أما المعدات فهى بطبيعة الحال منعدمة تماماً ، وأما المنهج فهو ما اعتدنا أن نسميه فى الفلسفة « دقة التفكير » ، وهو لا يعدو فى رأى أن يكون قدرة الفيلسوف على اتباع قواعد الاستدلال دون خطأ . وهذا التعريف للمنهج ، فضلاً عن ذلك ، نظرى بحت ، ويمكن أن يؤدى إلى نتيجة عكسية ، إذ أن الإمام الدقيق بقواعد الاستدلال يكسب المرء قدرة خفية على الخروج على هذه القواعد بطريقة بارعة لا يسهل كشفها ، ومن هنا كانت تلك الأخطاء الاستدلالية التى لم يسلم منها فيلسوف ، والتى لا نستطيع أن نقول إنها كلها تُرتكب عن

عمد ، ولكنها تدل ، على أية حال ، على أن منهج الفلسفة مخالف للمنهج العلمى ، لأن الأخير ، رغم قابليته للتطور والتجديد المستمر ، ينمو بطريقة تراكمية إلى حد ما ، بينما لا تزال أكثر الموضوعات الفلسفية الأولية موضوعاً للجدل حتى اليوم .

وإذن فليست لدى الفيلسوف « وسائل » كتلك التى تمكن بها العلم من الخروج عن الموقف المعتاد . وهنا تبدأ تلك الصفات المميزة للفلسفة فى الظهور . فالفلسفة تبدأ بالفعل من موقفنا الطبيعى ، و « الموضوعات » التى يبحثها الفيلسوف ، ولا سيما فى ميدان نظرية المعرفة ، هى بعينها موضوعات الموقف الطبيعى . وقد يقال إن العالم أيضاً يبدأ من موضوعات الموقف الطبيعى ، ولكن الواقع أن هذه ما هى إلا نقطة البداية الأولى ، التى سرعان ما يتجاوزها العالم بقدر ما يمكنه منهجه ومعداته من تحويل الكيفيات فى موضوعات الموقف الطبيعى إلى كميات . أما الفيلسوف فإنه يظل حتى النهاية فى حدود هذه الموضوعات . ومع ذلك فإنه يريد منا فى معظم الأحيان أن نصور هذه الموضوعات بصورة مخالفة لصورتها فى موقفنا الطبيعى ، وذلك بقوة قواعد الاستدلال وحدها .

والآن ، فلنضرب بعض الأمثلة الكفيلة بتوضيح العبارات المجردة السابقة . فحين يشرح باركلى فكرة « وجود الشيء هو كونه مُدركاً » ، يلجأ دائماً إلى أمثلة كهذه :

« إننى حين أقول عن المنضدة التى أكتب عليها إنها توجد ، أعنى أننى أراها وأحسها ، وإذا غادرت غرفتى فسأقول إنها موجودة ، بمعنى أننى لو وجدت فى غرفتى فسأدركها ، أو أن روحاً أخرى معينة تدركها بالفعل »^(١) .

وحين يناقش هيوم اعتقادنا بوجود فئة معينة من الانطباعات وجودًا مستمرًا ، يضرب أمثلة كهذه : « تلك الجبال والبيوت والأشجار ، التي تقع عليها الآن أنظاري ، قد بدت لى دائما فى نفس النظام . وعندما لا أعود أراها بإغماض عيني أو إدارة رأسى ، فسرعان ما أجدها تعود إلى دون أدنى تغيير ... »^(١) .

وحين يتحدث عن فكرة الوجود الخارجى للأشياء ، يشرح رأيه من خلال هذا المثل : « إن نفس هذه المنضدة التى نراها بيضاء ، ونشعر بصلابتها عند اللمس ، يُعتقد أنها توجد مستقلة عن إدراكنا ، وأنها شئ خارج عن ذهننا الذى يدركها . وحضورنا لا يضىفى وجودًا عليها ، كما أن غيابنا لا يزيلها ، وهى تحتفظ بوجودها مطردًا كاملا ، مستقلا عن حالة الكائنات العاقلة التى تدركها أو تتأملها .

» غير أن هذا الرأى العام والأولى الذى يقول به جميع الناس ، سرعان ما يهدمه أبسط قدر من التفلسف ... فليس ثمة شك ، فى رأى كل ذى عقل فاحص ، أن تلك الموجودات التى نقصدها حين نقول : هذا البيت ، أو هذه الشجرة ، ليست إلا إدراكات فى الذهن ، ونسخ أو تمثلات عابرة لموجودات أخرى تظل مطردة مستقلة »^(٢) .

فموضوع تفكير الفيلسوف فى هذا الميدان هو إذن موضوعات إدراكنا المعتاد ، وهو يظل يلتزم هذه الموضوعات إلى النهاية ، وكل ما يفعله هو أن يقدم إلينا تحليلا يستخدم فيه براعته المنطقية ، ويُخضع فيه للبرهان أو للتنفيذ ذلك الموقف الطبيعى الذى يرى الذهن المعتاد أنه ليس موضوعًا للتفكير النظرى على الإطلاق . وليس فى وسع الفيلسوف حين يبحث مشكلة المعرفة أن يتحدث

Treatise, BK, I, IV, P, 194 (Oxford Edition)

(١)

Enquiry, § 118. (p, 151, 152 in Oxford Edition)

(٢)

عن موضوعات غير « المنضدة » أو « البيوت » أو « الأشجار » إذ أنه لا يملك « الوسيلة » التى تمكنه من تجاوز هذه الموضوعات أو النظر إليها من أوجه أخرى . حقا إنه يتحدث من آن لآخر عن « المنضدة من حيث هى مجموعة من الذرات والموجات » ، ولكن هذه فى واقع الأمر تعبيرات مستعارة من الميدان العلمى ، وليس للفيلسوف نفسه الكلمة الحاسمة فيها . وإذن فالفيلسوف ، عندما يلتزم ميدانه ، يتخذ نقطة بدايته من الموقف الطبيعى حتما ، ويعالج نفس الموضوعات التى نعالجها فى موقفنا الطبيعى . وهذا هو ما كان يعبئه « كانت » حين جعل فلسفته النظرية تركز حول بحث « المبادئ التى تجعل التجربة ممكنة » . فالأمر الذى لا شك فيه أن كلمة « التجربة » كما استخدمها « كانت » ، تعنى تجربة المعرفة المألوفة لدى الإنسان . أى أنه بينما يسلّم الإنسان فى موقفه الطبيعى بأنه يعرف أشياء توجد فى مكان وزمان ، وبينما ينسب إليها عدداً وسبباً ، فإن فلسفة « كانت » تنقب عن الشروط الكامنة من وراء عناصر هذه التجربة الطبيعية ، وتبحث فى « شروط إمكانها » .

وصحيح أن « كانت » بذل فى بعض الأحيان جهداً لإثبات كون هذه الشروط هى ذاتها شروط إمكان العلوم الرئيسية ؛ كمحاولته أن يثبت أن فكرتى الزمان والمكان هما أساس إمكان العلم الرياضى ، وأن تصورات الذهن هى أساس إمكان العلم الطبيعى ، غير أن هذا فى رأينا تطبيق تال ، تعلله تلك النزعة القوية إلى التوحيد المذهبى عند « كانت » ، وهى النزعة التى جعلته يحاول تفسير كل أطراف المعرفة المباشرة من خلال مبادئ موحدة . أما المعنى الأصلى لفكرة « التجربة » فلا يمكن ، فى رأينا ، إلا أن يكون تجربة المعرفة المألوفة التى نتركها فى حياتنا اليومية دون تحليل ، والتى يكرس « كانت »

أبحاثه النظرية للبحث عن شروط إمكانها .

وينتهى « جينز Jeans » في كتابه « الفيزياء والفلسفة » إلى نتيجة ماثلة ، ولكنه يتخذها أساسا لاستخلاص رأى يختلف تماما عما نقول به هنا . فهو يربط بين قضايا الفلاسفة وبين العالم المألوف الذى يطلق عليه اسم « العالم الملائم لحجم الإنسان The man-sized world » ويقول « إن جميع النتائج التى توصل إليها الفلاسفة حتى وقتنا الحالى كانت نتائج استنبطتها أذهان تنتمى كلها إلى نمط واحد — هو النمط البشرى — وتأمل مدركات تنتمى إلى عالم واحد »^(١) . هذا العالم الواحد هو العالم الملائم لحجم الإنسان . ومن خلال هذا العالم يتحدث جميع الفلاسفة ، ومنه استمد فيلسوف مثل « كانت » مقولاته التى اعتقد أنها تنتمى إلى تركيب الذهن البشرى ذاته .

ولا شك أن هذا الرأى يتفق تماما مع ما قلناه عن ارتباط الفلسفة بالموقف الطبيعى ، ولكن الفارق بين الرأى المعروض فى هذا البحث وبين رأى « جينز » يرجع إلى اعتقاد هذا الأخير بأن الحالة العلمية السائدة فى عصور هؤلاء الفلاسفة هى التى جعلت معارفهم ترتبط بالعالم الملائم لحجم الإنسان . ففى رأى « جينز » أن مقولات « كانت » تنتمى إلى عصر كان العالم الملائم لحجم الإنسان فيه هو العالم الوحيد الذى يعترف به العلم ، فى حين أن أى فيلسوف فى عصرنا هذا ينبغي عليه أن يستبعد فكرة الجوهر وفكرة العلية لأنهما لا تصحان على عالم الفيزياء الذرية .

وهنا يظهر الفارق بوضوح : فنحن نرى أن مثل هذه المقولات والمبادئ

Physics and Philosophy. Ann Arbor, 1958 .

(١)

ص ٧٠ ويلاحظ أن تعبير جينز عن أذهان الفلاسفة بأنها متمية إلى « النمط البشرى » هو تحصيل حاصل ، وينطبق أيضًا على كل العلماء والمفكرين فى جميع العصور .

الفلسفية تتحدث عن العالم الملائم لحجم الإنسان لا لأنه هو العالم الذى كان العلم يعرفه فى عصر هؤلاء الفلاسفة ، بل لأنه هو العالم الذى يحيا فيه الإنسان حياته اليومية . وهذا العالم ، بمعناه الأخير ، غير متغير ، ولا يمكن أن تؤثر فيه أية كشوف علمية . وارتباط الفلاسفة بهذا العالم ارتباط لا مفر منه ، إذ ليس لديهم من الوسائل ما يمكنهم من تجاوزه . ومن هنا كان الفارق بيننا وبين « جينز » ينحصر فى أنه ، إذا كان هذا الأخير قد رأى وجوب استبعاد فكرة الجوهر نهائيا من مجال الفكر ، على أساس أنها لا تنطبق على عالم الفيزياء الذرية ، فإننا نرى أن هذه الفكرة صحيحة فى المجال الذى قصد بها الانطباق عليه ، وهو مجال الحياة اليومية^(١) ، وستظل صحيحة فى هذا المجال مهما تغير موقف العلم منها ، ومهما كشف عن عوالم لا تصح عليها .

وإذن فللفلسفة تلك الصفة الفريدة ، وهى أنها تبدأ من موضوعات الموقف الطبيعى ذاتها ، ولا تملك الوسيلة التى تتيح لها تأمل هذه الموضوعات

(١) ليس عندى من شك فى أن القارئ ، ولا سيما إذا كان من الفلاسفة المحترفين ، قد أحس بنوع من الازدراء حين قرأ كلمة « الحياة اليومية » هذه ، بعد ما ارتبطت ذلك الارتباط القوى فى أذهان الفلاسفة بمعانى التفاهة والعقم والزوال . ولكم أود أن تكون الاستجابة الذهنية التى تثيرها كلمة « الحياة اليومية » هى نوع من زيادة الاهتمام بها أو الانتباه إليها ، طالما أنها تشير إلى أكثر تجاربنا شيوعا والتصاقا بنا . ولكم أود أن يحل معنى « الأهمية » والشيوع محل معنى « العقم » والعرضية الذى ربطه الفلاسفة طويلا بالحياة اليومية . ولعل هذا البحث ، إذا نُظر إليه من الزاوية النفسية ، لا يعدو أن يكون مساهمة فى تغيير الارتباطات التى تثيرها كلمة « الحياة اليومية » على النحو الذى أشرت إليه ها هنا .

من منظور مخالف لهذا الرأى ، وهى فى ذلك تختلف عن العلم ، الذى يستطيع بفضل منهجه ومعداته أن يتخذ لنفسه موضوعات خاصة به ، لا يشترك مع موضوعات الموقف الطبيعى إلا فى البدايات الأولى للعلم فحسب .

ولكن من الملاحظ ، من جهة أخرى ، أن البحث الفلسفى يؤدى فى معظم الأحيان إلى نتائج مضادة للموقف الطبيعى ، بل يستهدف القضاء على هذا الموقف منذ البداية ، أما العلم فإنه حين يبدو مخالفاً للموقف الطبيعى ، يتخذ فى واقع الأمر ميدانا مستقلا ، تاركاً الموقف الطبيعى وشأنه .

صحيح أن بعض العلماء قد حاولوا أن ينتقدوا هذا الموقف بناء على نتائج أبحاثهم ، غير أن هذا الانتقاد فى الواقع تطبيق « فلسفى » للنتائج العلمية وليس جزءاً من صميم البحث العلمى . أما فى الفلسفة فإن هذا الانتقاد يكاد بالنسبة إلى معظم المذاهب يكون نقطة البداية التى لا بد منها للتفلسف . وهكذا يقول العالم : إن هذه المنضدة تكوّن مجموعة من الذرات والموجات إذا استخدمنا فى بحثها المنهج العلمى والمعدات العلمية ، وهذا يعنى الاعتراف ضمناً بأنك تستطيع أن تعاملها على أنها منضدة بالمعنى المألوف طالما أنك فى موقف لا تحتاج فيه إلى استخدام هذه المعدات وهذا المنهج . أما الفيلسوف فيقول : إن هذه المنضدة نفسها ، كما تدركها أنت ، ليست شيئاً مادياً خارجياً ، وإنما هى ذاتية ، وإدراكك لها على أنها شئ خارجى هو إدراك باطل . وهكذا يكون ميدان المعركة فى الفلسفة هو موضوعات الموقف الطبيعى ذاتها ، ولا يتسنى للفلسفة ، طالما أنها تلتزم حدودها ؛ أن تحارب فى أى ميدان غير هذا .

والمشكلة التى نود أن نببحثها فى الفصول التالية هى : هل الفلسفة على حق حين تعترض على الموقف الطبيعى بقوة المنطق وحدها ؟ أعنى هل تستطيع أن

تخالف هذا الموقف أو تخرج عنه دون أن يكون لديها ما لدى العلم من وسائل ،
وأن تدعونا ، عن طريق الاستدلالات وحدها ، إلى أن ننظر إلى العالم على أنه
« ليس » مكونا من أشياء خارجة عنا ؟ أليس هناك احتمال قوى في أن تكون
استدلالات الفلاسفة هنا باطلة ، أو عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة ؟ بل
أليس هناك احتمال قوى في ألا تكون المشكلة ذاتها قابلة للحل عن طريق
الاستدلال أو المنطق عامة ؟

مراحل المثالية

(١) الشك فى الحواس

سبق أن حددنا المعنى الذى سوف نستخدم فيه كلمة المثالية فى هذا البحث : فهى تعنى هنا كل مذهب يقف موقفًا مضادًا للموقف الطبيعى ، وهذا ، كما ذكرنا ، معنى أوسع بكثير من المعنى المألوف للكلمة ، ولكنه دون شك ينطوى على هذا المعنى المألوف بوصفه جزءًا منه .

وأول مرحلة فى مراحل خروج المثالية عن الموقف الطبيعى ، هى الشك فى الحواس . ومن الواجب منذ بداية الأمر أن يُحدد بدقة معنى عبارة « الشك فى الحواس » هذه كما تستخدم لدى المثاليين . فالمقصود من العبارة ليس الشك فى أداء الحواس لعملها ، وإنما الشك فى قدرتها على نقل موضوعات خارجية لنا . فالمثالى لا يشك فى قدرة العين على إدراك شكل كرى أحمر اللون ، ولكنه يشك فى كون هذا الشكل الذى تنقله إلينا « تفاحة » يُفترض أن لها وجودًا خارج وجودنا . وسوف نرجئ إلى موضع تال مناقشة دلالة هذا المعنى بالنسبة إلى مشكلة الإحساس ، لأن هدفنا الحالى هو إيضاح المعنى نفسه فحسب .

١ — وهناك ظاهرة واضحة كل الوضوح فى هذا الشك المثالى ، هى أنه يعتمد ، فى كل الأحوال تقريبًا ، على « حالات الشذوذ » — أعنى أن أول ما يفعله المثالى لتبرير شكه فى الحواس هو أن يأتى بأمثلة لحالات « شاذة » فى الإحساس ، وفى ذهنه أن الشك فى البعض يبرر الشك فى الكل .

وسوف نضرب أمثلة قليلة لالتجاء المثاليين إلى حالات الشذوذ ، وهي أمثلة سنختارها بوصفها تمثل اتجاهها عاما في المثالية فحسب :

فنطقة البداية في تفنيد أفلاطون للنظرية القائلة إن الإدراك الحسى هو مصدر المعرفة ، هي الرجوع إلى ما يحدث في « الأحلام ، والأمراض ، وفي حالة الجنون بوجه خاص ، وفي مختلف أوهام السمع والإبصار أو غيرهما من الحواس » (١) .

وحين يحاول هيوم أن يفند الاعتقاد بوجود موضوعات إدراكنا وجوداً مستمراً مستقلاً (وهو الاعتقاد السائد في الموقف الطبيعي) ، يضرب أمثلة بالتجارب الآتية : « عندما نضغط بإصبعنا إحدى عيني ، نرى في الحال أن كل الأشياء قد أصبحت مزدوجة ، وأن نصفها قد انتقل من موقعه المألوف الطبيعي . ولكن لما كنا لا ننسب إلى كل من هذين الإدراكين وجوداً مستمراً ، ولما كان لكل منهما طبيعة واحدة ، فإننا نرى من ذلك أن جميع إدراكاتنا تتوقف على أعضائنا ... وهذا رأى يؤيده ... ما يطرأ على لون [الأشياء] وكيفياتها الأخرى من تغيرات ، نتيجة لمرضنا وتغير مزاجنا .. ومن هذا كله نرى أن إدراكاتنا الحية ليس لها أى وجود متميز أو مستقل » (٢) .

ويعرض شوبنهاور البراهين الآتية للتدليل على أن العقل ، لا الحس ، له الدور الأكبر في عملية الإدراك . فهو يشير إلى « الطريقة التى يتعلم بها الإبصار الأطفال والأشخاص الذين ولدوا ضريرين ثم أجريت لهم عمليات جراحية ... والرؤية المزدوجة واللمس المزدوج عندما يتغير موقع أعضاء الحس من وضعه الأصلي ... وآلة الصور المجسمة (Stereoscope) — كل

هذه براهين أكيدة دامغة على أن كل إدراك لا يتم عن طريق الحواس وحدها ... »^(١).

لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا النوع من الأمثلة هو النوع الوحيد الذى يضربه المثاليون للتشكيك فى الحواس ، ولكن لا جدال فى أنه يمثل عنصرًا قويًا من عناصر النقد المثالى للحواس ، بل إنه يكاد يكون نقطة البداية المتكررة دائما فى هذا النقد .

ولكن ، عندما نقول فى موقفنا الطبيعى إن الحواس تنقل إلينا معرفة ، بالعالم الخارجى ، فما الذى تقصده « بالحواس » هنا ؟ إننا نقصد بلا شك ، حواس الإنسان السوى ، السليم ، أعنى الإنسان الذى اكتملت حواسه الخمسة ، ويدرك وهو فى حالة طبيعية لا يشوبها مرض أو شذوذ . أليس من المضحك إذن أن يرهق الفلاسفة المثاليون أنفسهم فى سبيل البحث عن حالات « شاذة » لكى يحملوا على الإدراك عامة ، حتى لو كان سويا — فيظلون يتحدثون ، مثل ديكارت ، عن حالات الهلوسة ، أو مثل باركلى عن المولود أعمى ، أو مثل شوبنهاور عن ازدواج الرؤية ، أو مثل هيوم عن الجنون ، حتى ليكاد ميدان نظرية المعرفة يتحول إلى « مصحة » كل نزلائها من الشواذ والمنحرفين والمجانين ، ويظل أطباؤهم من الفلاسفة يرعونهم بكل حذب ، لا لكى يشفوهم ، بل لكى يخيفوا بهم الأصحاء !!

إن المبدأ الذى يعتمد عليه المثاليون فى هذه الحالة ، وهو مبدأ « ما يصح على الجزء يصح ، أو قد يصح ، على الكل » — هذا المبدأ لا يكون صحيحًا إلا إذا كان الجزء والكل مشتركين فى الكيف ، أعنى إذا كان الكلام ينصب دائما على حالة واحدة للحواس . ولكن الذى يحدث بالفعل هو أن المثالى يضرب أمثلة من حالات الإحساس « الشاذة » للتشكيك فى الإحساس السوى ، وهو

خطأ حتى من ناحية الاستدلال ذاته .

والأمر الذى لا شك فيه أن منهج الالتجاء إلى حالات الشذوذ يؤدى إلى التشكيك ، لا فى الحواس وحدها ، بل فى أية قوة أو ملكة أخرى لدى الإنسان . ففى وسع المرء ، باتباع هذا المنهج نفسه ، أن يشكك فى العقل ذاته ، لأن هناك أناساً يفكرون ، لأسباب مختلفة ، بطريقة فاسدة ؛ وفى المنطق ، لأن الأطفال والمجانين لا يتبعون قواعده ، أو لأنه يعجز عن إرشادهم إلى طريقة التفكير السليم . والأمر الوحيد الذى يحول دون هذا النوع من الشك هو اتباع المبدأ العام ، القائل إن خطأ الحالات الشاذة لا يعنى خطأ الحالات السوية ، لاختلاف الحالتين الأساسى فى الكيف .

٢ — ويؤدى بنا تحليل الأمثلة السابقة ذاتها إلى كشف وجه آخر من أوجه أخطاء الشك المثالى فى الحواس : فكما يعتمد هذا الشك كثيراً على حالات الشذوذ ، فإنه يعتمد أيضاً على حالات الفصل بين الحواس بعضها وبعض . فمن الأمثلة المألوفة فى كل نقد مثالى للحواس ، مثال : العصا التى تبدو منكسرة فى الماء ، أو مثال السراب ، أو البرج الذى يبدو عن بعد مستديراً بينما هو فى حقيقته مربع .. إلخ . هذه الأمثلة كلها تفترض نوعاً من الانفصال بين الحواس ، وتعتمد على حاسة واحدة ، هى حاسة الإبصار فى معظم الأحيان . فالمعنى الحقيقى لما يقوله المثاليون فى هذه الحالات هو : إذا نظرنا إلى الأشياء من خلال حاسة الإبصار وحدها ، لبدت العصا منكسرة ، .. إلخ والرد البسيط على ذلك هو أننا لو استخدمنا بقية حواسنا — ولا سيما اللمس — فى كل الحالات التى يتحدث عنها المثاليون ، تمكنت الحواس « وحدها » من تصحيح أخطاء بعضها البعض .

والحق أن هذا الخطأ المثالى ، خطأ فصل الحواس ، وهو فى واقع الأمر مظهر آخر من مظاهر الابتعاد عن الحالة « السوية » فى الإدراك . ففى إدراكنا المعتاد

نستخدم حواسنا كلها معًا ، ولا نجزم بالحكم على شيء لمجرد إدراك حاسة واحدة له ، ما لم يكن هذا الشيء بعيدًا إلى الحد الذى لا يسمح بالوصول إليه . وهكذا يبدو أن النقد المثالى يفترض هنا أيضًا حالة لا تتحقق بالفعل ، هى حالة الفصل بين الحواس .

ولنضرب مثلاً واضحاً كل الوضوح على هذا النوع من الخطأ : ففى كتاب Knowledge and Perception ينتهى المؤلف « برتشارد Prichard » فى إحدى مقالاته إلى الاعتراف بأخطاء الحواس ، وهى الأخطاء التى تثبت أننا لا ندرك « أجساماً »^(١) . ومع ذلك ، فقد توصل إلى هذه النتيجة بتابع منهج غريب حقاً : فهو فى أول المقال يذكر صراحة أنه سوف يحلل دور حاسة واحدة ، هى حاسة الإبصار ، ويقول :

« إننى أفترض أن « الإدراك » كلمة تستخدم للدلالة على الجنس الذى يكون ما نسميه بالإبصار ، والسمع والشم والذوق واللمس أنواعاً له ... ولكنى سأقتصر هنا اقتصاراً يكاد يكون تاماً على بحث الإبصار واللمس ، بل على الإبصار بوجه خاص »^(١) . وليس من المستغرب على الإطلاق — إن كان هذا هو منهج المؤلف — أن ينتهى إلى الاعتراف بأخطاء الحواس . ولا يشفع له فى ذلك ما قاله من أنه يأخذ حاسة الإبصار على أنها « مثال » لبقية الحواس . فهذا خطأ منهجى أساسى فى هذا الميدان . فمن الواجب ، طالما أننا بصدد مناقشة مشكلة الإدراك ، إعطاء كل من الحواس فرصة إثبات صحة إدراكها ، وإعطاء كل الحواس معاً فرصة تصحيح بعضها البعض ، أى بالاختصار ، النظر إلى الحواس وهى متكاملة ، كما تعمل فى الواقع ، لا الاكتفاء بتجريد حاسة واحدة منها .

بل إن من الواجب ، طالما أننا بصدد الحكم على « الحواس » بوجه عام ، أن نشير إلى التكامل « الأفقى » للحواس ، أعنى اشتراك حواس عدة أشخاص فى تصحيح بعضها البعض . فخطأ حاسة شخص ، أو حواس شخص ، لا يعنى أبداً أن « الحواس » بوجه عام تخطئ . ولنضرب لذلك مثلاً : فإذا توقفت إحدى الساعات عن العمل ، أو أسرفت فى التأخير أو التقديم ، فهل يعنى ذلك أن الساعات كلها فاسدة ، وأن من الخطأ الاعتماد على « الساعة » ، بوجه عام ، فى معرفة الوقت ؟ وهلا نقرب جداً من معرفة الوقت الصحيح إذا قارنا بين ما تدل عليه عدة ساعات مختلفة ؟ حقاً إن هذه المقارنة لن تأتى لنا بنتيجة لها دقة مطلقة ، ولكنها تأتى قطعاً بنتيجة نستطيع الاعتماد عليها ، ولا سيما إذا كان الأمر متعلقاً بأغراض عملية .

ولقد عاب « آير Ayer » ذاته على الفلاسفة الذين يعالجون موضوع الإدراك الحسى تجاهلهم للطابع الاجتماعى لهذا الإدراك . فقال : إذا جاز أن نقول عن أى شىء قابل للإدراك إنه موضوع فيزيائى ، فلا بد على الأقل أن يكون من الممكن وصفه بأنه يدرك بواسطة أشخاص مختلفين ، وبأنه يلمس ، مثلاً ، مثلما يرى . غير هذه الشروط لا تتوافر فى الموضوعات التى نظر إليها باركلى ، ومعظم الفلاسفة الآخرين ، على أنها معطيات نهائية. فما هو معطى مباشرة فى الإدراك الحسى هو ، فى نظرهم ، موضوع ليس له قوام دائم (evanescent) يسمى بالفكرة أو الانطباع أو التمثيل أو المعطى الحسى ، وهو موضوع يختص به الملاحظ المنفرد وحده ، بل تختص به حاسة منفردة أيضاً ^(١) . مثل هذا الفهم التجزيئى للمعرفة الحسية — سواء أكان ذلك عن طريق عزل حاسة واحدة عن بقية الحواس ، أو عن طريق عزل إدراك شخص واحد عن إدراك بقية الأشخاص — هو الذى يتيح الفرصة لعدد كبير من

وثانيًا : أنه إذا كانت العلاقة بين الحواس والذهن متداخلة إلى هذا الحد ، فإن انتقاد الحواس يوازيه انتقاد مماثل ينبغي توجيهه إلى الذهن نفسه . فمن الممكن الإتيان بأمثلة عديدة لحالات يكون الخطأ فيها راجعًا إلى تسرع الذهن أو عدم دقته في الحكم على ما تنقله إليه الحواس . فلنفرض شخصًا يسير في الظلام في حالة خوف من الأشباح — مثل هذا الشخص سيحكم على أى خيال يظهر له فجأة بأنه شبح . وليس الخطأ هنا خطأ الحواس ، إذ أنه في واقع الأمر لا يعطيها الفرصة الكافية لإدراك كنه هذا الخيال ، بل قد يفر على التو ، نتيجة للحكم المتسرع الذى أصدره ذهنه .

والخلاصة هي أن التفكير المثالى ، الذى يجعل من انتقاد الحواس نقطة البداية في الخروج عن الموقف الطبيعى ، يرتكب في هذا الانتقاد الأخطاء الآتية :

(أ) أنه ينظر إلى الحواس — في كثير من الأحيان — في حالة الشذوذ لا في حالتها السوية .

(ب) أنه ينظر إليها منفصلة بعضها عن البعض ، ويغفل الدور الأساسى الذى يؤديه التكامل بين الحواس على المستوى الفردى والمشارك بين الأفراد .

(جـ) أنه يغفل الدلالة الحقيقية لفكرة التداخل بين دور الحواس والذهن ، وهى اشتراكهما معًا فى المسئولية عن الإدراك المصيب والمخطئ فى آن واحد ، على حين تتصور المثالية أن الخطأ يقتصر على الطرف الحسى وحده .

(ب) صفات الأشياء موضوعية أم ذاتية ؟

بعد أن يشكك التفكير المثالي في الحواس ، تكون الخطوة الطبيعية التالية هى التشكيك فيما تنقله إلينا الحواس ، أعنى أنه إذا كانت الحواس ذاتها موضوعًا للشك ، فمن الطبيعى أن يثار السؤال عن كون الموضوعات المحسوسة موضوعية أم ذاتية . وإذا حاولنا أن نحدد بدقة المعنى الحقيقى للجدل الذى أثارته نظرية المعرفة التقليدية حول هذه المسألة ، لما وجدنا سوى المعنى التالى : هل هناك اتفاق بين اعتقادنا « العملى » بوجود أشياء خارجية ، وبين الطريقة « الحقيقية » التى تؤدى بها الحواس وظيفتها ؟ وتجب المثالية على هذا السؤال بالنفى البات : فالطريقة الحقيقية التى تؤدى بها الحواس وظيفتها لا تتفق على الإطلاق مع اعتقادنا العملى هذا ، وإنما يدلنا التحليل الدقيق لعمل الحواس على أن كل مانظنه موضوعيًا هو فى واقع الأمر « ذاتى » بمعنى ما . ولقد اتضحت معالم الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه المثالى منذ اللحظة التى أوضح فيها ديكارت فكرته عن التفرقة بين نوعين من الكيفيات فى الأشياء ، أحدهما صادر عن الذات والآخر مستقل عنها . فهنا ظهرت أول محاولة جدية ، تنتمى إلى ميدان نظرية المعرفة على التخصيص ، لرد « بعض » الصفات التى نظنها منتمية إلى الأشياء نفسها إلى الذات . ومن الطبيعى أن يكون التطور المنطقى للمذهب بعد ذلك هو زيادة عدد تلك الصفات التى تُرد إلى الذات بالتدرج ، حتى تصبح كلها ذاتية فى آخر الأمر .

ففى كتابات ديكارت ، ولا سيما مبادئ الفلسفة^(١) ، تظهر أول تفرقة صريحة واضحة بين نوعين من الصفات فى الأشياء ، أحدهما ، كالشكل والحركة والموقع ، هو صفات « توجد فى الأشياء على نفس النحو الذى ندركها عليه عن طريق حواسنا أو فهمنا » أما الصفات الأخرى ، كالألوان مثلا ، فإننا عند ما ننسبها إلى الأشياء فإنما يعنى ذلك أننا « ندرك فى هذه الأشياء أمرا نجعل طبيعته ، وإن يكن يسبب فينا إحساسا معيناً بآدى الوضوح والظهور ، يسمى بإحساس الألوان » .

ومن الواجب أن نلاحظ أن الأمر الذى يحذرنا منه ديكارت هو الاعتقاد بأن الألوان توجد فى الأشياء ذاتها على نفس النحو الذى تظهر به لحواسنا . وهو يدافع فى واقع الأمر عن وجود « شئ ما » ، مجهول الطبيعة ، فى الأشياء ، هو الذى يسبب فينا هذا الإحساس اللونى . ومعنى ذلك أن ديكارت لم يدخل تماماً فى مجال الذاتية ، لأن اللون ناتج عن صفة فعلية موجودة فى الأشياء ، ولكن الذهن entendement هو الذى يحول هذه الصفة المجهولة إلى ما نسميه نحن باللون .

ولقد نظر شراح لوك إلى رأيه فى مشكلة الكيفيات الأولى والثانية على أنه مجرد تعبير أصرح وأوضح عن فكرة ذاتية الكيفيات الثانية وموضوعية الأولى . ورغم أن الكثيرين من مؤرخى الفلسفة يوافقون على هذا التفسير ، الذى قد يكون له فى بعض الأحيان ما يبرره ، فإنى أود أن أبه إلى بضع نواح ينبغى أن تؤخذ بعين الاعتبار فى أية مناقشة لهذا الموضوع :

أولا : أن تفرقة لوك بين نوعى الكيفيات يمكن أن تفسر على أنها تفرقة لغوية أو تفرقة فى « التعريف » — فهو يقول عن الكيفيات الأولى إنها

(١) الجزء الأول ، الأقسام ٦٩ ، ٧٠ .

لا تنفصل عن الجسم بحال ، بل يحتفظ بها مهما كانت التغيرات ، ويجدها الحس في أية موضوعات مهما صغرت ، طالما أنها تدرك^(١) . هذا الرأى يمكن أن يفسر على أساس أن من المستحيل تصور الجسم دون أن تكون له تلك الكيفيات الأولى : فمن المستحيل تصور جسم بلا شكل أو كتلة أو حجم أو امتداد . ومهما كبر ذلك الجسم أو صغر ، ومهما كانت التغيرات التى يمر بها فسيظل دائما ذا شكل وكتلة وامتداد ، إلخ ... وإذن فالكيفيات الأولى فى هذه الحالة جزء من « مفهوم » الجسم ذاته . أما الكيفيات الثانية فليست كذلك إذ أن من الممكن تصور جسم دون لون (كالهواء) ، أو جسم دون صوت (كالصورة) ، أو جسم دون طعم (كالماء) ، إلخ .

ثانياً : فإذا صح هذا التفسير للفرقة بين الكيفيات الأولى والثانية على أنها فرقة بين الصفات التى تدخل فى « مفهوم » الجسم وتلك التى لا تدخل ، فإن هذه الفرقة لا تؤثر على الإطلاق فى القول بذاتية الكيفيات أو عدم ذاتيتها . ولو فرضنا أن الجسم ، بكل صفاته ، راجع إلى أفكار ذاتية ، فإن هذا لا يمنع من استمرار الفرقة بين نوعين من الصفات ، أحدهما لا يمكن تصور الجسم بدونه ، والآخر قد يوجد فى الجسم أو لا يوجد . إنك تستطيع أن تسلم ، مثلاً ، بأن كل ما يتعلق بالجسم صادر عن الذات ، وتؤكد فى الوقت ذاته أن هناك صفات لا تستطيع الذات أن تبعث . فكرة الجسم دون بعثها هى الأخرى ، وصفات أخرى يمكن بعث فكرة الجسم بدونها . فالكيفيات الأولى فى هذا التفسير جزء من « تصور » الجسم ذاته ، سواء كان مصدر هذا الجسم ذاتياً أو موضوعياً .

ثالثاً : وربما كان مما يؤيد هذا التفسير ، تردد لوك فى كتاباته بين التفسيرين : المثالى والمادى . فهو فى بعض المواضع يؤكد أن « معظم أفكار

الإحساس توجد في الذهن دون أن تشابه شيئاً يوجد خارجنا ، مثلما أن الأسماء التي تدل على هذه الأفكار لا تشابهها ، وإن كانت تثير فينا هذه الأفكار عندما نسمعها »^(١) ولكنه من جهة أخرى يتحدث حديثاً شبه مادي عن حركة من أعصابنا أو أرواحنا الحيوانية إلى المخ ، وعن حركة أجسام من الأشياء الخارجية إلى العين تبعث فينا صورها . أما الكيفيات الثانية ، فينتقل تأثيرها إلى حواسنا عن طريق « دقائق لا تدرك »^(٢) .

ويؤكد لوك في نفس الموضع اعتماد هذه الكيفيات الثانية على الأولى ، أعني اختلاف الألوان والطعوم ، ... إلخ حسب اختلافات الحركة والشكل والعدد في الأجسام . وهكذا تظهر التفرقة بين نوعي الكيفيات عنده أقل شدة مما تصور به عادة . وعلى أية حال فإن تأرجح لوك وعدم جزمه بشيء في مسألة أصل الكيفيات ، يدل على أن مشكلة الأصل هذه ليست هي التي تعنيه ، وهذا ما يرجح التفسير الذي نقترحه هنا ، وهو أن تفرقه بين الكيفيات الأولى والثانية قد لا تكون إلا تفرقة لغوية تتعلق بعلاقة صفات الجسم المختلفة بتعريفه ، وهي تفرقة تظل صحيحة مهما كان الأصل الذي ينسب إلى هذه الكيفيات .

ومع هذا كله فإن التفسير الذي انتشر لرأى لوك في الكيفيات الأولى هو أنه كان يعدها منتمية إلى الأجسام ذاتها ، بمعنى أنها خارجية . وهكذا اتجهت محاولات الفلاسفة من بعده إلى إزالة ذلك الحاجز الذي وضعه لوك بين نوعي الكيفيات ، بل إزالة الحاجز بين هذين النوعين من جهة وبين النوع الثالث ، الذي تمثله اللذة والألم ، والذي لا يشك أحد في ذاتيته^(٣) .

Ibid. II, 8, f.

(١)

Ibid. II. 8, 12-13.

(٢)

Hume : Treatise. p. 193.

(٣)

ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في فلسفة باركلي . ففي هذه الفلسفة تستخلص كل النتائج المثالية لفكرة ذاتية الكيفيات . وفي وسعنا أن نتخذ من هذه الفلسفة أنموذجا للفلسفة المضادة للموقف الطبيعي . فتفكير باركلي يمثل أبعد المراحل التي بلغت الفلسفة في سيرها بعيداً عن الموقف الطبيعي ، وهو في هذا يمثل بصورة صادقة موقف الفيلسوف « المحترف » ، الذي يدور تفكيره في عالم لا تربطه بعالم الذهن المعتاد إلا صلة عدم الاعتراف المتبادل .

ومن الحقائق المعروفة أن باركلي لم يصل إلى مثل هذا الموقف المثالي في المراحل الأولى لتفكيره إذ أنه ، في عهد تأليفه لكتاب « نظرية جديدة في الإبصار » ، كان لا يزال يعد عالم اللمس حقيقياً ، في حين أن عالم الإبصار فكري خالص . وكل هدفه في هذا الكتاب كان إثبات عدم تطابق هذين العالمين إلا على أساسا اعتباطي (arbitrary) ، بحيث تكون العلاقة بين العلامات البصرية والتفسيرات اللمسية أشبه بالعلاقة بين الرمز اللغوي وموضوعه^(١) : إذ أن العلامة البصرية لا تشبه الواقع الملموس ، ولكنها بالتجربة تصبح دالة عليه ، تماماً كما يصبح اللفظ دالا على موضوعه بتكرار الارتباط بينهما ، رغم عدم وجود أى تشابه بين طبيعتهما .

ومنذ كتاب « مبادئ المعرفة البشرية » تكتمل عناصر الموقف المثالي ، بإزالة كل أثر باق للموقف الطبيعي في كتابته ، والقول إن جميع الكيفيات سواء في ذاتيتها . فصفات الامتداد والشكل والحركة ، التي يزعم أنها توجد في المادة ، ليست إلا أفكاراً توجد في الذهن . والخطأ الذي وقعت فيه نظريات المعرفة السابقة على باركلي ، هو في رأيه أنها حاولت الفصل بين الكيفيات الأولى والثانية وجعلت لكل منهما مصدراً مستقلاً ، بينما يستحيل في واقع

الأمر فصل كل من نوعي الكيفيات : فهل يستطيع أحد تصور امتداد أو شكل دون لون أو كيفية أخرى من الكيفيات الثانية ؟ والنتيجة الواضحة لهذه المقدمة هي أن جميع صفات ما يسميه الموقف المعتاد « بالأشياء الخارجية » تتوقف على الذهن الذي يدركها « فلن ينكر أحد أن خواطرنا وانفعالاتنا وأفكارنا التي تتكون بالخيال لا توجد بدون الذهن . ولا يقل عن ذلك وضوحاً عندي أن مختلف الإحساسات أو الأفكار التي تنطبع على الحس ... لا يمكن أن توجد إلا في ذهن يدركها . وأعتقد أن المرء يستطيع أن يكتسب معرفة حدسية بهذا إذا ما فكر في المقصود من لفظ « يوجد » عندما يطبق على الأشياء المحسوسة . فأننا أقول عن المنضدة متى أكتب عليها إنها توجد ، أي أنني أراها وأحسها ؛ وإذا غادرت غرفتي فسأقول إنها موجودة ، وأعني بذلك أنني لو وجدت في حجرتي فسأدركها ، أو أن روحاً أخرى معينة تدركها بالفعل . وعندما يقال إن هناك رائحة ، فالمقصود أنها تُشم ؛ أو أن هناك صوتاً ، فالمقصود أنه يُسمع ... أما ما يقال عن وجود الأشياء غير المفكرة وجوداً مطلقاً ، دون أية صلة بكونها مدركة ، فذلك مالا أتصوره على الإطلاق . فوجود الأشياء هو كونها مدركة »^(١) .

هنا يعبر باركلي بوضوح عن أفكار ترددت من بعده بالآف الصور ، وما زالت إلى يومنا هذا تتكرر في أوساط الفلاسفة والعلماء المتفلسفين على السواء ، وقد تتخذ شكلاً أدق أو أعقد من الشكل الذي اتخذته عند باركلي ، ولكنها على أية حال لا تخرج في نهاية الأمر عن مثل هذه الأفكار التي كرس باركلي مؤلفاته الفلسفية لعرضها . فعلى المرء أن يرجع إلى فلسفة باركلي كلما أراد تعبيراً واضحاً عن الموقف المثالي الذي يرفض جمع عناصر الموقف الطبيعي ، كما أن عليه أن يركز حملته على هذه الفلسفة كلما أراد نقد الموقف المثالي

والدفاع عن تصور الذهن المعتاد للعالم الخارجى .

١ — والآن ، فلنتساءل عن المعنى الحقيقى لفكرة ذاتية الكيفيات ، ولنضرب مثلاً بأقرب هذه الكيفيات إلى الطبيعة الذاتية — حسب الفرض المثلث — وهى اللون . إن المثلث يعرض فكرته بقوله : إن هذا الحائط الذى يبدو لى أبيض ، ليس « فى حقيقته » أبيض ، فما هو معنى هذه العبارة الأخيرة ؟ تترد الحجج المثالية التى تبرر هذه الفكرة فى نهاية الأمر إلى أن التحليل العلمى للون الأبيض ، سواء من ناحية طبيعة الموجات الضوئية أو كيفية التقاط حدقة العين لها ، يطلعنا على حقيقة مختلفة عما نُطلعنا عليه الحواس فى موقفنا المعتاد . وهذا أمر لا يستطيع أحد أن ينكره ، ولكن لا يصح أن نستنتج منه أن « الحائط ليس فى حقيقته أبيض » ، إذ أننا عندما نقول إن الحائط أبيض نقصد أنه فى مستوى الإدراك المعتاد أبيض ، وهو بالفعل لا يمكن إلا أن يكون كذلك فى هذه الحدود .

فالحجة المثالية إذن تنطوى على خلط بين الموقف المعتاد والموقف العلمى التفسيرى، وتنقد الأول عن طريق حقائق لا تصح إلا فى الثانى . ونستطيع أن ندعم هذا رأى إذا لاحظنا أن فكرة ذاتية الكيفيات لم يعبر عنها بصورة واضحة إلا بعد وصول العلم إلى مرحلة معينة من التقدم ، هى تلك التى أمكن فيها تحليل الألوان والأصوات إلى موجات لها ذبذبات أو أطوال معينة ؛ إلخ . ومما يزيد هذا الفرض قوة ، ملاحظه آرون R. Aaron فى كتابه عن « لوك » من أن روبرت بويل كان أول من وضع تفرقة حاسمة بين الكيفيات الأولى والثانية ، وأكد أن الثانية تترد إلى الذات^(١) — فليس من قبيل المصادفة أن تظهر فكرة الذاتية هذه على يد عالم معروف ، إذ أنها كما قلنا ترجع إلى بلوغ العلم مرحلة معينة ، وإلى تحمس أصحاب الاتجاهات المثالية بين الفلاسفة لهذه الكشف إلى الحد الذى أدى إلى خلطهم بين مجالى الموقف العلمى والموقف

المعتاد . ولنذكر دائماً أنه مهما كانت كشوف العلم في هذا الميدان ، فستظل النظرة المعتادة صحيحة في ميدانها : ولو قال شخص « إن هذه الورقة ليست في حقيقتها ملساء لأنها تبدو تحت المجهر أشبه بالجبال والسهول » ، لكننا أسرع إلى إدراك المغالطة في رأيه هذا ، وإلى تبين ما ينطوى عليه من خلط بين موقفين مختلفين ، غير أن هذا القول لا يختلف في شيء عن الرأي المثلثي القائل إن الحائط في حقيقته ليس أبيض — سوى أن الخلط أقل وضوحاً في الحالة الثانية .

٢ — فإذا حللنا فكرة « وجود الشيء هو كونه مدركا » من الوجهة المنطقية للاحظنا على الفور أن أحد طرفيها ، وهو « وجود الشيء » هو الذي يتركز عليه الاهتمام . فالفكرة في الواقع محاولة لتعريف كلمة « وجود الشيء » . ولكن باركلي ، وكذلك من سار في طريقه من الفلاسفة ، لم يهتم كثيراً بتحليل الطرف الثاني ، وهو كلمة « كون الشيء مدركا » . وعلمنا دائماً أن نلح في طلب تعريف « لكون الشيء مدركا » ، وأن نتساءل : متى يكون الشيء مدركا ؟ إن الشيء لا يكون مدركا « كلما أردنا ذلك » — وفي هذا المعنى المرفوض وحدة تكون الذاتية التامة صحيحة . وإنما يكون الشيء مدركا تحت شروط معينة لا بد من توافرها وإلا لما تسنى لنا إدراكه . فباركلي يؤكد أن المتضدة الموجودة في حجرة مغلقة لا وجود لها بالنسبة إلينا إلا إذا أدركتها ، ولكن ينبغي تكملة هذا التدليل بالقول إنني لا أدركها إلا إذا انتقلت إلى الحجرة ذاتها ، أي أن هناك شروطاً معينة يخضع لها إمكان إدراك الشيء ، وهي شروط لا أستطيع التحكم فيها ذاتياً ، بل ينبغي أن أقبلها كلها كما هي ، لأنها غير متوقفة على إرادتي . وهكذا يبدو أنه إذا كانت فكرة الوجود *esse* تحيلنا إلى فكرة الإدراك *percipi* ، فإن فكرة الإدراك بما تفترضه من شروط غير متوقفة على الذات ، تحيلنا ثانية إلى فكرة الوجود .

٣ — أما من الناحية العملية ، وهي أساسية في موقفنا الطبيعي ، فإن فكرة

« وجود الشيء هو كونه مدركا » تؤدي إلى العجز التام عن التصرف في هذا الميدان . فجميع مواقفنا العملية مبنية على عكسها . ومجرد استخدامنا للملكات التذكر والتوقع والتخيل يعنى أننا نخالف هذه الفكرة ولا نقول بوجود هوية بين وجود الشيء و كونه مدركا . فإذا لم يكن في إمكاننا القول بوجود الأشياء « دون » كونها مدركة ، لاستحال حديثنا عما يجرى في بلد آخر ، أو في الشارع المجاور ، أو ما سيقع إذا حدث كذا ... ولما أمكننا أن نتقدم عملياً خطوة واحدة^(١) .

ونستطيع أن نقول إن التقدم الأكبر الذى يتميز به الإنسان عن الحيوان يتمثل في تجاوز فكرة « وجود الشيء هو كونه مدركا » — فالحيوان على الأرجح ، هو الكائن الذى يؤمن بهذه الفكرة ويطبقها بحذافيرها ، لأنه لا يعرف كيف يتذكر أو يتوقع بوضوح ، وكيف يربط الماضى بالحاضر ، ولأن كل ما يمر به جديد ، منفصل ، مفكك . ولم يستطع الإنسان أن يعلو على مرحلة الحيوانية هذه إلا لأنه عرف كيف يتخلص من هذه الفكرة ، ويؤمن بوجود الأشياء من غير أن تكون مدركة ، أى أن يتجاوز هذا « الموجود لأنه مدرك » .

* * *

(١) لا شك في أن باركلى يكمل هذه الفكرة بحجة « إدراك الله للأشياء حين لا ندرکہا نحن » ، وهى حجة سوف تناقش في الفصل الخاص « بفكرة الخارجية » .

(ج) الأشياء بوصفها « ظواهر »

نستطيع من وجهة نظر الموقف الطبيعي أن نفرق بين المثالية « المادية » عند باركلي وبين المثالية « الظاهرية » عند « كانت » على أساس أن الأولى تعد الخروج عن الموقف الطبيعي « نتيجة » نهائية ، أما الثانية فتعده المقدمة الأولى لها ، والمظهر الأول لأصالة منهجها . فمن الواضح أن باركلي لم ينتقل إلى القول بأن وجود الشيء هو كونه مدركا ، إلا بعد تفكير متدرج مرت به فلسفته هو ذاته ومرت به الفلسفات الحديثة السابقة عليه ، حين أخذت ترد المزيد من صفات الأشياء تدريجياً إلى الذات ، فكانت النتيجة الطبيعية في النهاية هي التخلي عن الموقف الطبيعي على نحو ما فعل باركلي . أما بالنسبة إلى « كانت » ، فالمسألة ليست استدلالاً أو تطوراً تدريجياً ، بل هي منهج جديد وضعه بإرادته ، وحاول فيه أن يجعل الأشياء تدور حول محور الذات ، أى أن يتخذ عمداً ، ومنذ البدء ، الموقف المضاد للموقف الطبيعي . وتلك بلا شك طريقة أكثر فعالية في محاربة الموقف الطبيعي ، ومن هنا كان قول شوبنهاور في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « العالم إرادة وتمثلاً » : « إن تعاليم « كانت » لتحديث تغييراً أساسياً في كل ذهن استوعبها ... فهي وحدها القادرة فعلاً على إزاحة الواقعية الفطرية التي تنشأ عن الميل الأصلي للعقل . وهذا أمر لا يقدر عليه باركلي ولا ما لبرانث ... ونتيجة لذلك ، تنكشف عن العقل غمامته تماماً ، وينظر إلى كل الأشياء بعد ذلك في ضوء جديد ... أما من لم يستوعب فلسفة « كانت » ... فهو في حالة البراءة ؛ أى أنه يظل واقعاً تحت سيطرة تلك الواقعية الطبيعية الطفولية التي نولد كلنا فيها ، والتي تؤهل المرء لكل شيء ممكن ما عدا الفلسفة ».

ويبدو أن « كانت » كان يقصد باركلي حين تساءل في مستهل مقدمة الطبعة الثانية من « نقد العقل الخالص » — في صدد حديثه عن أسبقية التجربة في كل معرفة لنا « ... كيف تُدفع ملكة المعرفة لدينا إلى العمل ما لم تكن الأشياء التي تؤثر في حواسنا تنتج من ذاتها — من جهة — تمثلات ، وتثير — من جهة أخرى — نشاط ذهننا ليقارن هذه التمثلات ، ويقوم ، عن طريق الجمع بين المادة الخام للانطباعات الحسية أو التفريق بينها ، بتحويل هذه المادة إلى تلك المعرفة بالأشياء المسماة بالتجربة ؟ » وهكذا يتضح لنا المعنى الذي قصده « كانت » حين أطلق على فلسفة باركلي اسم « المثالية المادية » : فباركلي يجعل من الذهن — الإلهي أو البشري — مصدرًا للحدس ولكل صورة أو ترتيب يظهر به ذلك الحدس . أما بالنسبة إلى « كانت » ، فالحدس « معطى » ، ودور الذهن ينحصر في بعث الوحدة والنظام والترتيب في ذلك الحدس . وهنا قد يبدو أن مثالية « كانت » أخف حدة من مثالية باركلي ، ولكن الواقع أن درجة الخروج عن الموقف الطبيعي لا تقل عند « كانت » عنها عند باركلي . ذلك لأن هذا الحدس الذي أخرجه من سلطة الذهن هو مجرد مادة للإدراك لا تُعرف إلا من خلال التشكيل الذهني ، ولا تفهم إلا بما فيها من صور وقوالب ذهنية . فلم يكن قول « كانت » إذن إن صورة الإدراك ، لا مادته ، هي التي تأتي من الذهن — لم يكن هذا القول في واقع الأمر محاولة للاقتراب من الموقف الطبيعي على الإطلاق ، إذ أن مادة الإدراك عنده مجرد مجهول لا قيمة له في أية معرفة ، ولا يمكن للبمراء الوصول إليه مهما بذل من جهد ، بل إنها بالنسبة إلى فلسفة « كانت » تكملة منطقية لبناء المذهب فحسب .

ففى نفس الوقت الذى أكد فيه « كانت » أن كل معرفة لنا تبدأ بالتجربة ، حرص على أن يوضح ذلك بأنه لا يعنى أنها كلها تنشأ « عن التجربة » ، إذ أن من المحتمل أن تكون التجربة ذاتها مؤلفة مما نتلقاه من الانطباعات وما تقدمه

ملكة المعرفة ... بذاتها . » (مقدمة الطبعة الثانية) . وأستطيع أن أقول إن كلمة « من المحتمل » هنا ليست تعبيراً عارضاً ، بل إنها تكشف عن وجه في المثالية الظاهرية عند « كانت » ، هو أن هذه المثالية قُدمت في البداية على أنها فرض قيم قد يفيد في إرساء الميتافيزيقا على أسس علمية متينة . فمنذ مقدمة الطبعة الثانية يوضح « كانت » هدفه بأنه محاولة بناء الميتافيزيقا على أسس راسخة كتلك التي تُبنى عليها الرياضة والطبيعة . وهو لهذا الغرض يجرب طريقاً آخر لتفسير العلاقة بين الأشياء والذهن غير طريق الموقف الطبيعي . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن فلسفة « كانت » النظرية كانت ثورة كبرنيكية ، لا بمعنى أنه أراد منها أن تحدث انقلاباً شاملاً في تحديد العلاقة بين الأشياء والذهن فحسب ، بل أيضاً بمعنى أنها ، كالنظرية الكبرنيكية الفلكية ، كانت « فرضاً » خاضعاً للتحقيق ، وينبغي الحكم عليه حسب ما يؤدي إليه من نتائج . ومن هنا كان علينا أن نعامل فلسفة « كانت » النظرية بأسرها على أنها « فرض » ، أو محاولة قصد بها النظر إلى الأشياء في ضوء جديد ، هو ذلك الذى تكون فيه الأشياء « دائرة في فلك الذات » — إن جاز هذا التعبير — وأن نحاول إصدار حكم على هذه الفلسفة في هذا الضوء ، ونعاملها ، كأى فرض علمي ، حسب قدرتها على تحقيق الهدف الذى وضعت له لذاتها منذ البداية ، وتفسيرها للظواهر الواقعة في نطاقها تفسيراً سليماً .

ومن أوضح الأدلة التى تؤيد هذه النظرة إلى فلسفة « كانت » النظرية على أنها « فرض » مضاد للموقف الطبيعي وضعه « كانت » معتقداً أنه سيفسر به الظواهر الميتافيزيقية تفسيراً أسلم ، تلك السلسلة العديدة من التعبيرات المثالية التى استهل بها « كانت » مناقشاته الفلسفية في كتاب « نقد العقل الخالص » ، دون أن يبدل مجهوداً يذكر للبرهنة عليها . ففي بداية « الحساسية الترنسندنتالية » — أى في بداية أول موضوع يناقشه « كانت » في ذلك

الكتاب بعد المقدمات والتصديرات — يأتي « كانت » ببضعة تعريفات ، ضمنها تعريف للإحساس بأنه « تأثير الموضوع في ملكة التمثل ، بقدر ما تتأثر بهذا الشيء ... والحدس يكون تجريبياً إذا اتصل بالموضوع عن طريق إحساس . والموضوع غير المحدد للحدس التجريبي يسمى « مظهرًا »^(١) .

هنا يتحدث « كانت » عن الموضوع « غير المحدد » للحدس التجريبي ، ويطلق عليه اسم « المظهر » — وهذه التسمية وحدها تجر وراءها الموقف المثالي بأسره ، مع أنها لا تبدو هنا إلا في صورة تعريف تمهيدى . وأفضل تعليل لهذا الاستخدام غير المسبوق بيرهان لكلمة « المظهر » — مع ما تتضمنه من ضرورة القول بأشياء في ذاتها ، وبأن هذه الأشياء في ذاتها مجهولة ، ما دام موضوع الحدس التجريبي هو ما ينقل إلينا المحسوسات — نقول إن أفضل تعليل لذلك هو أن « كانت » قد أراد منذ البداية اتخاذ ذلك الموقف المثالي الذي يسمّى « بالمظهر » ما نطلق عليه في موقفنا المعتاد اسم « الشيء » ، والذي يعتقد بوجود حقيقة أخرى وراء ما ندركه من الشيء ، لا تنقلها إلينا الحواس ، وربما كانت غير قابلة للنقل على الإطلاق .

وهو يحدد دور الحاسة الخارجية في تكوين فكرة المكان فيقول : « عن طريق الحاسة الخارجية ، وهي صفة لذهننا ، نمثل لأنفسنا الأشياء على أنها خارجة عنا ، وموجودة ... في المكان » [B. 37] وهكذا تكون نقطة بداية المناقشة ، لا نتيجتها النهائية ، هي أن المكان ناتج عن الحاسة الخارجية ، التي هي صفة لذهننا ، وأن خارجية الأشياء من صنع ذهننا ، وكل ما في الأمر هو أننا « نمثل لأنفسنا » الأشياء على أنها خارجة عنا — أما كيف كانت الأشياء قبل أن « نمثلها لأنفسنا » ، فهذا ما لا يجيب عنه « كانت » .

مثالية تستطيع أن تؤكد شيئاً واحداً : هو أن الأشياء كما تبدو لنا « ظواهر » ، أما ما وراء هذه الظواهر ، فذلك هو المجهول الذى لا تذكر تلك المثالية أى شئ عنه . وينبغى أن نلاحظ هنا وجود تناقض بين قضيتين متلاحقتين عند « كانت » : أولاهما هى القائلة إن مظهر الأشياء كما ندرکها « مختلف » تماماً عما هى عليه فى ذاتها — والثانية هى القائلة إن الأشياء فى ذاتها « مجهولة » لدينا تماماً . فإذا صحت القضية الثانية ، فإن هذا لا يعنى صحة الأولى على الإطلاق . وينبغى أن يمتنع الفيلسوف ، إذا كان « لا أدرياً » على هذا النحو ، عن إصدار أى حكم إيجابى على طبيعة الأشياء فى ذاتها ، كالقول إنها « مختلفة » عن الظواهر . ذلك لأن هناك عدة احتمالات منطقية عن العلاقة بين الظواهر والأشياء فى ذاتها ، ضمنها احتمال كونها « مماثلة » للظواهر . وطالما أننا نفرق بين الظواهر والأشياء فى ذاتها مثل هذه التفرقة القاطعة ، ونؤكد أن الثانية « مجهولة تماماً » ، فمن الواجب أن نعمل حساب ذلك الاحتمال الذى تكون فيه هذه الأشياء فى ذاتها مماثلة لظواهرها ، وهو احتمال يظل قائماً طالما أن الأشياء فى ذاتها « مجهولة » .

مثل هذه التفرقة بين الظواهر والأشياء فى ذاتها هى مظهر من مظاهر خروج المثالية عن الموقف الطبيعى ، وهو مظهر أطلق عليه « كانت » اسم « المثالية النقدية » . والفارق بين المثالية النقدية وبين مثالية باركلى « المادية » من وجهة نظر الموقف الطبيعى ، يتمثل فى فكرة « الشئ فى ذاته » هذه . فباركلى و « كانت » متفقان على أن الوجه المدرك للأشياء يرجع إلى مجرد إدراك الذات له — عند الأول — أو « طريقته » فى إدراكه — عند الثانى — غير أن « كانت » يفترض من وراء هذا الوجه المدرك طبيعة أخرى « مجهولة » هى التى تمثل الأشياء « كما هى فى حقيقتها » ، وهذا الوجه بطبيعته مخالف تماماً لما ندرکه من الأشياء فى الموقف الطبيعى . أى أننا نستطيع فى الواقع أن نقول

إن « كانت » قد خالف الموقف الطبيعي مرتين : مرة حين أكد أن الوجه المدرك للأشياء راجع إلى الذات ، ولا يمثل صفات موضوعية، ومرة حين أكد أن ما ندركه من الأشياء لا يستوعب كل ما فيها ، بل إن لها طبيعة كامنة مخالفة لما ندركه — والقولان ، كما هو واضح ، مرتبطان في فلسفته ارتباطاً وثيقاً . وعلى الرغم من محاولات خلفاء « كانت » من المثاليين أن يخلصوا مذهبهم من هذه « الزائدة » التي لا تجلب لمذهبه إلا المرض — أى الشيء في ذاته — فلا شك في أن موقع الفكرة من مذهبهم ليس عرضياً على الإطلاق . « فكانت » أراد أن يكون منطقياً مع نفسه إذ وضع في مقابل الظواهر أشياء في ذاتها . ولتصور الأمر على هذا النحو : فمن المحال أن يعترف الفيلسوف المثالي بأن الأشياء كما ندركها هي « أشياء في ذاتها » ، لأنه لو فعل ذلك لرجع إلى الموقف الطبيعي . وإذن فلا بد له أن يقول بطبيعة أخرى لها ، ومن هنا أسماها « كانت » باسم « الظواهر » . غير أن كلمة « الظواهر » لا بد أن يكون لها متضاياف ، إذ أننا سنظل دائماً نتساءل : لأى شيء هي ظواهر ؟ وهكذا تظهر ضرورة القول بالأشياء في ذاتها بالنسبة إلى كل مذهب يقول بالظواهر . وقد شرح « كانت » نفسه هذه الضرورة بقوله : « إن مجرد اعتراف الذهن بالظواهر ، هو اعتراف بوجود أشياء في ذاتها . وهكذا يمكننا أن نقول إن تمثل هذه الأشياء التي تُستخدم أساساً للظواهر ، أى الكائنات العقلية الخالصة ، ليس مقبولا فحسب ، بل لا مفر منه »^(١) .

بل إن الارتباط الضروري بين معرفتنا وبين إمكان التجربة البشرية ، يجعل من الممتنع استخدام تصوراتنا على نحو لا تعود فيه ممكنة للتجربة ، « ولكن الأكثر من ذلك امتناعاً ، من جهة أخرى ، ألا نعترف بأشياء في ذاتها ، أو أن ننظر إلى تجربتنا على أنها الطريقة الوحيدة الممكنة لمعرفة الأشياء ، وبالتالي إلى

حدسنا في المكان والزمان على أنه هو الحدس الوحيد الممكن ، وإلى ذهنتنا المقالى (discursive) على أنه أتمودج كل ذهن ممكن ، أى أن ننظر إلى مبادئ إمكان التجربة على أنها شروط شاملة لأشياء في ذاتها ^(١) . وهنا يقدم « كانت » مبررًا آخر لفكرة الأشياء في ذاتها ، ويتخذ هذا المبرر شكل الموضوعية الفكرية التى تحتم علينا ألا نتصور طريقتنا في معرفة الأشياء على أنها هى الطريقة الوحيدة الممكنة ، بل تجعلنا نعرف بإمكان وجود تجارب أخرى ، وحدوس أخرى ، وأذهان أخرى .

« ولكن ، على أى نحو نتصور هذا الشيء في ذاته ؟ هل نتصوره على أنه ما لا يمكن أن يكون موضوعًا لحدسنا الحسى ، أم على أنه ما هو موضوع لحدس غير حسى ؟ يبدو أن « كانت » ، مع تفرقه بين هذين الوجهين ، السلبى والإيجابى ، للشيء في ذاته ، ينتهى إلى أن يقف موقفًا « لا أدريا » ، لا يجزم بشيء إثباتًا أو نفياً ، ويكتفى بوصفه الشيء في ذاته بأنه « تصور تحديدى » ، أى تصور يوضح الحدود التى لا تستطيع تجربتنا أن تتعدها ^(٢) .

وهكذا ينتهى « كانت » إلى هذه النتيجة الغريبة : فخروجه عن الموقف الطبيعى ، وتسميته للأشياء « بالظواهر » ، يحتم عليه — كما رأينا — افتراض الفكرة المتضايقة مع الظواهر ، أعنى الأشياء في ذاتها . ولكن على الرغم من أن مذهب « كانت » لا يكتمل بدون فكرة الأشياء في ذاتها هذه ، فإن تصوره لها محاط بالغموض من البداية إلى النهاية ، ولا يكاد المرء يجد عنده أى وصف محدد للفكرة يركز عليه . وهكذا يبدو من الغريب حقًا ألا يجد الفيلسوف سوى صفات غامضة كل الغموض لوصف فكرة لها مثل هذا الموقع الأساسى

Ibid § 57.

(١)

Critique of Pure Reason, B 310.

(٢)

في مذهبه .

ووجه الاستحالة في مثل هذا النوع من التفكير ، الذى يتخذ في ظاهره طابع الموضوعية ، ولكنه في حقيقته أبعد ما يكون عنها ، أننا لا يحق لنا الكلام عن وجه آخر للأشياء لا سلباً ولا إيجاباً ، أعنى لا يحق لنا الكلام عن وجه للأشياء لا تكون فيه موضوعاً لطريقتنا الخاصة في الإدراك ، أو تكون موضوعاً لطريقة أخرى في الإدراك — إذ أن لنا تجربة واحدة ، باعتراف الجميع ، وهذه التجربة الواحدة لا تسمح لنا حتى بتخيل الطريقة التى قد توجد بها أية تجربة أخرى .

وليحاول كل منا أن يركز فكره فيما يعنيه « كانت » « بالشئ » في ذاته » ، الذى هو الشئ لا كما تدركه حواسنا أو ذهننا ، بل كما هو « في حقيقته » ، أى الشئ غير المقيد بطريقتنا الخاصة في الإدراك ، التى ترتبط بالتركيب الخاص لحواسنا وذهننا فحسب — ليحاول أن يركز فكره في معنى هذه الكلمة ، وسيجد أنها في واقع الأمر خالية تماماً من أى معنى . فنحن نستطيع مثلاً أن نتصور طريقة « القط » في الإدراك على أنها مخالفة لطريقتنا في الإدراك ، وذلك على أساس تجارب معينة ثبت فيها أن القط أقدر على الرؤية في الظلام ، وأقوى في حاسة الشم ، إلخ ... أما الجزم مقدماً ، ودون وجود أى أساس من التجربة ، بأن هناك مقياساً معيناً — هو هذا « الشئ في ذاته » — يتخذ أساساً للحكم على كل طريقة أخرى للإدراك بأنها إدراك لظواهر ، دون أن يكون هناك أى أساس تجريبي لمثل هذا المقياس المزعوم ، فخطأً منهجياً أساسياً .

ولو كان لنا أن نتحدث عن تدرج في قيمة طرق الإدراك المختلفة للأشياء ، حسب مكانة الحيوانات المتدرجة في سلم الحياة ، بما فيها الإنسان ، لما كان لنا أن نقول إلا أن طريقة الإنسان أكملها . حقاً إننا قد نجد حيوانات لها حواس

معينة أحد وأقوى بكثير من حواسنا المناظرة ، غير أن الصورة العامة التي يصل إليها الإنسان ، والتي تتضافر فيها حواسه مع ملكاته الذهنية والنفسية ، لا توجد إلا على نحو واه ، أو لا توجد على الإطلاق ، لدى بقية الكائنات . وهذه الصورة هي بلا شك أدق من كل الصور الأخرى ، والدليل الدامغ على هذا هو أنه أنجح الجميع في التعامل مع الطبيعة وإخضاعها . وإذن فأقصى ما يمكننا عمله هو أن نجري مثل هذه المقارنات « الداخلة في نطاق التجربة » بين الإنسان وبين كائنات أخرى . أما أن نحاول تجاوز نطاق تجربة الإنسان ذاتها وتصور الأشياء في صورة مجهولة لا تنتمي إلى أية تجربة على الإطلاق ، فذلك بلا شك محاولة مستحيلة لا معنى لها . وإذا كانت مثل هذه المحاولة المستحيلة تؤدي إلى الخط من تجربة الإنسان إلى مرتبة الظواهر — بالنسبة إلى هذا « المجهول » المسمى بالشيء في ذاته — فلا شك في أن هذه نتيجة أخرى مستحيلة ، لأن أقصى وأرفع ما يمكننا عقلا أن نتصوره من التجارب هو تجربتنا نحن ، التي لا يعلو عليها شيء في سلم التجارب المعروفة لنا ، أو التي يمكن أن تكون معروفة لنا .

ويعد إخفاق فكرة « الشيء في ذاته » هذه إخفاقا للموقف الكانتي بأسره : « فكانت » قد وضع « الفرض الكبرنيكي » — الذي تكون الأشياء بمقتضاه متفقة مع طريقتنا في المعرفة ، لا العكس — آملا أن يستطيع بذلك تفسير كل ظواهر المعرفة من الوجهة الفلسفية . ولكن فرضه هذا يتضح إخفاقه التام حين نراه يؤدي ضرورةً إلى فكره الشيء في ذاته ، أي إلى افتراض وجود وجه للأشياء لا يقوم على أساس أية تجربة . فإذا حاول أحد تخلص فلسفة « كانت » من فكرة « الشيء في ذاته » ، فلن يكون قد خلاصها من عنصر زائد لا قيمة له ، كما ظن خلفاء « كانت » ، بل إنه سيقضي في هذه الحالة على التمييز بين الأشياء كما ندرکها ، وبين الأشياء كما هي « في ذاتها » ،

وهذا يقتضى ألا نطلق على الأشياء كما ندركها اسم « الظواهر » ، وهذا بدوره يؤدى إلى الامتناع عن ربط الأشياء « بطريقتنا الخاصة فى المعرفة » ، أو بقولنا الحسية والذهنية الخاصة — وهذا معناه انهيار مذهب « كانت » من أساسه .

والذى يعيننا من هذا كله هو أن الفرض الذى وضعه « كانت » فى البداية ، وهو الفرض الذى أعلن فيه مخالفته للموقف الطبيعى ، ينتهى حتماً إلى الإخفاق . ويبدو — فى رأينا — أن منهج « كانت » ذاته كان يحتم عليه ألا يتسرع باتخاذ هذا الفرض نقطة بداية لتفلسفه . ذلك لأن كل هدف هذا المنهج هو التفرقة بين الميتافيزيقا من حيث هى شرط لإمكان التجربة ، وبين الميتافيزيقا من حيث هى محاولة لتجاوز التجربة عن طريق العقل الخالص ، ثم إثبات استحالة الميتافيزيقا بالمعنى الثانى ، وانتهائها إلى قضايا يمكن إثبات عكسها بنفس القوة التى يمكن بها إثباتها هى ذاتها . ولكن لو تأملنا تلك القضية الرئيسية التى يتخذها « كانت » نقطة بداية لفلسفته ، وهى « أننا ندرك ظواهر ، لا أشياء فى ذاتها » — لوجدناها تنتمى فى الواقع إلى تلك الميتافيزيقا التى تحاول تجاوز التجربة عن طريق العقل الخالص . فتلك القضية ليست تجريبية أو ممكنة للتجربة ، لأن التجربة لا تطلعنا على شئ وراء ما ندركه . ومن الممكن أن تؤدى إلى « نقيضة » على نفس النحو الذى أدت به قضية « للعالم بداية فى الزمان » إلى نقيضة فى نظر « كانت » : فمن الممكن أن نقول بنفس القوة : « أننا ندرك ظواهر — وإنما ندرك أشياء فى ذاتها ، وذلك طالما أن القضية تنتمى إلى مجال العقل الخالص الذى يحاول تجاوز التجربة .

ولسنا فى حاجة إلى أن ننبه إلى أن هذا الإخفاق لا يقتصر على « كانت » . فمن الواضح أن الكثيرين من أصحاب التفكير المثالى ، فى الميدان الفلسفى الخالص وفى ميدان النقد العلمى كذلك ، يفترضون التفرقة بين الظواهر

والأشياء في ذاتها ضمنية ، ولا يفترون عن « كانت » إلا في أن الأخير نادى بها صراحة ، وجعلها جزءاً مكملًا للبناء الفلسفي الذى حاول تشييده . فالقول بالشيء في ذاته يظهر ضمناً لدى القائلين بأن الشروط التى نتفق فيها على معرفة الأشياء ليست بالضرورة منتمة إلى الماهية « الحقيقية » للأشياء — وهو قول يتخذ آلاف الصور والأشكال ، ويعبر عن موقف عظيم الشئوع بين فئة كبيرة من المفكرين .

* * *

وينبغى أن نحذر هنا من الاعتقاد بأننا نرفض كل شكل من أشكال النسبية ، على أساس أنها تفترض تفرقة ضمنية بين ما هو نسبي وما هو مطلق ، أى خارج عن حدود تجربتنا . ذلك لأن من الممكن أن تكون للنسبية معانى مشروعة ، غير معنى انتساب كل ما ندركه إلى طريقتنا الخاصة في المعرفة . والواقع أن من الواجب أن نفهم كلمة « انتساب الشيء إلينا » بمعنيين :
١ — معنى خاص ، فردى أو جزئى ، يتمثل في الاختلافات بين الأفراد ، وهى الاختلافات التى تصل إلى حد التطرف في حالات المرض أو غيرها من الحالات غير المألوفة ، مثلما يقول المصاب بعمى الألوان عن العشب الأخضر إنه أبيض « بالنسبة إليه » .

٢ — ومعنى عام ، يتمثل في حالات الإدراك السوية التى تشترك فيها الغالبية العظمى من الناس . وفي هذا المعنى تكون الأشياء منسوبة إلينا ، بمعنى أن حواسنا تتحكم إلى حد ما في طريقة إدراكنا ، وأن لها دوراً ما في تكوين الصورة النهائية للشيء .

والخطر الأكبر في الموقف المثالى هو خطر ظهور المعنى الأول ، أو الخلط بينه وبين الثانى . ويرجع هذا الخطر إلى أن المثاليين أنفسهم لا يجددون معياراً للتفرقة بين المعنيين ، حتى يبدو أن فكرة انتساب موضوعات المعرفة إلى

الإنسان يمكن أن تفهم ، عند كثير من المثاليين ، بأنها انتساب المعرفة إلى « الفرد » ، ومن هنا كانت كثير من المذاهب المثالية تتعرض للوقوع في مذهب « الذات الوحيدة Solipsisme » . وهكذا يمكن القول إن القوة الدافعة إلى إنكار مثل هذه النسبية هي وضع حد للخلط بين ما هو منتسب للإنسان عامة ، وما هو منتسب للفرد .

ومن جهة أخرى لا يمكن أن ينكر أحد كون الأشياء التي نعرفها متصلة بنا ، ومنسوبة إلينا « على نحو ما » . ولكن مثل الانتساب عام مشترك بين كل أفراد الناس إلى حد أن التنبيه إليه غير مجد ، فهو كالحلد المشترك بين طرفي كسر ، يحسن دائما حذفه من الطرفين معا . ولهذا فلا ضير على الإطلاق ، رغبة في التمييز بين المعنيين ، من الاحتفاظ بمعنى النسبية للمعنى الأول ، أما ما هو نسبي بالمعنى الثاني ، فيمكن أن يسمى شيئاً في ذاته — لا بالمعنى الكنتي وإنما بالمعنى « الإنساني » ، إن صح هذا التعبير ، أى بمعنى أنه هو ما تتفق عليه جميع الأذهان ، ولا يدركه الجميع إلا على نحو واحد .

(د) « مذهب الظاهريات » والموقف الطبيعي :

وصف كثير من شراح « هوسرل » فلسفته بأنها « مثالية ترنسندنتالية » وهو وصف يدل — إذا صح — على أن مذهب الظاهريات كان مضاداً للموقف الطبيعي . على أن هوسرل قد انفرد عن كثير من المثاليين بمناقشاته المطولة للموقف الطبيعي ، وهى مناقشات تفيد فى إلقاء الضوء على ذلك النوع الخاص من المثالية ، الذى دافع عنه هوسرل ، وكذلك على معنى الموقف الطبيعي ذاته ووجهة نظر مذهب الظاهريات إزاءه . ولما كان الهدف من العرض الموجز الذى تقدمه لهذا الموضوع هو إيضاح مرحلة أخرى من مراحل المثالية أو شكل آخر من أشكالها ، وليس بحثاً استقصائياً لتفكير هوسرل فى هذا الموضوع ، فسوف نكتفى ها هنا بالرجوع إلى ما نعتقد أنه أوضح عرض قدم فيه هوسرل آراءه المتعلقة بالموقف الطبيعي ، وهو المجلد الأول من كتاب « أفكار Ideen » .

وأول ما ينبغى أن نشير إليه هو أن من الضرورى التفرقة بين لفظى « المذهب الطبيعي أو النزعة الطبيعية naturalisme » و « الموقف الطبيعي attitude naturelle » عند هوسرل . فالمذهب الطبيعي ، كما ينتقده هوسرل ، هو تلك النزعة التى تطورت نتيجة لتقدم العلوم الطبيعية وتطبيق مناهجها فى شتى المجالات ، بحيث أصبح هناك « اتجاه » كامل نحو اتخاذ العلم الطبيعي نموذجاً لكل من المعرفة ، حتى فى مجال معرفة الإنسان (علم النفس) . وهذا هو الاتجاه الذى ركز هوسرل جهوده على نقده فى مؤلفات أهمها « الفلسفة

علمًا دقيقًا » . ولقد كان نقد هوسرل لهذا المذهب هو جانب من أهم جوانب رسالته في الفلسفة . غير أن من الواجب أن نتذكر أن هذه المعركة مرتبطة بمرحلة معينة من مراحل تاريخ العلم الأروني ، هي تلك التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر ، والتي بدا فيها للكثيرين أن منهج العلوم الطبيعية يصلح للانطباق على كل المجالات ، حتى مجال الكتابة الأدبية ومعرفة النفس البشرية ذاتها . ومن هنا كان هدف هوسرل من محاربة هذه النزعة هو صد التيار الجارف الذي يرمى إلى « تطبيع » الإنسان وإغفال ما ينفرد به الوعي الإنساني عن سائر الموضوعات التي يمكن أن ينطبق عليها منهج العلوم الطبيعية .

أما رأى هوسرل في « الموقف الطبيعي » — وهو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره — فيتعلق باتجاه أو نزوع ثابت لا علاقة له بمرحلة معينة من مراحل تطور العلم . إنه موقف الإنسان « المتجه إلى العالم » ، والذي يتعامل مع هذا العالم بوصفه حقيقة قائمة بذاتها ، ويقبل العالم على ما هو عليه ، ويندمج فيه على هذا الأساس . ومن الواضح أن المواقف التي اتخذها هوسرل من هذا الموضوع لا شأن لها بمعركته مع المذهب الطبيعي ، إذ أن ما يحلله هوسرل تحت باب « الموقف الطبيعي » ليس على الإطلاق ظاهرة مرهونة بعصر معين . ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نتصور نوعا من الاتصال بين المجالين : فالمذهب الطبيعي في العلم لا بد أن يتضمن تصورًا للعالم قائما على أساس الموقف الطبيعي ، ولكننا سنظل مع ذلك قادرين على تصور الموقف الطبيعي (في حالة الإنسان العادي ، أو مفكرى العصور القديمة مثلا) بغض النظر عن تلك المرحلة العلمية التي أدت إلى سيادة المذهب الطبيعي .

فهل خاض هوسرل ، ضد الموقف الطبيعي ، معركة مماثلة لتلك التي خاضها ضد المذهب الطبيعي في العلم وفي دراسة الإنسان ؟ إن الإجابة عن

هذا السؤال هي الكفيلة بأن تحدد موقع فلسفة الظاهريات وسط مجموعة المذاهب المثالية التي تنكر الموقف الطبيعي بصورة أو بأخرى .

١ — أول ما ينبغي أن نبه إليه هو الاتساع الهائل في معنى « الموقف الطبيعي » عند هوسرل . ذلك لأنه قد يتبادر إلى ذهن البعض أنه لما كان هوسرل قد نظر إلى الخروج عن الموقف الطبيعي على أنه هو الخطوة الأولى في التفلسف ، فمعنى ذلك أن الموقف الطبيعي عنده عقبة ضئيلة الشأن ينبغي أن تزاح أولا ، لكي يبدأ بعد ذلك أى تفلسف حقيقى . ولكن الواقع أن ما يقصده هوسرل « بالتفلسف » في هذه الحالة هو تفلسفه هو . فنوع التفلسف الخاص بمذهب الظاهريات هو الذى يحتاج للبدء فيه ، إلى إزاحة عقبة الموقف الطبيعي . ولكن هوسرل لا يجعل من هذه الإزاحة شرطا لكل تفكير يكشف لنا حقائق عن العالم . فقد كانت هناك ، ولا تزال ، فلسفات ومذاهب فكرية وعلمية يعترف بها هوسرل ، وترتكز كلها على الموقف الطبيعي .

فالعلوم المألوفة كلها تقتضى « فلسفة » ، هي تلك التي تركز على الموقف الطبيعي . ومعنى ذلك أن فلسفة الموقف الطبيعي تقف على نفس مستوى العلوم المألوفة ، ولو أنكرنا الأولى لكننا بذلك ننكر الثانية ، وهو ما لا يقبله هوسرل نفسه . وقد حدد هوسرل نطاق العلوم المرتكزة على الموقف الطبيعي ، فذكر أنها تشمل علوم الطبيعة المادية ، وعلوم الكائنات الحية من حيث ما لها من طبيعة نفسية فيزيائية ، ومن ثم فهي تشمل أيضا علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، كما تضاف إليها مجموعة العلوم المسماة بالعلوم الإنسانية Geisteswissenschaften ، كالتاريخ وعلوم الحضارات ومختلف العلوم التي تدرس المجتمع الإنسانى^(١) .

Idées directrices pour une phénoménologie (Traduction de (١)

Paul Ricoeur). Paris, Gallimard. 1950. p. 16.

وفلسفة « كانت » ذاتها هي ، من وجهة نظر هوسرل ، داخلة في نطاق الموقف الطبيعي . فالوعى الذى يبحث « كانت » فى مدى صحته هو الوعى الموضوعى الممكن . والذات الترنسندنتالية عند « كانت » هي شكل من أشكال العالم له صورة قبلية *apriorische Weltform* ، وهي ذات متممة إلى العالم على الرغم من كونها صورية ، ولذلك فإن « كانت » لا يصل أبداً إلى الذات المطلقة ، ويظل تفكيره داخلاً فى نطاق العالم^(١) .

بل إن بعض شراح هوسرل ، مثل فنك Fink ، يذهب إلى أن بحث هوسرل ذاته فيما هو قبلى ، فى كتاب « الأبحاث المنطقية » يظل متممياً إلى مجال الموقف الطبيعي ، شأنه فى ذلك شأن بحث « كانت » والكائيتين الجدد فى شروط إمكان الموضوعية عامة^(٢) .

وربما كانت الخطوة الأولى التى تقربنا إلى ذلك النوع الخاص من الخروج عن الموقف الطبيعي ، الذى كان هوسرل يدعو إليه ، هو الشك الديكارتي . وأقول إن هذه الخطوة « تقربنا » من مقصد هوسرل ، ولكنها لا تنفذ بنا إلى صميمه ، إذ أن الشك الديكارتي إذا كان ينظر إلى العالم على أنه وهم أو خداع ، فإنه لا يغير شيئاً من الوضع العام للعالم بوصفه موجوداً^(٣) . وبقدر ما ينضم هذا الشك إلى مجموعة المحاولات التى بذلت ، منذ أفلاطون حتى باركلي ، من أجل تقديم حجج تزعزع يقيننا بوجود العالم ، فإنه يظل — كهذه المحاولات ذاتها — دائراً فى فلك الموقف الطبيعي . ولكن فى الشك الديكارتي جانباً آخر يقربه من موقف هوسرل : ذلك لأن شك ديكارت لم يكن « مذهياً » ، بمعنى أنه لم يكن يعبر عن حالة فعلية من الشك لا يستطيع

(١) انظر مقدمة ريكور . ص XXVII

(٢) المرجع نفسه ، هامش ص ٩١ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٥ .

الفيلسوف الخروج منها ، ويجد نفسه عاجزا عن الخلاص من أحابيلها ، وإنما كان « منهجيا » ، أى شكّا إراديا متعمدا ، يقوم به الفيلسوف وفى ذهنه هدف محدد ، ويمارسه بحرية ، وبقدر ما يساعده على تحقيق هذا الهدف .

بهذا المعنى يقترب الشك الديكارتي من منهج « وضع العالم بين قوسين » عند هوسرل ، الذى كان بدوره منهجيا يتبع بحرية كاملة ، ويعمد الفيلسوف إلى اتخاذ نظرا إلى ما يترتب عليه من نتائج . وكما أن الشك الديكارتي قد انتهى فى آخر المطاف ، إلى استرداد نفس العالم الذى كان فى البدء يرتاب فيه ، بل إن هذا العالم كان طوال الوقت موجودا بالفعل ، حتى عندما كان الشك قد بلغ أوجه ، فكذلك لا يؤدى وضع العالم بين قوسين إلى المساس بحقيقة وجود العالم ، كما يتمثل للوعى ، وإن كان يعطل هذه الحقيقة بفعل إرادى واع يستهدف تحقيق نتائج فلسفية معينة من هذا التعطيل : « إن ما نعطله (mettons hors du jeu) هو الوضع العام (thèse) الذى ينتمى إلى ماهية الموقف الطبيعى . فنحن نضع بين أقواس كل ما يتضمنه هذا الوضع فى مجال الوجود ، وبالتالي كل هذا العالم الطبيعى الذى هو دائما « هناك بالنسبة إلينا » ، والذى هو « ماثل » ولا يكف عن أن يظل هناك بوصفه « واقعا réalité » بالنسبة إلى الوعى ، حتى عندما يروق لنا أن نضعه بين أقواس . وعندما أسير على هذا النحو ، وهو أمر يدخل تماما فى نطاق قدرة حريتي ، لا أنكر إذن هذا العالم كما لو كنت سفسطائيا ، ولا أضع وجوده موضع الشك ، كما لو كنت شكّا كما (مذهبيا) ، وإنما أمارس التعليق *poché* الظاهري الذى لا يمنع على الإطلاق كل حكم منصب على الوجود فى المكان والزمان » (١) .

ويزيد هوسرل من إيضاح رأيه فى دلالة تعطيل الوضع الطبيعى للعالم

من أجل الوصول بعد ذلك بحرية عقلية كاملة إلى المشكلات الحقيقية للفلسفة ، التي تقتضى تجديدا شاملا ، والتي سيكون من الممكن بلوغها بعد تحرير الأفق من جميع جوانبه » (١) .

وربما كان التوفيق قد جانب هوسرل في استخدام تعبير « العادات الفكرية » في النص السابق . فما يسميه بالعادات الفكرية هنا هو حصيلة الموقف الطبيعي ، غير أن ما هو « طبيعى » مضاد لما ينتج عن « العادات » ، التي هي مكتسبة ، متولدة عن التكرار ، لا عن الطبيعة ، بل هي كثيرا ما تكون مضادة للطبيعة أو خارجة عنها أو مضافة إليها . فما يقصده هوسرل في هذا السياق ليس « عادات فكرية » بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، وإنما هو أساليب وطرق للتفكير نتجه إليها بحكم الطبيعة . وقد يبدو هذا الاعتراض مجرد اقتناص لعدم اتساق لفظى بحت ، ولكنه في واقع الأمر اعتراض مرتبط بصميم الهدف الذى يتجه المنهج الظاهري إلى تحقيقه : فهل يهدف هوسرل ، من اتباعه لهذا المنهج ، إلى مجرد اطراح عادات فكرية قديمة واستبدال عادات فكرية جديدة بها ، أم أنه يهدف إلى قهر الطبيعة قهرا متعمدا ؟ أغلب الظن أن هدفه هو الثانى ، بدليل أنه ، بعد عدة سطور من النص السابق ، يقول : « إذا كان الوصول إلى ماهية الظاهريات يشكل صعوبة بالغة ... فذلك يرجع أولا وقبل كل شيء إلى أنها تقتضى التخلّى عن المواقف الطبيعية المرتبطة بتجربتنا وتفكيرنا ، أى تغييرا جذريا فى الموقف » . هذا التغيير فى الموقف يرجع إلى « الرغبة فى الوصول إلى منطقة جديدة للوجود لم يتم حتى الآن تحديدها وفقا لما فيها من خصوصية ، يكون الوجود فيها — شأنها شأن كل منطقة أصيلة —

(١) المرجع نفسه ، ص ٥ .

وجودا فرديا»^(١). وبهذا المعنى كان المنهج الظاهرياتي عند هوسرل تأسيساً لعلم جديد ، غريب عن الفكر الطبيعي ، وهو علم لم ينشأ ، ولم يكن من الممكن أن ينشأ ، إلا في العصر القريب .

وهنا يصبح في استطاعتنا أن نستجمع خيوط الفكر السابقة ، لكي نصل إلى تحديد دقيق للرأى الذى تتخذه فلسفة الظاهريات إزاء الموقف الطبيعى ، وعلاقة هذه الفلسفة ببقية المذاهب المثالية التى ينصب عليها نقدنا فى هذا الكتاب .

فقد تبين لنا أن خروج مذهب الظاهريات عن الموقف الطبيعى يختلف اختلافاً أساسياً عن خروج المذاهب المثالية الأخرى عن هذا المذهب : فهو ليس خروجاً حتمياً ، تمليه ضرورات فكرية لا يمكن التخلص منها ، وإنما هو خروج اختياري يقوم به الفيلسوف بمحض إرادته ، مستهدفاً منه كشف وجهة نظر جديدة ، وآفاق جديدة ، لا تبدى إلا بعد « تعليق » العالم الطبيعى و « تعطيل » موقفنا الطبيعى الذى نعترف فيه بهذا العالم وتندمج فيه . إن المثاليات التقليدية تضعنا أمام اختيار يتحتم علينا القيام به : فإذا اعترفنا بوجود العالم أنكرنا المثالية ، وإذا اعترفنا بالمثالية تحتم علينا أن نرفض الموقف الطبيعى الذى يفترض وجود العالم . أما هوسرل فإنه يريد أن يخرج عن الموقف الطبيعى مع بقاء هذا الموقف موجوداً بالنسبة إل كل من لم يتخذ وجهة النظر الظاهرياتية . فمن الممكن أن نتصور — فى إطار تفكيره — تعايشاً بين الموقف الظاهرياتي والموقف الطبيعى ، على حين أن مثل هذا التعايش مستحيل من وجهة نظر المثاليات التقليدية .

إن الألفاظ التى تُستخدم فى مذهب الظاهريات على جانب كبير من الأهمية فى تحديد موقفه من المشكلة التى نحن بصدددها . فهو سرل لا يقدم

حججًا تفند الموقف الطبيعي ، ولا يفكر أصلا في هذا التنفيذ ، وإنما هو يتحدث عن « تركه جانبا » . بل إن تنفيذ المثاليين التقليديين للموقف الطبيعي يظل ، في نظره ، داخلا في إطار هذا الموقف . وهكذا يكون للموقف الطبيعي عنده معنى شديد الاتساع ، يشمل أنصار هذا الموقف وخصومه معا ، ويقف هوسرل بمعزل عن هؤلاء وأولئك ، لأنه يضع هذا الموقف بين قوسين ، ويعطله من أجل بلوغ منطقة جديدة يستحيل الاقتراب منها إلا بهذا التعطيل . ولما كانت وجهة النظر التي نعالج من خلالها مفهوم الموقف الطبيعي في هذا الكتاب هي تلك التي تتعلق بالصراع ضد المثالية ، وبإمكان الدفاع عن هذا الموقف أو عدم الدفاع عنه ، فإن محاولة هوسرل تبدو ، في هذا الضوء ، خارجة عن نطاق الخلافات والصراعات الأساسية التي تثار في هذا الكتاب . ذلك لأن تعطيل الموقف الطبيعي لا يعنى إصدار حكم ضده ، ولا يتضمن في ذاته تنفيذا له ، على حين أن هذا التنفيذ هو ما يعيننا قبل غيره^(١) .

ولنذكر ، في هذا الصدد ، أن دعوة هوسرل إلى قهر الذات الطبيعية — عن

(١) لعله قد يكون من الطريف ، في هذا الصدد ، أن نقارن بين رأى هوسرل ورأى باشلار في علاقة الموقف الطبيعي بالعلم . فهو سرل يجعل علوم العالم منبثقة عن الموقف الطبيعي ومرتبطة به ، أما باشلار فيرى أن العلم لا يبدأ في أن يكون علما بالمعنى الصحيح إلا حين يتخلى عن الموقف الطبيعي . وتفسير هذا التناقض في رأينا هو أن هوسرل ، كما قلنا في الفقرة السابقة ، كان يستخدم تعبير الموقف الطبيعي بمعنى شديد الاتساع ، على حين أن باشلار قد ضيق من هذا المعنى أكثر مما ينبغي . فالموقف الطبيعي عنده مرتبط بالتلقائية غير النقدية ، التي لا تعتمد على أى منهج أو خطة ، تلك التلقائية الساذجة الجاهلة التي لا تقوم لمعرفتنا بالعالم قائمة إلا إذا تجاوزتها . وعلى أية حال فمن الواضح أن معنى الموقف الطبيعي ، كما نستخدمه في هذا الكتاب ، أضيق من معنى هوسرل ، وأوسع من معنى باشلار ، ولذلك يمكن القول إن الأرض التي يقف عليها هذان الفيلسوفان ، بالنسبة إلى المشكلة التي نعرض لها في كتابنا هذا ، هي أرض مختلفة إلى حد بعيد .

وعى وبحرية كاملة — لحساب الذات الخالصة ، هذه العودة الترنسندنتالية إلى الوعى المنحدر من التوجه نحو العالم الطبيعى ، لا يمكن تصورهما إلا فى إطار ثقافة ظلت ، طوال تاريخها ، متوجهة نحو هذا العالم ، واكتسبت كثيرا من توجهها هذا . ففى الثقافة الهندية مثلا ، حيث ظهرت منذ فجر التاريخ مذاهب تجعل من العالم الطبيعى وهما وخداعا ، يستحيل أن نتصور فلسفة ظاهرية تطلبنا — بإلحاح — بأن نعطل الموقف الطبيعى ، والفكر الطبيعى ، والعالم الطبيعى ، والأنا الطبيعى . والواقع أن هوسرل إنما كان يسير ، فى دعوته هذه ، فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الرياضيات والمنطق حين اكتشفت مجالات جديدة لا تصدق عليها البديهيات القديمة ، وإن لم تكن قد أنكرت استمرار فعالية هذه البديهيات فى المجالات التقليدية ، وهو ذاته الاتجاه الذى سارت فيه فيزياء القرن العشرين ، حين رفضت النظرة الميكانيكية إلى العالم ، مع اعترافها باستمرار انطباق هذه النظرة فى مجالات خاصة . فظهور الفينومينولوجيا إنما هو حلقة فى سلسلة بحث الثقافة الغربية عن أبعاد جديدة ، وأعماق جديدة ، (ومما له دلالة أن التوافق الزمنى بين كل حلقات هذه السلسلة كان توافقا تاما) ؛ وهذا البحث عن الأبعاد والأعماق الجديدة لا يفهم إلا فى إطار ثقافة تشبعت طوال تاريخها بالأبعاد والأعماق التقليدية . وهكذا فإن الدعوة إلى وضع الموقف الطبيعى بين قوسين هى دعوة لا يكون لها معنى إلا فى إطار مجتمع ظل طوال تاريخه يعترف بهذا الموقف ويبنى علومه ومعارفه على أساسه .

وعلى أية حال فإن المنطق نفسه يؤيد هذا الاستنتاج : إذ أنك لا تستطيع أن تضع ما هو غير موجود بين أقواس . فعملية الوضع بين أقواس هى ذاتها أقوى دليل على أن العالم الطبيعى موجود ، وعلى أن الموقف الطبيعى يفرض نفسه ، وأنت لا نستطيع الخلاص منه إلا مؤقتا ، وبعد عزوف وزهد وجهد .

مشكلة خارجية العالم

في هذه المشكلة يظهر أقوى تضاد بين الموقفين المثالي والطبيعي . وفيها أيضا يتمثل قصور المثالية التام في ميدان نظرية المعرفة . ذلك لأن المثالية بعد ما عرضناه في الفصل السابق من حججها ، يتحتم عليها أن تواجه هذا السؤال : كيف يمكن تعليل ما يسمى في الموقف الطبيعي باسم العالم الخارجى ؟ أى أن المثاليين قد يستطيعون أن يقولوا إن وجود الأشياء هو كونها مدركة ، أو أن ما ندركه من الأشياء ظواهر أو تمثلات — ومع ذلك فسيظل لزاما عليهم أن يقدموا تفسيراً لتلك الفئة من الظواهر التى نسميها في موقفنا الطبيعي باسم العالم الخارجى ، وأن يعللوا صفة « الخارجية » التى ننسبها إلى هذه الظواهر عادة ، و نتصرف معها عملياً على أساسها — ونستطيع إن نقول إن محاولة إيجاد هذا التفسير وهذا التعليل هى أعقد مشكلة تواجه كل فيلسوف مثالى .

وجهها مشكلة العالم الخارجى :

علينا أولاً أن نفرق بين وجهين لمشكلة العالم الخارجى حدث بينهما كثير من الخلط فى أذهان الفلاسفة :

أ — أولهما : هل العالم الخارجى مستقل عن الذات ، أى ذو وجود موضوعى ؟

ب — ما شكل هذا العالم الخارجى ؟ وهل هو كما يبدو لنا ، أم أن له شكلاً آخر ؟

ولنبداً بالسؤال الثانى ، فنشير إلى ملاحظتنا السابقة الخاصة باستحالة

وجود شكل واحد للعالم في مختلف مواقف الإنسان : فالموقف العلمى ، بآلاته المادية وأدواته الذهنية ، يرسم للعالم صورة ، أو صورة ، لا يمكن مقارنتها بالصورة التى نرسمها له فى موقفنا الطبيعى ، والتى ترمى إلى خدمة أغراض مختلفة عن تلك التى يخدمها الموقف العلمى . فهناك ، كما قلنا ، شكل للعالم فى نظر عالم الفلك ، وشكل آخر فى نظر عالم البيولوجيا ، وشكل ثالث فى نظر عالم الطبيعة ، وهذه الأشكال كلها تختلف عن شكل العالم كما ندركه فى حياتنا اليومية ، ولكن لا يمكن أن يقال إن واحدا منها هو الصحيح ، بل إن كلاً منها صحيح فى مجاله الخاص فحسب . ولكن ، إذا لا حظنا ، كما قلنا من قبل ، أن الفيلسوف لا يملك الأدوات المادية أو الذهنية التى تمكنه من اتخاذ الموقف العلمى ، فعندئذ يتحول السؤال السابق ، بالنسبة إلى الفيلسوف على التخصيص ، إلى ما يأتى : هل تستطيع الفلسفة ، بفضل تحليلاتها المنطقية وحدها ، أن تصل إلى صورة أخرى للعالم غير صورته فى الموقف الطبيعى ؟ والرد المألوف على السؤال هو : نعم ، لأن صورة العالم كما ندركها متوقفة على الذات ، أما العالم « فى حقيقته » فله صورة أخرى ، أو لا بد أن تكون له صورة أخرى .

وهكذا نجد أن الرد الفلسفى على السؤال الثانى يثير حتما السؤال الأول ، أى السؤال عن توقف العالم على الذات أو اعتماده عليها . أى أن الوسيلة التى تثبت بها الفلسفات ذات النزعة المثالية إمكان وجود صورة أخرى للعالم غير صورته فى الموقف الطبيعى ، هى أن تؤكد عدم استقلاله عن الذات ، وبالتالى اشتراك الذات فى تكوين الصورة الحالية ، التى هى مجرد « مظهر » تختفى وراءه صورة أخرى « حقيقية » للعالم الخارجى .

وهنا ننتقل إلى الإجابة عن السؤال الأول ، وهو البحث فى استقلال العالم أو وجوده الموضوعى . والنتيجة التى ينتهى إليها المثاليون فى هذا الصدد هى أن

تدخل الذات في تكوين صورة عن العالم الخارجى معناه أن هذا العالم ليس مستقلاً عنا ، وإنما هو معتمد علينا . وردنا على هذه النتيجة المثالية مزدوج : فعلياً أولاً أن ثبت أن فكرة انتساب الواقع إلى الذات لا تمنع من استقلاله ، وعليها بعد ذلك أن ثبت أن العالم الخارجى يجب أن يكون « بالفعل » مستقلاً عن الذات ، أى أن يحتفظ بخارجيته .

نسبية العالم الخارجى واستقلاله :

سأقدم، تبريراً للرأى في هذا الصدد، المثال التالى، وهو مثال له أهميته العظمى في تفنيد الحجة المثالية القائلة بعدم استقلال العالم نظراً إلى كونه منسوباً إلينا : لنفرض أن هناك عالماً آخر — غير عالمنا هذا — به كائنات مدركة ذات حواس وأذهان ، وأشياء ذات وجود مستقل — ولنفرض أن هذه الكائنات لا تدرك الأشياء المستقلة إلا من خلال حواسها وأذهانها . عندئذ سيكون من الطبيعى أن تبدو هذه الأشياء ، في نظر بعض هذه الكائنات ، متوقفة في وجودها تماماً على حواسها وأذهانها ، على حين أنها ، حسب الفرض ذاته ، مستقلة .

وبعبارة أخرى ، ففي حالة أى كائن يدرك الأشياء من خلال حواسه وذهنه ، تثار حتماً مشكلة استقلال الأشياء ، ولكن وجود هذا « الحاجز » الحسى والذهنى الضرورى لا يمنع من أن تظل الأشياء مستقلة . والفارق الحاسم في هذه الحالة هو نوع الشروط التى تدرك بها هذه الأشياء من خلال الحواس والذهن : أى ما إذا كانت الحواس والذهن قادرة على أن تبعث الأشياء كلما شئت ذلك ، أو أنها لا تستطيع أن تبعث هذه الصورة إلا إذا توافرت شروط محددة بدقة .

وقد حلل « ك . ا . لويس » هذه المسألة تحليلاً دقيقاً ، انتهى منه إلى أن ضرورة انتساب الواقع إلى ذات عارفة لا تتعارض على الإطلاق مع بقاء الواقع

مستقلاً . « فالواقع ، بقدر ما يمكن أن يكون معطى فى التجربة أو معروفاً ، منسوب إلى العارف . ولا يمكن أن يُفهم إلا من حيث هو ظاهر أو قابل للظهور أمام مدرك فى تجربة فعلية أو ممكنة . ولكن كون الطابع الوحيد الذى يمكن أن يعزى إلى أى شىء حقيقى هو طابع يوصف بعبارات نسبية — أى بالنسبة إلى تجربة ما — ليس معناه أن نأبى على هذا الشىء الطبيعة المستقلة ، ولا يتعارض مع إمكان معرفة هذه الطبيعة »^(١) . والمسألة هى أن هذه الشروط التى تتوقف عليها تجربة العارف فى إدراك الشىء محددة دائماً بدقة ، ولا بد أن يكون ما يحددها شيئاً آخر غير العارف ذاته ، إذ أن هذا لا يعرف فى أى وقت يشاء ، بل يعرف كلما توافرت هذه الشروط . وإذن فهذه الشروط راجعة حتماً إلى « الطابع الحقيقى والموضوعى للشىء .. »^(٢) . وإنه لمن سوء الفهم لطبيعة فكرة النسبية أن يستنتج المثالى من انتساب الشىء إلى الذهن أن الشىء « معتمد » تماماً على الذهن^(٣) .

ولعل من حسن حظ الباحثين فى عصرنا الحالى أنه قد ظهرت أجهزة تُنقل عن طريقها بعض كفيات الأشياء على نحو لم يكن ليخطر على بال الباحثين التقليديين فى المعرفة على الإطلاق ، وتسهم فى حل المشكلة المتعلقة بانتساب هذه الكفيات إلى الذات مساهمة قيمة . ولنتأمل مثلاً جهاز تسجيل الأصوات . فهذا الجهاز يبعث كفية من كفيات الأشياء ، وهى الصوت ، دون أن يكون هناك أى شبه بين المصدر الذى ينقل الصوت عن طريقه ، وهو الشريط ، وبين الصوت ذاته . فعن طريق الموجات الكهربائية المغناطيسية

C. I. Lewis : Mind & the World Order. Dover. (N. Y.) 1956. (١)

p. 167.

Ibid - 185.

(٢)

Ibid - 183.

(٣)

يبعث الجهاز كيفية مختلفة تماماً عن هذه الموجات . ولا شك في أن الجهاز ذاته قد اشترك — بمعنى ما — في خلق الصوت ، ولكن هل يعنى ذلك أنه قد « تدخل » في جعل هذا الصوت على ما هو عليه ، أو أن له دوراً فيما تكون عليه الصورة النهائية للصوت ؟ الواقع أن الجهاز لا يبعث شيئاً من عنده على الإطلاق ، وإنما « يترجم » الموجات إلى أصوات . ومما لا شك فيه أن طبيعة الشريط — أى نوع الموجات المسجلة عليه — هو العامل الوحيد المتحكم في نوع الصوت الصادر : أى في كونه صوتاً بشرياً ، أو موسيقياً ، أو طبيعياً ، إلخ ... أى أن نوع الصوت يتوقف في هذه الحالة على عامل « موضوعى » لا شأن لجهاز التسجيل ذاته به . وهنا نجد مثالا واضحا للجهاز System يعتمد عليه التعبير عن الكيفية الحسية في صورتها المألوفة (لأن الشريط دون الجهاز لا يُنتج أى صوت) ، ومع ذلك لا يمكن أن يقال إنه يخلق هذه الكيفية ، التى تظل موضوعية مستقلة عن الجهاز ذاته ، ولا تعتمد عليه إلا في « ترجمتها » أو نقلها إلى الصورة الصوتية — أما نوع هذه الصورة ذاتها ، فذلك مالا يتحكم فيه الجهاز على الإطلاق .

وأعتقد أن هذا المثل يفيد إلى حد بعيد في الرد على الاعتقاد القائل إن اعتماد الإدراك على الإنسان يجعله ذاتياً : فقيه تتمثل حالة واضحة لكيفية تعتمد على جهاز ما وتظل مع ذلك موضوعية مستقلة عنه .

وإذن ، فمن الممكن ، نظرياً على الأقل ، أن تكون الذات مشتركة في تكوين الصورة النهائية للشيء ، مع بقاء هذا الشيء مستقلاً عن الذات . والمعيار الأساسى لهذا الاستقلال هو وجود شروط « موضوعية » لا تخلقها الذات ، وبدونها لا يدرك الشيء .

ومهمتنا الآن هى تناول أمثلة مختلفة للمفكرين المثاليين ، نناقش من خلالها الطريقة التى تعرّض بها المثاليون لفكرة « موضوعية شروط الإدراك » هذه ،

ونبين إلى أى حد كانت مشكلة خارجية العالم هى العقبة التى لم يستطع أى مذهب مثالى التغلب عليها بصورة منطقية سليمة .

خارجية العالم عند ديكارت :

فى الفقرة الأولى من الجزء الثانى من « مبادئ الفلسفة » يبرهن ديكارت على وجود الأجسام المادية ذات الطبيعة المستقلة عن العقل « على أساس أن فى مشاعر لا أبعثها فى نفسى كلما شئت وكما شئت ، بل إن هناك شيئاً هو الذى يبعثها فى . وقد يقال إن الله هو الذى يبعث فىنا إحساساً بوجود هذا الشيء الممتد طولاً وعرضاً وعمقاً ، أو أنه يدفع شيئاً ليست له مثل هذه الطبيعة إلى بعث هذا الإحساس فىنا — ولكن هذا معناه أنه يخذعنا ، وهذا يخالف لطبيعته ، فلا بد إذن أن يكون هناك بالفعل جوهر ممتد موجود فى العالم ، له كل ما ننسب إلى مثل هذا الجوهر من خصائص » .
ويلاحظ على رأى ديكارت هذا ما يأتى :

١ — أنه يجعل وجود العالم الخارجى فى حاجة إلى « برهان » ، أى فى حاجة إلى مجموعة من « الاستدلالات » المنطقية التى « تثبت » هذا الوجود إذا أمكن الإتيان بها ، والتى لو لم يتمكن الذهن من الوصول إليها لظل ذلك الوجود أمراً مشكوكاً فيه أو غير مؤكد . وهذا افتراض لن نناقشه الآن ، بل يكفيننا فى الوقت الحالى أن ننبه إليه فحسب .

ويلاحظ فى هذا الصدد أن ديكارت أخذ يبحث عن برهان عندما عجز عن الاقتناع « بميلنا الطبيعى » إلى نسبة الوجود الخارجى إلى الأشياء . فهو يحرص (فى التأمل الثالث) على أن يفرق بين « الميل الطبيعى » إلى الاعتقاد بوجود الأشياء الخارجية ، وهو دائماً معرض للشك ، وبين « النور الطبيعى » الذى يتعلق بحقائق واضحة لا سبيل إلى إنكارها — مثل الكوجيتو . ولم يفكر ديكارت فى الاحتمال المضاد ، أعنى احتمال كون « الميل الطبيعى » أقوى حجة

من كل حقائق « النور الطبيعي » المزعومة التي لم يكن لها طابع « لا يقاوم » إلا في ذهن ديكارت وبعض معاصريه ، والتي أثبت التطور التالى للفكر البشرى افتقارها التام إلى أى نوع من الوضوح أو البدهة .

٢ — أن ديكارت قد تنبه جيداً إلى طبيعة الإدراكات المتعلقة بالعالم الخارجى ، والتي تختلف عن الإدراكات أو المشاعر الباطنة اختلاف جوهرياً : ففي إمكانى دائماً أن « أتخيل » منظر المنضدة حين لا أكون جالساً بقربها ، ولكنى لا أستطيع كلما شئت أن « أدرك » منضدة على ذلك النحو الذى نسميه بالإدراك الفعلى . ولو كانت المسألة كلها « تمثلات » أو انبعاثات ذاتية لما كان لمثل هذا الإدراك أى شرط يتوقف عليه ، ولكان مثل هذا الإدراك « إرادياً » على الدوام . وإذن فوجود شروط للإدراك الخارجى « لا يتوقف على إرادتنا » دليل على أن لهذا الإدراك طبيعة مختلفة اختلافاً أساسياً .

٣ — وأخيراً يلاحظ أن ديكارت كان فى حاجة إلى دعامة من الإيمان لكى يتخلص من إمكان الخداع . فهو لا يستطيع الاهتداء إلى يقين بشأن وجود العالم الخارجى إلا بعد مساره الطويل من الشك إلى الكوجيتو ثم إلى وجود الله ، ومنه إلى وجود العالم . أى أن وجود العالم الخارجى يظل معلقاً أو موضوعاً بين قوسين إلى أن يعود إليه عن طريق وسائط أخرى توصل إليه بطريق غير مباشر .

ولكن ، إذا تأمل المرء قليلاً دور فكرة الله فى « ضمان » وجود العالم الخارجى ، لوجد أن المقصود من هذه الفكرة هو فى أغلب الأحيان حل مشاكل خلقتها نفس فكرة الله ذاتها أو أفكار أخرى مشابهة . ففكرة لا إرادية المشاعر الخارجية مقنعة ، والشئ الوحيد الذى يشكك فيها هو احتمال الخداع عن طريق قوة مسيطرة خارجة عنى أو قوة قى ، قادرة على تكوين هذه الأفكار

دون معونة أى شىء خارجى ، كما يحدث فى الأحلام^(١) . ومهمة فكرة الله فى هذه الحالة هى أن ترد إلى ثقتى بإدراكى الخارجى . إذ لو وجدت مثل هذه الملكة الخداعة لكان معنى ذلك أن الله يخدعنى ، وهو ما يتنافى مع الطبيعة الإلهية . وهكذا نلاحظ أن نفس الافتراض الذى ظهرت فكرة الله لدحضه ، أى افتراض وجود ملكة خادعة ذاتية أو قوة من نوع « الشيطان الماكر » أو غيره ، هو افتراض من نوع « فوق الطبيعى » . فمثل هذه الملكة إذا كانت ذاتية خالصة ، فسيكون عملها غير مفهوم على الإطلاق ، إذ أن إحساساتى بوجود العالم الخارجى كما قلنا لا إرادية ، ولا يكفينى فيها مطلقاً أن أمارس إحدى ملكاتى ، ناهيك بتلك الملكة التى لا تنتمى إلى أى شىء أعرفه . وعلى أية حال فإن هذه الملكة الباطنة غير المألوفة ، وغير الداخلة فى نطاق المعرفة البشرية ، لا بد أن تكون صادرة عن قوة خارج البشر تبعثها فيهم . مثل هذه القوة لا بد أن تكون مفروضة على من الخارج ، أى لا بد من افتراض وجود نوع من الروح الخادعة أو الشيطان الماكر التى تتقمصنى ، وتدفعنى إلى مثل هذا « الخداع » .

ولست أدرى : هل يُعد مما يتلاءم مع روح الشك السليمة التى بدأ بها ديكارت تفكيره أن يفترض مثل هذه الافتراضات ؟ إن ديكارت قد بدأ بالشك فى كل ما تلقاه من تعاليم فلاسفة العصور الوسطى والقديمة ، وهذه نقطة بداية سليمة إلى أقصى حد . وهو يظن أن المضى فى الشك إلى حد إثارة احتمال وجود « شيطان ماكر » ما هو إلا استمرار فى طريق الشك السليم الذى وضعه لنفسه . ولكن الواقع أن إثارة مثل هذا الاحتمال تنطوى على نكسة فكرية شديدة تعارض تماماً مع روح « الشك المنهجى » بمعناها الصحيح . فكما أن الإهابة بالشياطين هى طريقة خرافية إذا اتخذت سبيلاً إلى حل

(١) انظر مقال « حجة الأحلام فى نظرية المعرفة » فى آخر هذا الكتاب .

مشكلة مجهولة ، فإنها كذلك طريقة خرافية إذا اتبعت لإثارة الشك في معارفنا القائمة .

وهكذا يمكن القول إن كثيراً من الحجج التي أثارها ديكارت للتشكيك في خارجية العالم — وهى الخارجية التي تؤدي إلى الاعتقاد بها إدراكاتنا « اللإرادية » لموضوعات هذا العالم — لم تكن حججاً سليمة ، بل لم تكن متمشية مع روح الشك المنهجي التي دفعته إلى التفلسف . ولنلاحظ ، على أية حال ، أن الدور الذي تقوم به فكرة الله في هذا الصدد لا يعدو أن يكون إعادة الثقة « النفسية » إلى الإنسان بصحة إدراكه للعالم . ولو حللنا جيداً مغزى فكرة « استحالة كون الله خادعاً » لما وجدناها تخرج عن مجال إعادة الثقة النفسية هذا ، إذ أن طريقة التفكير الشكوى الأولى كان يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية ، وكل ما فى الأمر أن فكرة الله تتدخل هنا لتوقف عملية الشك هذه عن السير ، وعلى أساس عملية « الإيقاف » هذه يتسنى للإنسان أن يستعيد الثقة بمعرفته ، ويكف عن وضع الفروض الخيالية المؤدية إلى الشك .

والخلاصة : أن ديكارت رأى أن وجود العالم الخارجى فى حاجة إلى « برهان » عقلى ، وأن هذا البرهان يحتاج إلى دعامة من الإيمان ، لكى تضع حداً لقدرة الذهن على إثارة نقاط للشك لا نهاية لها ، وأن من الممكن الاستغناء عن دعامة الإيمان هذه إذا كف الذهن عن إثارة الأسباب « الخرافية » للشك ، وبهذا يظل من الصحيح أن العالم الخارجى لا بد موجود لسبب بسيط ، هو أن الإدراكات التى تدلنا عليه لا تُبعث بإرادتنا ، فلا بد إذن أن شيئاً خارجاً عنا هو الذى يبعثها — وهو السبب الذى نتجه إليه فى « ميلنا الطبيعى » (أى موقفنا الطبيعى) ، والذى لم يكن ديكارت على استعداد للاكتفاء به نقطة بداية لتفلسفه .

« الذات الوحيدة الإلهية ، عند باركلي :

لا جدال في أن باركلي كان بدوره متنبها كل التنبيه إلى تلك الصعوبة التي تنبه إليها ديكرت ، والتي يواجهها أى مذهب ذاتي يؤكد أن إدراكاتنا ترجع كلها إلى الذات . فمثل هذا المذهب يصطدم حتماً بواقعة لا سبيل إلى إنكارها ، وهي أن إدراكاتنا للعالم الخارجى لا تتوقف مطلقاً على مشيئتنا . « فأياً ما كانت القوة التي أتملكها على أفكارى الخاصة ، فإنى أجد الأفكار التي تدرك فعلاً بالحس غير معتمدة على إرادتى على هذا النحو . إذ ليس في مقدورى ، عندما أفتح عيني في رابعة النهار ، أن أختار بين الرؤية وعدم الرؤية ، أو أن أحدد الأشياء التي يقع عليها بصرى .. فالصورة المنطبعة في هذه الحالة ليست من صنع إرادتى ، ولا بد إذن أن تكون هناك إرادة أو روح أخرى هي التي تحدثها »^(١) هذه الروح الأخرى هي كما نعرف ، الروح الإلهية .

ويضيف باركلي إلى ذلك ، ما تتصف به صور الحس من حيوية وتميز وإحكام وانتظام لا يتوافر في صور الخيال . وهذا الترابط المحكم لصور الحس فينا هو ما يسمى « بقوانين الطبيعة » ، التي تغدو في هذه الحالة تعبيراً مباشراً عن الإرادة الإلهية .

ولنحاول الآن ترتيب الأفكار المتسلسلة التي يفسر بها باركلي خارجية العالم في ضوء مذهبه المثالى .

فهناك صور للحس وصور للخيال ، الثانية أبعتها بإرادتى ، والأولى تأتي من مصدر خارج عنى لا أملك التحكم فيه . ويؤكد باركلي — وهو تأكيد له أهميته الكبرى — أن « التمييز بين الحقائق الواقعة والخيالات يظل [في مذهبه] أقوى ما يكون »^(٢) . فصور الحس لها مصدر غير إرادة ذهننا

The Principles of Human Knowledge. Ist. Part § 29.

(١)

Ibid. § 34.

(٢)

التلقائية، وهذا المصدر الآخر في نظره هو الله، الذى يبعث فينا هذه الصور، وينظمها في شكل قوانين الطبيعة. ولنلاحظ، في هذا الصدد، أن النوع الآخر من الصور، وهو الصور الخيالية، يفترض أن له مصدرًا إنسانيا خالصًا، وربما كان في هذا — من وجهة نظر المفكرين اللاهوتيين من أمثال باركلى — نوعًا من الحد من القدرة الإلهية: إذ أن هذه القدرة تمارس على فئة معينة من الصور، هى الصور الحسية، أما الفئة الأخرى فلإنسان وحده حق التحكم فيها. وإنه لمن الصعب، إذا بدأت الإرادة الإلهية تتدخل في هذا المجال، أن نوقف هذا التدخل عند حد، لا سيما إذا كان القول بهذا التدخل مبنياً على أساس الاعتقاد بلانهاية قدرة هذه الإرادة. وعلى أية حال، فهذه مجرد ملاحظة فرعية على محاولة باركلى الاحتفاظ بالتمييز بين صور الحس وصور الخيال في إطار مذهبه.

والذى يهمننا من هذا كله، هو أن باركلى اعترف بوجود اختلاف أساسى في الطبيعة بين صور الحس وصور الخيلة التى ترجع إلى إرادة الإنسان، وأكد أن النوع الأول من الصور ينبغى أن يكون راجعًا إلى مصدر خارج عن الإنسان. وإلى هذا الحد ينبغى أن نسجل تسلسل التفكير هذا على باركلى، إذ أننا نرى من الضرورى الاحتفاظ بهذا النصف الأول من استدلاله، أما النصف الثانى فيسهل الاعتراض عليه. وبعبارة أخرى، فقد حاول باركلى أن يثبت أن هذا المصدر الآخر هو الله، على أساس أن كيفيات الأشياء لا تدركها إلا روح، والروح البشرية وحدها عاجزة عن ضمان استقلال الأشياء، فلا بد أن روحًا إلهية هى التى تدركها وتضمن استقلالها. فإذا أمكن تنفيذ هذا النصف الثانى من الحجة، فسيظل النصف الأول قائمًا، أى سيظل من الضرورى الاعتراف بمصدر للمدركات الحسية خارج عن الإنسان، ولكنه ليس الروح الإلهية فى الوقت ذاته.

فلو كان ذهن الإنسان أو حسه هو المصدر الوحيد للاعتقاد بوجود الأشياء الخارجية ، لكان معنى ذلك أن الأشياء تخلق دائما من جديد . فإذا أغمضت عيني انتهى الشئ المرئى ، وإذا فتحتها عاد ثانية إلى الوجود . ولذا يحرص باركلى على تفسير عبارة « إن وجود الأشياء هو كونها مدركة » بأنها لا تعنى أن الأشياء توجد بفضل إدراكنا « نحن » ، إذ قد تدركها روح أخرى حين لا ندركها نحن . فما يقصده « بالإدراك » ليس هنا ذهنا خاصا بعينه ، وإنما « جميع الأذهان على الإطلاق »^(١) ، والذهن الإلهى بوجه خاص ، الذى يدركها فى كل الحالات التى لا ندركها نحن فيها ، وبهذا يظل استمرار وجودها مضمونا . وبهذا المعنى ، أى بمعنى وجود روح متميزة عن تلك التى تدرك الأشياء ، وهى التى تبعث فينا صور تلك الأشياء ، يمكن أن تعد الأشياء « خارجية » ، كذلك يمكن أن تسمى الموضوعات الحسية « مستقلة عن الذهن ، بمعنى أنها موجودة فى ذهن آخر »^(٢) .

ولنتساءل هنا : ما معنى قول باركلى إن الأشياء توجد فى الذهن الإلهى عندما لا تكون مدركة فى أذهاننا البشرية ، وبأية صورة توجد هذه المدركات فى الذهن الإلهى ، وما علاقتها به ؟ هناك احتمالان لا ثالث لهما فى هذا الصدد : فإما أن تكون هذه المدركات مستقلة عن الذهن الإلهى بدوره ، وهذا احتمال لا يعقل من وجهه نظر تفكير باركلى ، إذ أن الاستقلال عن الذهن الإلهى يبرر ، بالأحرى ، الاستقلال عن الذهن البشرى ، وتغدو فكرة الذهن الإلهى فى هذه الحالة إضافة زائدة لا داعى لها . والاحتمال الثانى هو ألا تكون مستقلة عن هذا الذهن ، بل إنه يبعثها بإرادته . ويلاحظ على هذا التفسير الأخير أنه يتعارض ، إلى حد ما ، مع فكرة الإدراك الإلهى المستمر ،

Ibid § 48.

(١)

Ibid § 90

(٢)

الذى يضمن استمرار وجود الأشياء . فإذا كانت هذه الأفكار تنبعث تلقائياً من الذهن الإلهى ، فالأرجح أن يكون إدراكه لها فى هذه الحالة متقطعاً غير مستمر ، وذلك حسب تلقائية الذهن الإلهى ذاته — وهذا يتنافى مع ضرورة الإدراك المستمر ، بل مع الانتظام والاطراد المفروض أن تتصف به قوانين الطبيعة .

ومن جهة أخرى فإن باركلى لم يتحدث مطلقاً عن الطريقة التى ينقل بها الذهن الإلهى هذه المدركات إلى الأذهان الفردية ، ولم يوضح طبيعة العلاقات التى يجب قيامها بين نوعى الذهن حتى يتم الاتصال بينهما ، وترك آلاف الأسئلة معلقة فى هذا الشأن .

ولنلاحظ أن نفس السؤال الذى أدى بديكارت إلى الشك يمكن أن يثار هنا بنفس القوة : فإذا كانت إدراكاتنا صادرة عن الله ، أو راجعة إليه ، فلماذا بعث فينا — أو فى معظم الناس ما عدا باركلى ذاته على الأرجح ! — اعتقاداً بأن هذه الإدراكات صادرة عن أشياء خارجية ، ولماذا « شوه » إدراكنا بحيث جعلنا نجعل أصله الحقيقى — ألا يتنافى هذا مع الصدق « والخيرية » الإلهية ؟ فما هى إذن الصورة التى يدعوننا باركلى إلى الأخذ بها فى صدد مشكلة خارجية العالم ؟ إنها صورة ذهن إلهى شامل ، ينبعث من ذاته صوراً أو إدراكات ، وينقل هذه الصور أو الإدراكات بطريقة لا يذكر عنها باركلى أى شئ ، إلى الأذهان الفردية ، التى لا نعلم إن كانت فى رأى باركلى مشاركة فى الذهن الإلهى أو منفصلة عنه — ويتم هذا النقل حسب قواعد ثابتة هى التى نسميها قوانين الطبيعة . هذه هى الصورة التى يعتقد باركلى أنها أفضل من اعتقادنا الطبيعى بوجود عالم خارجى .

وهكذا نجد باركلى مضطراً إلى افتراض قوة روحية خارجية لتعليل استقلال الظواهر عن إرادتنا ، ومضطراً إلى رسم تلك الصورة الغريبة للمعرفة

البشرية التي تتم عن طريق نقل الذهن الإلهي إلى الذهن البشري لشريط من الصور المتعاقبة بانتظام ، هي التي تكون معرفة الإنسان . والمطلوب منا أن نعد هذا التصوير لمعرفة أدق وأحكم « وأرفع » من التصوير الطبيعي « الساذج » ! ولكن ، هل هناك أكثر سذاجة وبعدا عن الروح العلمية من ذلك التفسير « البدائي » الذي يقول به باركلي ؟ أجل ، إنه تفسير بدائي من غير شك ، وإن يكن مغلفا في إطار معقد من الحجج والبراهين . فما هو في الواقع إلا مظهر من مظاهر الرجوع إلى عهد تفسير الظواهر بالقوى الخفية التي تحتشد في الكون فتسمى الزرع ، وتسقط المطر ، وتحرك الجبال ، وتعرض أمام ذهن الإنسان شريط المعرفة !

والآن ، ما الذي يستطيع الذهن السليم أن يقبله ، وما الذي يتحتم عليه أن يرفضه ، في هذا كله ؟ إن الذهن السليم يقبل حتما قول باركلي بأن الإدراكات الخارجية مستقلة عن الذات لأنها لا تنبعث كلما أرادت الذات ذلك ، بل تحتاج إلى شروط محددة إذا توافرت فسوف ندرك إدراكات خارجية سواء أرادت الذات ذلك أم لم ترد . فلا بد إذن من البحث عن مصدر خارج عن الذات لهذه الإدراكات . ولكن المصدر الذي يقول به باركلي ينبغي أن يُرفض بلا تردد . فهو لم يبرهن على أن الذهن الإلهي يدرك الصور الخارجية ، وإنما اكتفى بأن « قرر » ذلك ، معتمداً على أن أية قضية ترد فيها كلمة « الذهن الإلهي » لن تناقش ، أو لن تمس ! وحتى لو سلمنا بهذا الإدراك الإلهي ، فسيظل للمرء أن يتساءل : ما هي قيمة إدراك الذهن الإلهي لهذه الصور بالنسبة إلّى ، وكيف يؤدي إلى ثبات إدراكى للأشياء كلما توافرت شروط هذا الإدراك ؟ أو ما هي العلاقة الحقيقية بين ذهني وبين الذهن الإلهي ، وعلى أى نحو يستطيع ذلك الذهن الإلهي ، بإدراكه المستمر ، سد الثغرات في إدراكى المتقطع . وأخيراً — وهذا سؤال يستنكره باركلي دون شك كل

الاستنكار ولكن روح البحث الفلسفى تحتمه — إذا كانت هذه الأفكار ترد إلى من روح إلهية ، فمن أين جلبت الروح الإلهية ذاتها هذه الأفكار وما الذى أعطاه إياها ، أو كيف تكونت لديها ؟ إذا كانت مجرد انبثاقات تلقائية ، فهلا يكون هذا الحل أشبه « بالذات الوحيدة الإلهية Divine Solipsism » وهلا يكون فيه مجرد إرجاء لخطر فكرة « الذات الوحيدة » التى تهدد المثالية على الدوام عن طريق نقلها إلى المستوى الإلهى ، والاعتماد على الروح الإيمانية التى لا تجرؤ على مساس هذا المستوى ، والاكتفاء بمثل هذا الحل ، أو بالأحرى ، هذا الهروب من المشكلة ؟

هنا ، وللمرة الثانية ، تظهر فكرة خارجية العالم على أنها هى العقبة التى لا تستطيع المثالية التخلص منها إلا إذا وضعت فروضا ساذجة أو غير متمية إلى مجال التفلسف المنطقى — أو بعبارة أخرى ، فإن المثالية تعجز ، فى حدود التفكير المنطقى وحده ، عن تعليل خارجية العالم .

العالم الخارجى بوصفه مجموعة من الانطباعات عند هيوم :

فى فلسفة هيوم تحليل واضح قوى للتضاد بين « النظرة الطبيعية » والنظرة الفلسفية ، من حيث أن الأولى تؤمن بوجود الأشياء خارج الذات ومستقلة عنها ، أما الثانية فعبرهن على أن هذه الأشياء تترد إلى مجموعة من الانطباعات فحسب . ومما يلفت النظر أن هيوم جعل مصير « النظرة الفلسفية » مرتبطاً بهذه النظرية المثالية فى المعرفة ، ولم يتصور إمكان قيام فلسفة لا تتخذ هذا الطابع المضاد للموقف الطبيعى . « والحق أنه مهما تصور الفلاسفة أن فى وسعهم الإتيان بحجج يبرهنون بها على الاعتقاد بوجود أشياء مستقلة عن الذهن ، فمن الواضح أن هذه الحجج لن تعرفها إلا القلة القليلة ، وليست هذه الحجج هى ما يركز عليه الأطفال والفلاحون والجزء الأكبر من البشر حين ينسبون إلى بعض الانطباعات أشياء [تنتجها] ، وينكرون على بعضها

الآخر وجود هذه الأشياء . وهكذا نجد أن جميع الاستنتاجات التى يكونها العامة فى هذا الصدد مضادة تماماً لتلك التى تؤكدها الفلسفة ، إذ أن الفلسفة تنبئنا بأن كل ما يبدو للذهن ليس إلا إدراكا ، وهو إدراك غير مستمر ، وغير مستقل عن الذهن ، بينما العامة يخلطون بين الإدراكات والأشياء ، وينسبون وجوداً متميزاً مستمراً إلى نفس الأشياء التى يحسون بها أو يرونها . ولما كان هذا الرأى بعيداً تماماً عن العقل ، فلا بد أنه ناتج عن ملكة أخرى غير الفهم»^(١) .

فى هذا النص يفترض هيوم أن آراء الفلاسفة وحججهم هى الأصل فى إيضاح مسألة وجود العالم الخارجى ، وأن الاعتقاد بوجود الأشياء الخارجية مستقلة عن الذهن هو اعتقاد عامى يقول به الأطفال والفلاحون ! فالأصل هنا هو حجج الفلاسفة العقلية ، أما التجربة المباشرة والحكم التلقائى والسلوك العلمى فليست له أية قيمة طالما أنه لا يستند إلى حجج فلسفية . وهنا يُعد موقف هيوم بالفعل تلخيصاً للموقف المثالى بأسره ، إذ يشكك فى تجربة الناس الفعلية فى ميدان ربما كان الحكم الوحيد فيه هو هذه التجربة المباشرة الأصلية ، ويطلب برهاناً على شىء ربما لم يكن فيه مجال للبرهان ، لأنه يسبق كل موقف فكرى أو عملى لنا .

وعلى أية حال فالمشكلة الرئيسية التى يعالجها هيوم — وهو فى صدد بحث موضوع وجود العالم الخارجى — هى مشكلة أصل الاعتقاد بخارجية هذا العالم واستمراره واستقلاله . وهو يفترض أن الاعتقاد باطل لأنه لا يستند إلى العقل ، ولا يناقش ذلك الاحتمال القوى فى ألا يكون هذا الاعتقاد محتاجاً إلى العقل لتأييده ، وفى أن يكون سابقاً على كل حجج منطقية أو براهين استدلالية . أى أن هيوم يفترض مقدماً أن التفكير العقلى إذا لم يؤيد فكرة وجود العالم الخارجى فلن يعود لهذه الفكرة وجود — وهذا افتراض فيه شىء

غير قليل من التعسف ، ولا ينبغي أن يسمح المرء لنفسه بقبوله دون مناقشة .
ومنذ اللحظة التي يقسم فيها هيوم الإدراكات إلى أفكار وانطباعات ،
لا يوجد بينهما إلا فارق في الدرجة أو الشدة ، منذ هذه اللحظة يتخذ هيوم
موقفًا مثاليًا : إذ يتيح له هذا الرأي أن ينسب إليهما طبيعة متشابهة ، وبذلك
ينكر وجود مصدر خارجي للانطباعات .

ويتجلى هذا الموقف المثالي — بالمعنى الذي أوضحناه من قبل لهذه
الكلمة — بكل وضوح حين يتحدث هيوم عن انطباعات الإحساس فيصفها
بأنها « تظهر في النفس أصليًا ، من أسباب غير معروفة »^(١) . أو في قوله « أما
عن تلك الانطباعات التي تنشأ عن الحواس ، ففي رأى أن علتها لا يمكن أن
تفسر مطلقًا عن طريق العقل البشري ، وسيظل دائمًا من المحال أن نقرر على
نحو مؤكد إن كانت تنشأ عن الموضوع مباشرة ، أو تنتجها القوة الخلاقة
للذهن ، أو تستمد من خالق وجودنا . على أن هذا الموضوع ليست له أهمية
على الإطلاق في هذا المقام . ففي إمكاننا أن نستخلص استدلالات من ترابط
إدراكاتنا الحسية لتبين إن كانت صحيحة أو باطلة ، وإن كانت تمثل الطبيعة
تمثيلًا صحيحًا ، أو أنها مجرد خداع للحواس »^(٢) . وهكذا يعلن هيوم في
مستهل كتابه عجزه عن تفسير كيفية ظهور انطباعات الإحساس وأصلها ،
ويقول ما معناه : « سأقدم إليكم في هذا الكتاب صورة للعالم مخالفة لصورته
التي يكوّنها الإنسان في موقفه الطبيعي . ولكنني أعلن لكم منذ البداية أنني
لا أستطيع ، في ضوء هذه الصورة ، تحليل أصل انطباعات الإحساس وكيفية
ظهورها » . أليس للمرء كل الحق في أن يشك مقدمًا في قيمة أى بحث في
المعرفة يبنى على أساس أن الإحساس يظهر في النفس من أسباب غير معروفة ،

Ibid. P.7.

(١)

Ibid. P, 8.4

(٢)

في الوقت الذي يعترف فيه التجريبيون أنفسهم بأن المصدر الرئيسى لمعرفةنا هو التجربة الحسية ؟

ولقد استفاد هيوم من التطورات الفلسفية السابقة عليه ، والتي توطدت فيها الفكرة القائلة إن الموضوع الذى يمثل للذهن هو « الإدراكات Perceptions » ولم يكن عليه إلا أن يستخلص ما اعتقد أنه نتيجة ضرورية لهذه الفكرة : فليس فى وسعنا أن نتصور أى شئ يتجاوز الأفكار والانطباعات لأن الذهن لا يحضر أمامه شئ سوى إدراكاته وانطباعاته وأفكاره . « ومهما كانت درجة تركيزنا لانتباهنا خارج أنفسنا ، ومهما تعقبنا خيالنا إلى السماوات أو إلى أقصى أطراف الكون ، فلن نتقدم بالفعل خطوة واحدة خارج أنفسنا ، ولن نستطيع أن ندرك أى نوع من الوجود سوى الإدراكات التى بدت فى هذا النطاق الضيق » (١) .

وهكذا ، فبينما يعتقد الإنسان فى موقفه الطبيعى أنه يدرك أشياء خارجية مستقلة ، يؤكد له هيوم أنه لا يدرك إلا انطباعات وأفكار ماثلة للذهن ، وأن هذه هى الموضوع الوحيد لمعرفةنا . وهنا نرى لزماً علينا أن نثير عدداً من الأسئلة قبل أن نستمر فى عرض حجج هيوم فى هذه المسألة :

١ — لماذا استخدم هيوم تعبير « القصر Restriction » الذى كان يقول فيه « إننا لا ندرك إلا » ؟ إن هذا التعبير معناه أن هيوم يجعل لإدراكنا موضوعات أضيق نطاقاً مما يظن الإنسان فى موقفه الطبيعى ، والدليل على ذلك قوله فى النص السابق إننا لا ندرك سوى ما يبدو « فى هذا النطاق الضيق » . ولكن المسألة فى حقيقتها ليست مسألة اختلاف فى نطاق الإدراك ، وإنما فى تفسير طبيعته . فالإدراك يظل كما هو على الدوام ، ولا يطرأ عليه أى نقص أو تحديد نتيجة لآراء هيوم ، وكل ما تؤدى إليه هذه الآراء هو تفسير مخالف

لطبيعة هذا الإدراك ، لا تحديد لنطاقه .

٢ — يؤكد هيوم أننا لن نتقدم ، مهما فعلنا ، خطوة واحدة خارج « أنفسنا » . فهل فكر لحظة واحدة في معنى كلمة « خارج أنفسنا » هذه ؟ أولا : ما هو المقصود بكلمة « أنفسنا » في هذه الحالة ؟ هل يقصد الحيز المكاني الذي يشغله الشخص بوصفه كائنا ماديا له مكان ؟ ألن يكون في هذا المعنى تناقض واضح ؟ أم يقصد « أنفسنا » من حيث أننا أذهان ذات وجه غير مادي ؟ وفي هذه الحالة هل يكون للفظي « خارج » أو « داخل » أى معنى ؟ وأخيرا ، فإن هيوم يؤكد أن كل إدراكاتنا توجد « داخل » أنفسنا لا خارجها ، فهل يمكن أن يعقل وجود « داخل » دون « خارج » ، وهل يمكن أن يفهم معنى أحد هذين المتضايين دون الآخر ، وإذا كان كل شيء داخل الذات ، فهل يعود لكلمة « داخل » معنى إذا كانت تنطبق على كل شيء ؟

٣ — هناك نوع من الإدراكات تبعته الذات تلقائيا من داخلها كلما أرادت ذلك ، كالتخيلات بأنواعها . فما الذى يفرق بين هذا النوع وبين تلك الإدراكات التى ننسبها عادة إلى موجود خارجي ، أى الانطباعات الحسية ؟ إن هيوم ، كما قلنا ، يعترف بعجزه عن تفسير أصل الانطباعات الحسية ، ولكنه يرى فى الوقت ذاته أن مسألة الأصل هذه ليست بذات أهمية كبرى ، لأن ترابط الإدراكات الحسية يكفى وحده لكى يجعلنا نستخلص النتائج اللازمة فى أبحاثنا ، بغض النظر عن صحة هذه الإدراكات أو بطلانها . ومعنى ذلك أن مسألة صحة المدركات أو بطلانها ستكون معلقة ، ولا بد أن تظل كذلك طالما كان هذا هو المنهج المتبع . وإن المرء ليستشف من وراء القول بعدم أهمية التمييز بين الصحة والبطلان بالنسبة إلى أغراض البحث ، اعترافا ضمنيا باستحالة تقديم معيار لهذا التمييز فى حدود المنهج المتبع .

في ضوء كل هذه المقدمات يخوض هيوم مسألة تعليل الاعتقاد «الطبيعي» بوجود أشياء خارجية لها وجود «مستمر» و «متميز» عن وجود الذهن — وهو اعتقاد يراه باطلا من أساسه ، إذ أن ما نظن أنه وجود خارجي لا يمكن أن يختلف في النوع عن إدراكاتنا . فهيوم يبدأ بفترض أن «الانطباع» هو الحقيقة الأساسية ، ولما كان الانطباع متوقفا على الذات ومقترنا بممارستها ملكاتها الواعية ، فإنه يتساءل بعد ذلك : كيف نشأ لدينا الاعتقاد بوجود حقيقة أخرى من وراء هذا الانطباع ، ومسببة له ، هي حقيقة «الأشياء» الخارجية ، التي نفترض أنها مستمرة في الوجود ومستقلة عن الذات ؟ هذا الاعتقاد لا يمكن أن ينشأ عن الحواس ، لأن الحواس تنقل إلينا إدراكا واحدا هو الانطباع ، ولا بد للاستدلال على ما وراء هذا الانطباع من تجاوز الحواس عن طريق العقل أو الخيلة . فالحواس تقتصر على ما هو «معطى» ، ولا تستطيع أن تقوم بالمقارنة اللازمة للاستدلال على استمرار وجود هذا المعطى أو استقلاله عن الذات .

كذلك لا يمكن أن يكون أساس هذا الاعتقاد هو العقل : لأن عمل العقل ينحصر في الإتيان بحجج منطقية أو فلسفية . وحتى لو استطاع العقل ذلك ، فسيظل الاقتناع بهذه الحجج مقتصرًا على فئة قليلة من الناس ، فكيف إذن نعلل شيوع هذا الاعتقاد لدى جمهرة الناس دون قيامه لديهم على أى أساس فلسفى ؟

لا بد إذن أن يكون هذا الاعتقاد قائما على تدخل «الخيلة» . ولا بد أن بعض الانطباعات يتميز بصفات خاصة تميز بالخيالة على النحو الذى يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن لها وجودا مستمرا ومستقلا . فما هي هذه الصفات ؟ إنها ليست صفة كونها غير إرادية ، أو كونها شديدة القوة والحياة : لأن الانفعالات والآلام قد تتوافر فيها هذه الصفات ، دون أن نعتقد أنها

خارجية^(١) .

وهكذا يحدد هيوم تلك الصفة التي تتميز بها انطباعاتنا المنسوبة إلى أشياء خارجية بأنها صفة « الدوام Constancy » ، والانتظام والإحكام . فهذه الانطباعات تعود باستمرار بعد انعدام إدراكها وقتاً ما ، وإذا تغيرت كان تغيرها هذا منتظماً وخاضعاً لقواعد محكمة .

والذي يحدث أننا نستدل ، بفضل تعودنا على تكرار انتظام ظهور هذه الانطباعات ، على وجود أشياء ثابتة من ورائها ، بحيث أنه إذا انقطع إدراكنا فيظل هناك شيء لا ندركه يجمع بينها . وعلى حين أن هذه الإدراكات في الأصل منفصلة — إذ تفصل بينها لحظات عدم إدراكنا لهذه الموضوعات — فإن تشابه الترتيب الذي يظهر به إدراكنا لها في كل حالة يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن ما أدركناه في كل الحالات شيء واحد . فنحن نخفي انقطاع الإدراكات ، أو نقضى عليه تماماً ، إذ نفترض أن هناك وجوداً واحداً حقيقياً يجمع بين الإدراكات المتقطعة . « فذاكرتنا تقدم إلينا عدداً كبيراً من أمثلة الإدراكات التي يشبه كل منها الآخر ، والتي تعود في فترات زمنية مختلفة ، بعد شيء من الانقطاع . وهذا التشابه يخلق لدينا ميلاً إلى النظر إلى هذه الإدراكات المتقطعة على أنها متماثلة ، وكذلك ميلاً إلى الربط بينها عن طريق وجود مستمر ، لكي نبرر هذه الهوية ، ونتجنب التناقض الذي يبدو أن الظهور المتقطع لهذه الإدراكات يؤدي بنا إليه ضرورة »^(٢) .

ولست أملك هنا إلا أن أوجه اعتراضاً له صبغة « ساذجة » إلى حد ما

(١) يلاحظ على رأي هيوم هذا أن معنى « اللاإرادية » في حالة الانفعالات أو اللذة والألم يختلف عنه في حالة الإدراكات الخارجية ، وأن هذه المشاعر لا يمكن أن تسمى داخلية خالصة ، بل لا بد أن يثيرها « موضوع » ما ، حاضر أو متذكر .

ولكن لا مفر منه طالما أنه يوجد بنفس الروح « الساذجة » التى يتصف بها الموقف الطبيعى . فكيف تتم عملية « التوحيد » أو « القضاء على انقطاع الانطباعات » هذه ؟ أهى عملية واعية ؟ أعنى ، هل تأتى على الإنسان ، من حيث هو فرد أو نوع ، مرحلة يعتقد فيها أن إدراكاته متقطعة ، ثم يرغب فى تجنب النتائج الضارة التى يلحقها به هذا الاعتقاد ، « فيقرر » أن يصنع أو يتخيل شيئاً يوحدها ؟ إن هيوم لا يستطيع ، بطبيعة الحال ؛ أن يجيب بالإيجاب ، إذ سيكون عليه فى هذه الحالة أن يحدد لنا زمان ومكان تلك المرحلة التى لم يسمع أحد عنها شيئاً . وإذن فهل هذه عملية غير واعية ؟ وهل هى تتم تلقائياً فى الإنسان بحيث لا يشعر فى أى وقت بأنه كانت هناك إدراكات متقطعة ثم « وحدها » ؟ إن كان الأمر كذلك فما قيمة تنبيه هيوم إلى ذلك الأصل « المتقطع » الذى يرفضه الإنسان حتماً فى جميع أحواله ؟

ولنتحدث فى هذا الموضوع من الناحية العملية : ففى موقفنا الطبيعى نعامل الكرسي الموجود فى الحجرة ، إذا أدركناه بانطباعين يفصل بينهما وقت ما ، على أنه كرسي ، لا على أنه انطباعان مختلفان . ومن المحال أن نتصرف فى موقفنا الطبيعى على نحو مخالف : ولنتصور النتائج العملية التى تحدث لو نظر الإنسان إلى بيته فى كل مرة يدركه فيها على أنه بيت مخالف ، أو إلى أهله وأصدقائه على أنهم « إدراكات جديدة » ، إلخ ... هنا تصبح حياة الإنسان ، بطبيعة الحال ، مستحيلة . وقد اعترف هيوم ذاته بهذه الاستحالة ، ولكنه أراد أن يضع حدًا فاصلاً بين موقفنا العملى وما ينبغى أن يكون عليه فهمنا للأمر . ولنتساءل هنا : إلى أى مجال ينتمى إدراكنا للكرسي ، والبيوت ، والأشجار ، وهى الأمثلة التى ظل هيوم يستخدمها فى كتاباته على الدوام ؟ إلى مجال الموقف الطبيعى بلا شك . فعندما نكون بصدد إدراك شجرة مثلاً ، لا تكون مهمتنا هنا هى تحليلها علمياً ، وإنما إدراكها بحواسنا المعتادة لكى نعرف كيف

نتصرف عملياً إزاءها . ومع ذلك فإن هيوم يعترض ، في مجال الموقف الطبيعي ، على طريقة إدراك الإنسان في هذا المجال ، ويحاول تعليل ما يراه فيها من أخطاء بأنه راجع إلى الرغبة في تجنب التناقض الذى يحدث لو عاجلنا كل إدراك في هذا المجال على أنه منفصل ، أو بعبارة أخرى ، فهو يحاول تعليل ما يعتقد أنه « خطأ فلسفى » في الموقف الطبيعي . ولكن ، ما قيمة هذا الاعتراض إذا كان تأصل هذا الموقف فينا أقوى وأسبق من أى تفلسف ، وإذا كانت مجرد حياتنا مستحيلة إن لم نعامل المدركات الخارجية على أنها « أشياء » ؟ إن المسألة هنا ، كما ذكرنا من قبل ، منفصلة تماماً عن مسألة كون هذا الاعتقاد صحيحاً أو غير صحيح من وجهة نظر العلم ، وإنما هي مسألة مجال مختلف تماماً عن مجال الصواب والخطأ : مجال التصرف العملى اليومي ، الذى يستحيل أن يتصرف فيه المرء إلا على أساس فكرة « الأشياء » ، بغض النظر تماماً عما قد يكون عليه حكم العلم أو المنطق على هذه الفكرة .

ولا شك أن الفكرة الجديدة التى أتى بها هيوم في هذا الموضوع — وهى فكرة تأثر فيها إلى حد بعيد باتجاهات الفلاسفة المحدثين السابقين عليه ، ولا سيما باركلي — هى فكرة رفض الازدواج بين المدركات والأشياء . فالاعتقاد الشائع بأن هناك أشياء « تسبب » مدركاتنا هو اعتقاد متوارث من أوهام قديمة ، وطالما أن الحقيقة التى نستطيع أن نكون على ثقة من حضورها المباشر هى المدركات ، فلا معنى إذن للقول بوجود حقيقة أخرى من ورائها تكون « سبباً » لها .

ولكن ، إذا كان خطأ الفلاسفات القديمة في نظر هيوم هو تصور وجود أشياء مجسمة تسبب الانطباعات ، فخطأ هيوم ، الذى يزيد على ذلك خطورة ، هو « تجسيم » الإدراك وجعله حقيقة قائمة بذاتها . ففى كتاباته يشعر المرء على الدوام بأن الانطباع له « وجود » وأن الإدراك له « كيان » خاص . ولكن

التحليل السليم للإدراك يدل على أنه « عملية » فحسب ، أو تعبير عن العلاقة بين الذات وبين موضوع . وهو ظاهرة تحدث كلما تقابلت هاتان الحقيقتان سوياً ، فيكون حدوثه مجرد مظهر لتقابلهما — أما في ذاته فليس له كيان . وإذن فمن الممكن القضاء على الازدواج بين الشيء وبين إدراكه ، ولكن باتباع الطريق الأسلم ، وهو إنكار وجود حقيقة مستقلة أو قائمة بذاتها للإدراك ، بدلا من اتباع طريق هيوم الذى يوحى بوجود حقيقة مستقلة اسمها الانطباع ، لا نستطيع أن نعرف أصلها ، ولكن لا يجوز لنا محاولة تجاوزها إلى أية حقيقة أخرى وراءها . فالانطباع ليس واسطة للإدراك ، تحجب موضوعات هذا الإدراك أو تحمل محلها ، وإنما هو مجرد اسم لدخول الذات في علاقة مع هذه الموضوعات ، وليس له دون هذه الموضوعات ذاتها أى كيان قائم بذاته .

والسؤال الذى يحسم الخلاف بشأن طبيعة الانطباع هو : هل تستطيع الحواس أن تأتى بشيء من عندها ؟ وهل لديها القدرة على أن تدفع ذاتها إلى العمل ؟ إن الرد — طبعاً — بالنفى ، على الأقل فى أغلبية الأحيان (وإن كان هيوم يتجنب البحث فى أصل انطباعات الحس منذ البداية) . فإذا لم تكن تأتى بشيء عندها ، أو تدفع ذاتها إلى العمل ، فلا بد أن دور إدراكها هو مجرد التعبير عن حدوث تقابل بين ذات وموضوع . إن هيوم يؤكد أنه « ليس ثمت موجودات حاضرة أمام الذهن إلا الإدراكات » ولكن ما معنى هذا الحضور أمام الذهن ؟ هل الذهن يدركها سلبياً ، أم أنه هو الذى يبعثها ؟ إن الرد على هذا السؤال أساسى ، وما كان يحق لهيوم أن يراوغ فى الإجابة عنه مطلقاً ، لأن الفارق بين سلبية الذهن وإيجابيته فى إدراكه للانطباعات هو الذى يحسم مشكلة طبيعة الموضوع الذى أثارها ، بل هو الذى يحدد ما إذا كان هذا الموضوع موجوداً أم غير موجود .

والواقع أن تفكير أرسطو ، في هذه المسألة بالتحديد ، يبدو أكثر استنارة إلى حد بعيد من تفكير هيوم : فملكة الإحساس في رأى أرسطو توجد « بالقوة » ، ولا تنتقل إلى الفعل إلا عند ظهور الموضوع الخارجى . « فمن الجلى أن ما هو حاس هو كذلك بالقوة فحسب ، لا بالفعل . فقوة الإحساس أشبه بالشئ القابل للاشتعال ، إذ أن هذا الشئ لا يشتعل بذاته قط ، وإنما يحتاج إلى فاعل قادر على البدء بالإشعال ، وإلا لأشعل ذاته ، ولما احتاج إلى نار فعلية لإيقاده »^(١) . ولو كان هيوم قد تأمل جيداً فكرة وجود الإحساس وبالتالى الانطباع ، بالقوة ، لما حاول أن يجعل للانطباع كيانا يغنى عن الموضوع ، إذ أن فكرة أرسطو ذاتها لا تنطوى على القول بازدواج بين الانطباع والشئ، بل تجعل الانطباع إمكانية كامنة يحققها ظهور الشئ ، ولا تكون هى ذاتها إلا تعبيراً عن هذا الظهور .

العالم الخارجى بوصفه ظاهرة عند كانت :

الأشياء الخارجية تتميز ، قبل كل شئ ، بأنها أشياء توجد فى المكان . والمكان عند كانت صورة للحدس ، أى صورة ذاتية تجعل التجربة الحسية ممكنة . وإذن فخارجية الأشياء ترجع إلى نشاط الذات حين تضيف على الأشياء هذه الصورة الخارجية . « فعن طريق الحاسة الخارجية ، وهى صفة لذهننا ، نمثل لأنفسنا الأشياء على أنها خارجة عنا ، وموجودة كلها بلا استثناء فى المكان »^(٢) .

هذه هى نقطة بداية بحث كانت فى مشكلة العالم الخارجى ، وهى نقطة بداية تنطوى فى ذاتها على كل النتائج المثالية ، رغم ما سنراه من تأرجح موقف

كانت بين قبول المثالية في صورتها المتطرفة وبين القول بنوع مخفف من المثالية « اللا أدرية ». ومنذ هذه اللحظة الأولى ، يقرر كانت معارضة الموقف الطبيعي ، إذ يجعل خارجية الأشياء راجعة إلى « صفة لذهننا » . ومنذ هذه اللحظة أيضاً ، يستخدم كانت اللغة المثالية بلا تحفظ ، وبكل ما فيها من افتقار إلى التحديد . فما معنى كوننا « نمثل لأنفسنا الأشياء على أنها خارجة عنا » ؟ لتساءل مرة أخرى — كما قلنا ونحن في صدد شرح نظرية هيوم — : هل هذه العملية واعية مقصودة لدى الإنسان ؟ أى هل كانت للأشياء طبيعة أخرى ثم « مثلناها لأنفسنا » على نحو مخالف ؟ أم أنها عملية تحدث تلقائياً ودون وعى منا ؟ وإذا كانت كذلك ، فعلى أى أساس عرف بها كانت ؟ وعلى أى أساس عرف أن طبيعتنا غيرت الأشياء ومثلتها على أنها خارجة عنا ؟ ثم : ما هو المقصود بكلمة « نحن » في هذه الحالة ؟ هل المقصود منها « نحن » بوصفنا أذهانا فردية ، أم أذهانا جماعية ، أم أجساما ، أم مجرد نوع إنسانى ؟ وإذا كان يبدو أن المعنى الأخير هو الأقرب إلى قصد كانت — الذى يتحدث كثيراً عن « طريقتنا في الإدراك » — فهلا يوجد لدى الحيوان إحساس مكافئ ؟ وإن كان مثل هذا الإحساس موجوداً لديه ، فبأى معنى إذن ننسب المكان إلى « التركيب الذاتى لذهننا » ؟

وهكذا تظهر جميع صعوبات المثالية في ذلك النص الذى يستهل به كانت الفصل الخاص « بالحساسية الترنسندنتالية » من كتاب « نقد العقل الخالص » ، وتحدد معالم الموقف المثالى بوضوح منذ أن يقلب كانت العلاقة المألوفة بين فكرة المكان والتجربة الخارجية : فنحن نعتقد ، في موقفنا الطبيعي ، أن تجربتنا للأشياء الخارجية هى التى توحى إلينا بفكرة المكان ، وأنا نرى الأشياء فى الداخل وفى الخارج ، وفوق وتحت ، وعلى اليمين واليسار ، فنستنتج من كل هذا ، وبالتجريد ، فكرة « المكان » بوجه عام . أما كانت

فيرفض هذا الأصل التجريبي لفكرة المكان ، إذ أن فكرة الخارجية ذاتها ، وكذلك فكرة التجاور واليمين واليسار ، إلخ ... كل هذه تفترض مقدما تصور المكان — وإذن فليست فكرة المكان مستمدة من التجربة الخارجية ، بل إن التجربة الخارجية لا تصبح ممكنة إلا بفضل فكرة المكان .

وقد يكون رأى كآئت هذا صحيحًا بالنسبة إلى المرحلة الحالية لتفكير الإنسان المتمدين الناضج ، ولكن أية نظرة إلى هذه المشكلة من الزاوية التاريخية — التى أهملها كآئت فى كتاباته إهمالا تاما — تجعلنا نقنع ، دون تفكير طويل ، بأن معنى المكان ، فى الأدوار « التكوينية » للإنسان ، لا بد أن يكون قد استمد بالتجريد من علاقات الأشياء الخارجية . فليس صحيحًا أن الإنسانية قد كونت فكرة المكان أولا ، أو اهتدت إليها فى ذاتها بوصفها جزءًا من تركيبها الباطن ، ثم استمدت منها معنى الخارجية على أساس أنها ما يكون فى مكان مغاير ، بل يحدث عكس ذلك : إذ يبدأ الإنسان بالمرور « بالتجارب المكانية » — كالقرب والبعد واليمين واليسار — أولا ، ومنها يستخلص فكرة المكان بالتجريد . وليس من المستبعد أو من المستحيل مطلقًا أن نتصور إنسانا ، أو مجتمعًا كاملا ، يستخدم المعانى المكانية ، دون أن تكون لديه فكرة عن هذا التصور المجرد ، أى المكان . ولكن هذه بطبيعة الحال طريقة فى التفكير تقتضى النظر إلى الأمور من الزاوية التاريخية والاجتماعية التى لم يقم لها كآئت أى وزن .

وهكذا يؤدى رأى كآئت فى طبيعة المكان ، بوصفه صورة للحساسية وشرطا ذاتيًا لإمكان التجربة — تؤدى هذه الفكرة ذاتها إلى فكرة « ظاهرية » العالم الخارجى مباشرة : « فلا شئ ، مما يدرك بالحدس فى المكان هو شئ فى ذاته ، وليس المكان صورة كامنة فى الأشياء ذاتها بوصفه صفة متأصلة فيها ، ولا سبيل لنا مطلقا إلى معرفة الأشياء فى ذاتها ، وليس ما نسميه بالأشياء

الخارجية إلا مجرد تمثيلات لحساسيتنا ، التى يكون المكان صورتها «^(١) .
وكما أدى بحث « صورة الحدس » إلى هذه النتيجة ، فكذلك يؤدى إليها
استنباط التصورات الخالصة للذهن ، ولا سيما « الاستنباط » كما ورد فى
الطبعة الأولى « لنقد العقل الخالص » . فالاستنباط يؤدى بكأنت إلى القول
بأننا « نحن أنفسنا الذين نبعث فى المظاهر ذلك الترتيب والنظام الذى نسميه
« بالطبيعة » . وما كان فى وسعنا أن نجد ذلك الترتيب والنظام فى المظاهر ،
ما لم نكن نحن أنفسنا ، أو طبيعة ذهننا ، نبعثها أصلا ... »^(٢) . ومرة
أخرى ، يستخدم كأنت كلمة « نحن » دون تحديد لمعناها بأى قدر من
الدقة . ويتحدث عن « المظاهر » التى « نبعث فيها » النظام والترتيب ،
وكان هذه عملية ترتيب واعية تقوم بها على مادة لم يكن لها فى الأصل مثل هذا
الترتيب . وكما كانت الطبيعة فى نظر باركلى تعبيراً عن الإرادة الإلهية ، فإنها فى
نظر كأنت تعبير عن ذلك النوع الخاص من التنظيم الذى يبعثه الذهن الإنسانى
فى الظواهر . وهى فى الحالتين غير تلك « الطبيعة » التى نعرفها فى موقفنا
الطبيعى ، والتى لا يكون الإنسان إلا جزءاً منها ، ولا يكون للذهن دور إلا فى
فهم قوانينها ، لا فى خلقها .

وإذن ، فمن الواضح أن كأنت ، فى قوله بتحكم الذات (بما فيها من صور
للحساسية وصور أو مقولات للذهن) فى تشكيل الموضوع وجعله
« ظاهرة » بالنسبة إلينا ، كان مثالياً بالمعنى الصحيح . ولكن من الواضح ،
من جهة أخرى ، أن كأنت لم يعترف بهذه المثالية ، أو على الأقل حاول تخفيفها
بأن أسماها بالمثالية الترنسندنتالية ، أو المثالية « الاحتمالية » ، التى تختلف ، فى

Ibid. 45 B.

(١)

Ibid. 125 A.

(٢)

نظره ، عن المثالية التوكيدية أو المادية وتقل عنها حدة بكثير . ومهمتنا الآن هي أن نناقش هذه الدعوى التي قال بها كانت ، ونجيب على السؤال الآتي : هل تختلف مثالية كانت عن أى مذهب مثالى آخر فى خروجها على الموقف الطبيعى أو رفضها له ؟

يعرف كانت المثالية الترنسندنتالية بأنها « المذهب القائل إن المظاهر كلها لا ينبغي أن ينظر إليها إلا على أنها تمثلات ، لأشياء فى ذاتها ، وأن المكان والزمان ليسا إلا الصور الحسية للحدس ، لا تحديدات معطاة بوصفها موجودة بذاتها ، ولا شروطاً للموضوعات منظوراً إليها على أنها أشياء فى ذاتها »^(١) ووجه التفرقة بين المذهب المثالى التوكيدى ومثالية كانت الترنسندنتالية هو أن القائل بهذا المذهب الأخير قد يكون أيضاً من القائلين « بالنشائية » ، أى من المعترفين بوجود « مادة » خارجية ، ولكنه يظل على الدوام غير موقن بطبيعة هذه المادة من حيث هى « شئ فى ذاته » ، مؤكداً أن ما نعرفه منها هو ما تضيفه عليها الذات من صور الحساسية والمقولات ، أى أنها تعرف بوصفها « ظاهرة » فحسب . وسبب الاقتصار على فكرة الظاهرة هذه ، كما يشرحه كانت ، هو أننا لا أعرف مباشرة إلا إدراكات — وهى مقدمة كان تأثير هيوم وباركلى فيها واضحاً كل الوضوح ، وتعرض لجميع الانتقادات التى سبق أن وجهناها إلى هذين الفيلسوفين — فإذا حاولت أن أستدل من هذه الإدراكات على « سببها » ، فلن أستطيع الوصول أبداً إلى أى يقين ، لأن مثل هذا المعلول قد يكون له أكثر من علة ، أى قد تكون علة جسمانياً أو ذات داخلية . وهكذا أظل على الدوام غير متأكد إن كان « ما يسمى بالإدراكات الخارجية مجرد ناتج عن الحس الباطن أم أن علاقتها بالموضوعات الخارجية الفعلية هى علاقة علة بمعلول »^(٢) . ولهذا كان يتحتم على أن أكتفى بما هو مؤكد ، أى

بإدراكاتي وقوالي الذاتية التي تنظمها ، وأن أسمى الأشياء الخارجية ظواهر أو تمثلات تنتمي إلى الحس الخارجى ، أما أصل هذه التمثلات فلا يمكن معرفته إلا باستدلال يظل دائماً غير مؤكد ، وإن كان من واجبي دائماً ألا أستبعد كون هذا الأصل « شيئاً فى ذاته » ، لا أعرف عنه شيئاً .

ويزيد كآئت فكرته هذه إيضاحاً فى « المدخل إلى كل ميتافيزيقا » ، فيفرق بين مذهبه وبين المثالية على أساس أن الأخيرة تقول بأنه لا وجود إلا للموجودات المفكرية ، وأنه لا شىء فى الخارج يطابق ما نعتقد أنه موجودات خارجية : « أما أنا فأقول بعكس ذلك : فهناك أشياء معطاة لنا ، هى موضوعات لحواسنا وخارجة عنا ، غير أننا لا نعلم شيئاً عما يمكن أن تكونه فى ذاتها ، ولا نعلم منها إلا الظواهر ، أى التمثلات التى تنتجها فينا بتأثيرها فى حواسنا . فأننا إذن أعترف بأن خارجنا أجساماً ، أى أشياء ، هى بالفعل مجهولة لدينا تماماً من حيث ما قد تكونه فى ذاتها ، ولكننا نعرفها بالتمثلات التى تتكون لدينا نتيجة لتأثيرها فى حساسيتنا ، وهى أشياء نسميها بالأجسام ، وهى تسمية لا نعنى بها إلا أنها ظاهرة لذلك الموضوع الذى هو مجهول لدينا ، ولكنه مع ذلك حقيقى . أو يمكن تسمية هذا المذهب بالمثالية ؟ إنه فى الحق عكسها »^(١) .

على هذا النحو حاول كآئت أن يفرق بين مذهبه وبين المثالية المعتادة أو التوكيدية ، بل حاول أن يدفع عن مذهبه أصلاً تهمة المثالية ، كما نرى فى هذا النص . ولنتساءل هنا : أى فارق هناك بين إنكار وجود الموضوعات الخارجية ، والقول إنها موجودة ولكنها غير معروفة لنا على حقيقتها ؟ أو بعبارة أخرى ، أى فارق هناك بين القول إن ما نسميه بالموضوعات الخارجية راجع إلى الذات المفكرة ، وبين القول إن « ما نعرفه » عن هذه الموضوعات راجع إلى صورنا وقوالبنا الذاتية ؟ إن هذين الموقفين ، اللذين علق كآئت أهمية كبرى

على الفارق بينهما ، ليس بينهما فى واقع الأمر أى اختلاف جدى . ففى الحالتين ، تغلب فاعلية الذات على الموضوع الخارجى ، أى أن الذهن إما أن « يخلق » هذا الموضوع أو « يشكله » — وليس هذا بالفارق الخطير ، لأن الموقفين معاً مضادان تماماً للموقف الطبيعى . فالذهن فى نظر الموقف الطبيعى يفهم أو يدرك الموضوعات التى تحتفظ باستقلالها عنه ، أما فى نظر كانت فهو العنصر الأساسى فى إعطاء هذه الأشياء صورتها التى ندركها عليها . فإذا أدركنا أن العنصر الذى نعرفه من الأشياء هو العنصر الذى يهمنى فيها ، وإذا أدركنا أن هذا العنصر ، فى نظر كانت ، ذاتى ، لتبين لنا إلى أى حد يكون الاختلاف بين مثاليته « الاحتمالية » وبين المثالية التقليدية اختلافاً لفظياً . إن كانت يؤكد أن الأشياء موجودة خارجنا ، ويضيف إلى ذلك قوله : ولكننا لا نعرف عنها إلا ما وضعناه نحن — بوصفنا ذوات — فيها . أى أن الوجه المعروف للأشياء ذاتى ، وقد يكون لها وجه موضوعى ولكنه مجهول تماماً . وهنا نجد أن أهمية ذلك الوجه الموضوعى تتضاءل إلى حد لا يعود معه إلا تكملة فكرية للبناء المذهبى فحسب . فما قيمة ذلك الشيء الذى نقول عنه إنه موجود ، إن كنا لا نعرف عنه أى شيء ؟ إنه « كيان عقلى noumène » يفترضه الذهن بالاستدلال ، ولكن جهلنا التام به يجعله فى حكم المنعدم . وعلى أية حال فإن المثالية التوكيدية حين أكدت أن الأشياء ، من حيث هى أشياء فى ذاتها ، لا وجود لها خارج الفكر ، قد مهدت الطريق لخطوة كانت التالية ، والقائلة إن الأشياء ، بوصفها ظواهر ، توجد فى المكان ، الذى هو « صورة الحاسة الخارجية » . والعلاقة الحقيقية بين كانت وبين المثالية هى علاقة اختلاف فى اللغة المستخدمة فحسب ، لا علاقة اختلاف أساسى فى المذهب . أما ذلك الاختلاف اللغوى الذى نتحدث عنه ، فينحصر فى أن كانت قد أكدت أن الأشياء توجد بالفعل خارجنا ، بمعنى أنها توجد فى المكان — وإلى هذا

الحد يبدو رأيه مضادا تماما للمثالية التوكيدية — ولكنه أكد في الوقت ذاته أن فكرة المكان نفسها ذاتية ، وأن « الحس الخارجى » هو الذى يضى على الأشياء هذا « الوجود فى المكان » — وهنا تعود المثالية إلى الظهور من خلال هذه اللغة الجديدة التى استخدمها كانت ، لغة المكان بوصفه « صورة ذاتية للحس الخارجى » ، والموضوعات بوصفها « ظواهر » ، لا أشياء فى ذاتها .

ولو بحثنا عن الأصل الأول لهذه اللغة الجديدة التى استخدمها كانت ، لوجدنا أنه الرأى القائل باستحالة الاستدلال من الإدراكات على الموضوع المسبب لها استدلالا مؤكدا ، وباحتمال كون هذه العلة داخلية ، لا خارجية . فنتيجة لهذا الرأى ، وصل كانت إلى فكرة الموضوعات الخارجية بوصفها ظواهر ، واستبعد تماما كل نظرة إليها على أنها أشياء فى ذاتها . ولكن ، هل يجوز أن يطوف بالذهن مثل هذا الشك ، أو يخطر له مثل هذا الاحتمال ؟ إن كانت يصور الأمر كما لو كانت الذات تنسب بعض إدراكاتها إلى الحس الخارجى والبعض الآخر إلى الحس الباطن ، ولكن كيف يحدث هذا ، وما الذى يدفع الذات إلى هذا التقسيم ؟ أهو تقسيم اعتباطى ، أم أن هناك شيئا فى طبيعة فئة من « الإدراكات » هو الذى يدفع الذات إلى أن تعدها « خارجية » ؟ ومن أين أتت لدينا صورة المكان ، وفكرة الخارجية ، التى ننسبها إلى الأشياء ؟ إن كانت ليعجز تماما عن الإجابة على هذا السؤال : فهو حين يتساءل « كيف يكون من الممكن ، فى ذات مفكرة ، وجود حدس خارجى ، أى حدس للمكان بما تشغله من أشكال وحركات ؟ » يجيب بقوله إن « هذا سؤال لا يتسنى لأحد أن يجيب عنه . فلك الثغرة فى معرفتنا لا يمكن ملؤها بأية حال ؛ وكل ما يمكن عمله هو أن نشير إلى هذه الثغرة بأن ننسب المظاهر الخارجية إلى ذلك الموضوع الترنسندنتالى الذى هو سبب هذا النوع من المظاهر ، والذى

لا نعرف عنه ، مع ذلك ، أى شئ ، ولن يكون لدينا أبدا أى تصور عنه ^(١) .

وهكذا يعترف كائن بعجزه عن تفسير تلك التفرقة التي تقوم بها الذات للتمثلات إلى فئتين تنتمي إحداهما إلى الحس الخارجى والأخرى إلى الحس الباطن ، ويعترف بعجزه عن تفسير أصل ذلك الحدس الخارجى ، بما فيه من مكان . وحتى لو قال كائن بأن فكرة ترابط الإدراكات أو تسلسلها حسب قاعدة معينة هي التي تفرق بين التمثلات التي ترتبط بموضوع وتلك التي لا ترتبط ، فسنظل مع ذلك عاجزين عن الاهتمام إلى أساس للتفرقة بين النوعين . فكائن لا يحل المشكلة على الإطلاق حين يقول إن الصفة التي تكتسبها التمثلات المرتبطة بموضوع هي « خضوع تلك التمثلات لقاعدة ، بحيث يصبح من المحتم علينا ربطها في صورة محددة ما ، وبالعكس لا تكتسب تمثلاتنا معنى موضوعيا إلا بقدر ما يكون من المحتم إخضاعها لقاعدة معينة من حيث علاقتها الزمنية » ^(٢) . ولا جدال في أن هذه التفرقة صحيحة من حيث هي معيار لتلك المجموعة من الظواهر التي نسميها بالخارجية — ولكن وجه الاعتراض في هذه الحالة هو : كيف يمكن الانتفاع من هذه التفرقة في ضوء فلسفة كائن ؟ ولتساءل هنا أيضا : من أين أتت هذه القاعدة التي تخضع لها الظواهر المرتبطة بموضوع في ترتيبها الزمني ؟ إذ أن القول بأنها تنتمي إلى تركيب الذات ، أو إلى طريقتنا الخاصة في الإدراك ، لا يحل المشكلة : فلو كان الأمر كذلك ، فسنظل نتساءل : لم كانت بعض الإدراكات ذاتية خالصة ، كالأحلام ، وبعضها الآخر ذاتية خاضعة في ترتيبها الزمني لقاعدة معينة ، كالإدراكات المرتبطة بالموضوعات ؟ إذا كان سبب وجود هذه القاعدة هو

طريقة الذات في المعرفة ، لكان من الواجب أن تسرى هذه الطريقة على كل تمثيلات الذات ، ولكنها في الواقع تسرى على فئة معينة من هذه التمثيلات ، فلا بد أن يُردّ انتظام هذه القاعدة إلى طبيعة الموضوع نفسه^(١) .

والواقع أننا لو سلمنا تماماً مع كائن بوجود « طريقة للذات في المعرفة » — من صور للحس ومقولات للذهن — فسيظل من الخطأ أن يؤكد المرء أهمية هذا العنصر الذاتي ويركز جهده فيه ، كما فعل كائن . فهذا العنصر ، لو سلمنا بوجوده ، سيكون هو « الثابت » الذي لا يتبدل في المعرفة . ولو تدخلت الذات فسيكون ذلك في كل مرة على نحو مطرد ، ولن يكون في وسعها أن تتدخل في الظروف الواحدة إلا على صورة واحدة . فإذا تساءلت عن الفارق بين مدركين يتمان في ظروف واحدة ، كمنضدة وكرسي متجاورين ، فلن نستطيع إرجاع هذا الفارق بينهما إلى العنصر الذاتي ، وإنما إلى العنصر الموضوعي ، الذي يؤدي تغييره إلى تغير الإدراك . ولما كان ما يهمننا حقيقة في المعرفة هو كشف العنصر الذي بفضلته تتغير المدركات ، ويكون كل مدرك على ما هو عليه ، ويتميز به عن غيره ، فلا جدوى في هذه الحالة من التنبيه إلى العنصر الذاتي الذي هو مشترك بين كل الإدراكات ، بل ينبغي البحث عن سبب التغير في كل حالة ، وهو العنصر الموضوعي .

وعلى من يشك في ذلك ، أن يجيب عن هذا السؤال : إذا كانت الذات هي العنصر الإيجابي الفعال دائماً في المعرفة ، فما الذي يدفعها إلى « بعث » هذه المقولة ، أو هذه الصورة الحسية ؟ إن الذات لو تركت وحدها ، لكانت استجابتها على الدوام واحدة ، ولا بد أن شيئاً خارجها هو الذي أدى بها إلى تغيير الصورة التي تصوغ بها المعرفة ، حتى على افتراض وجود مثل هذه الصورة . وإذن فمن المستحيل تعليل تغير موضوعات المعرفة عن طريق

الذات ، بل إن الموضوع هو العنصر الوحيد الهام . ومن المؤسف أن كانت لم يركز جهوده إلا على العنصر الذاتي ، وهو العنصر غير الهام في المعرفة ، بينما كان الموضوع — سبب كل تغيير في المعرفة — مجرد « س » مجهولة لا يُذكر عنها شيء إلا أنها قد تكون موجودة ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً ، ولا يمكننا أن نفعل من أجلها شيئاً أكثر من أن نقول إننا لا نستطيع أن ننكر وجودها ، ولكننا لا ندري ما هي !

* * *

ولعل هذه الأمثلة لآراء الفلاسفة المثاليين في فكرة العالم الخارجى تكفى لإثبات إخفاق المثالية التام في تفسير خارجية العالم . ولا جدال في أن القارئ قد لاحظ أن المعنى الذى استخدمناه لفكرة الخارجية هنا هو معنى « الاستقلال عن الذات » ، بينما أهمل إلى حد ما معنى الخارجية المكانية . السبب في ذلك هو أن الشيء يكون خارجاً عن « شيء آخر » إذا كان في مكان غير مكانه ، أما حين تكون المقارنة بين الشيء وبين ذات مدركة ، فمن المحال الأخذ بمعنى الخارجية المكانية إلا إذا نظرنا إلى الذات على أنها متجسمة في شكل مادي يشغل حيزاً معيناً فحسب . ولما كان هذا المعنى الأخير لا يستوعب جميع خصائص الذات المدركة ، التى هي « قوة للإدراك » إلى جانب كونها ذات حيز مكاني ، فليس من الممكن الأخذ بمعنى المكانية في هذا الصدد ، ولا بد من البحث عن معنى آخر للخارجية . ومن هنا كان معنى « الاستقلال عن الذات » هو أفضل معنى لخارجية الأشياء . فحين نقول إن العالم يوجد خارج الذات ، نعني أنه مستقل في وجوده عنها . ومصير فكرة خارجية العالم يرتبط في الواقع بفكرة استقلال العالم في وجود من الذات . ولقد تبين لنا من الأمثلة السابقة مدى إخفاق المحاولات التى تبذلها الفلسفة المثالية للقضاء على فكرة استقلال العالم الخارجى هذه . فجميع هذه المحاولات

الهادفة إلى تأكيد دور « الذات » في تمثلنا لهذا العالم الخارجى تحقق أساساً في تفسير أصل ذلك الاعتقاد المتأصل بوجود العالم الخارجى أو تعليل التفرقة القاطعة التى تضعها التجربة البشرية بين مجموعتى الظواهر الداخلية والخارجية . حقا إن المثاليين قد ينجحون أحيانا في إثارة الشك في النفوس بالإشارة إلى تلك الحالات « الحدودية » التى لا يكاد المرء يوقن فيها إن كانت التجربة خارجية أو داخلية ، كحالات الأحلام وخداع الحواس ، غير أن من اليسير إيجاد أساس للتفرقة إذا جمعنا بين معيار « استقلال الظواهر عن الإرادة » الذى قال به ديكارت ومعيار « اتساق الظواهر وترابطها حسب قاعدة محددة » الذى قال به كانت . ففى كل حالات الشك هذه ، يكفى لإثبات خارجية موضوع التجربة أن تكون التجربة ، من جهة ، مستقلة عن إرادة الفرد غير نابعة من تخيلة المتعمد ، وأن تكون من جهة أخرى متسقة مع بقية عناصر التجربة ومرتبطة بها ارتباطا محكما . وكما أثبتنا من قبل ، فإن أصل هذا الاستقلال عن الإرادة الذاتية ، والإحكام بين عناصر التجربة البشرية ، لا يمكن أن يكون هو الذات وحدها ، التى يتبدى نشاطها جليا في نوع آخر من التجارب المعتمدة تماما على إرادة الفرد كتنخيلات الإنسان التى يبعثها متى شاء ودون أى ارتباط محكم ببقية تجاربه . والأمر الذى أخفقت فيه المثالية إخفاقا أساسيا ، هو تعليل تلك الصفات القاطعة التى تتميز بها تلك المجموعة من الظواهر المسماة بالخارجية . فجميع التعليقات « الذاتية » تنتمى ، كما رأينا إما إلى الاعتراف بالعجز عن تفسير عنصر أساسى في التجربة البشرية ، وهو عنصر الإحساس أو « المعطى » ، كما في حالة هيوم وكانت ، أو تغطية هذا العجز بافتراض إيمانى لا يقدم له أى برهان ، ويؤدى إلى تكوين صورة للعالم الخارجى وعلاقته بالذات المدركة أغرب وأبعد عن الفهم ألف مرة من الصورة المألوفة في الموقف الطبيعى ، كما في حالة باركلى .

ومن الغريب أن المثاليين ، في الوقت الذى يبذلون فيه جهوداً جمّة من أجل « رد » العالم الخارجى إلى الذات على نحو ما ، ويتفننون فى تقسيم قوى الذات على النحو الذى يكفل لها « بعث » كل التمثلات المتعلقة بالعالم الخارجى — يصمتون تماماً فيما يتعلق بأصل هذه « الذات » نفسها . فهم يبدون روحاً نقدية شكاًكة بالنسبة إلى طرف واحد ، هو الطرف الموضوعى ، أما الطرف الثانى ف يأخذونه على علاته ، وينسبون إليه ما شاءوا من القدرات دون أية محاولة لتعليل أصل هذه القدرات . وإذا كانت الفلسفة قد أسرفت فى الكلام عن العالم الخارجى من حيث هو نتيجة لفاعلية الذات ، ألا يحق لها أن تبحث قليلاً فى الذات ، وفى أصلها ، فربما اهتمدت عندئذ إلى نوع من التأثير للعالم الخارجى نفسه فى تركيب الذات ؟ وعلى أية حال ، فالتفكير المنطقى ينبغى أن يكون منطقياً فى كل شيء ، والذهن المنقب لا ينبغى أن يسكت على بعض الظواهر ويفتش عن أصل بعضها الآخر . وسكوت المثالية التام على فكرة الذات وقدراتها وصورها ومقولاتها ، التى تُفترض افتراضاً دون أية محاولة للتعليل ، هو بلا شك قصور لا يتمشى على الإطلاق مع روح الشك التى تبديها إزاء فكرة العالم الخارجى كما تتبدى فى الموقف الطبيعى .

دور العقل في مشكلة المعرفة

كثيراً ما نستخدم في أحاديثنا المعتادة عبارة : لن أصدق حتى أرى بعيني ! وقد يكون قائل هذه العبارة قد استمع إلى حجج ذات مظهر مقنع تماماً من الوجهة العقلية الخالصة ، ولكنه إذ يقول هذه العبارة ، يفترض مقدماً أن أى برهان منطقي لا يرقى أبداً ، في درجة إقناعه ، إلى مرتبة « الرؤية » المباشرة ، وأن المشاهدة بالعين أصدق إنشاءً من أية حجة عقلية . وكم حدث أن رويت لنا أمور تبدو غير مقنعة لعقولنا ، ثم تبدد كل شك بشأنها حين أكد لنا مصدر موثوق منه أنه شاهد الواقعة موضوع الخلاف بنفسه ، أو سمع الأصوات المشكوك فيها بأذنيه . وكلنا نعرف حالة ذلك الشخص المعدم الذي تهبط عليه ثروة مفاجئة ، فيظل فترة ما غير موقن إن كان الأمر حقيقة أم أنه في حلم ، يكون خلاها في حاجة إلى تنبيه حسي شديد حتى يدرك أنه لا يحلم ، وأن ما يحدث حقيقة واقعة !

في كل هذه الحالات تعبير عن إيماننا — عن حق — بأن هناك أموراً معينة تكون شهادة الإدراك المباشر فيها أقوى من شهادة العقل مهما كانت حججه مقنعة . هذه الأمور هي المتعلقة في معظم الأحيان ، بوجود الأشياء . بل إن انتشار قدر كبير من الخرافات كان راجعاً ، لا إلى اقتناع الناس بها عقلياً ، بل اعتقادهم بأن موضوعاتها قد أدركت : فإيمان الناس فترة طويلة بوجود الأشباح لم يكن سببه قوة الحجج التي عرضت عليهم لإثبات وجود الأشباح ، وإنما كون أشخاص كثيرين قد ظلوا يرددون فترة طويلة ، في مختلف الأزمنة والأمكنة ، أنهم « رأوا » الأشباح بأعينهم ، أو أدركوها على

أى نحو آخر من أنحاء الإدراك المباشر . ولا شك في أن شهادة هؤلاء الناس كانت كاذبة ، ولكن الإيمان الكامن من ورائها صحيح ، وأعنى به الإيمان بأن المعيار الحاسم لوجود الأشياء هو إدراكها ، لا البرهنة عليها ، وهو إيمان قد يصل في قوته إلى حد إقناع الجزء الأكبر من البشر وقتنا طويلا من تاريخها بوجود أشياء خرافية كالأسباح .

هذا الاعتقاد السليم بأن الإدراك ، لا البرهان العقلى ، هو المعيار الحاسم فى الأمور المتعلقة بوجود الأشياء كان إذن ، ولا يزال ، متأصلا فى نفوس الناس ، ولكن الفلسفة المثالية تعكس هذا الاتجاه ، إذ تحاول منذ البداية أن تركز جهودها فى « إثبات » وجود العالم الخارجى . وموضع الخلاف بين الموقف الطبيعى والموقف المثالى أن الإنسان ، فى الموقف الأول ، لا يحاول « إثبات » وجود العالم الخارجى ، ولا يثير هذه المشكلة أصلا ، لسبب بسيط هو أنه إذا وجد الإدراك ووجد الإثبات العقلى ، فيما يتعلق بوجود أى شىء ، فإنه يرجح كفة الأول على الثانى ، حتما ، بل يعد شهادة الأول هى الحاسمة ، ويرى من الضرورى أن يطرح الثانى جانبا دون أى تردد . وهكذا لا يستخدم الإنسان عقله ، فى موقفه الطبيعى ، لإثبات وجود الأشياء ، أى أنه لا « يفكر » فى مشكلة وجود العالم الخارجى ، فتكون النتيجة أن يسمى عدم تفكيره هذا « سذاجة » ، ويصبح الموقف الطبيعى فى نظر الفلسفة ، تعبيرا عن « الواقعية الساذجة » ولكن ، هل دار بخلد الفلاسفة وقتا ما أن هذه قد لا تكون سذاجة ، بل قد تكون هى الوسيلة الوحيدة الممكنة للسلوك إزاء مشكلة كهذه ؟ وهل خطر لهم أن « جميع براهينهم » لإثبات وجود العالم الخارجى قد تكون سائرة كلها فى اتجاه باطل ، بغض النظر عن القيمة المنطقية أو الإقناعية لهذه البراهين ، لأن المسألة منذ البداية ، من ذلك النوع الذى يحسمه قولنا : « أرنى إياه ! » أكثر مما يحسمه قولنا : « أثبتته لى » ؟ أو بعبارة أخرى : هل فكروا

في احتمال كون الإيمان الطبيعي بوجود العالم الخارجى ، نتيجة لإدراكه ، أقوى وأفضل ألف مرة من الإيمان به ، أو إنكاره ، نتيجة لبرهان عقلى ؟ هذه كلها أسئلة مشروعة تماما ، وهى ترد فى النهاية إلى إدراك طبيعة مشكلة وجود العالم الخارجى : فلو فهمت هذه المشكلة على حقيقتها ، وحدد المجال الحقيقى الذى تنتمى إليه ، لأمكن حسم الخلاف فيها بطريقة أيسر بكثير مما لو ظل النقاش دائراً حولها دون أى تحليل لطبيعة المشكلة . والواقع أن مشكلة وجود العالم الخارجى ، وهى أهم المشاكل التى تعالجها نظرية المعرفة ، تختلف عن كثير من المشاكل الفلسفية الأخرى فى أنها لا تتعلق بشىء ينبغى استنباطه ، بل تتعلق بوجود مدرك بالفعل . فالقواعد الأخلاقية مثلا فى حاجة إلى استنباط أو تبرير ، وكذلك الحال فى القواعد المنطقية والجمالية ، أما مشكلة العالم الخارجى فلها طبيعة مختلفة تماما : إنها مشكلة شىء ندركه فى موقفنا الطبيعى على أنه موجود فعلا ، ولا يثار فى ذهننا أى شك بشأنه ، ولكن الفلاسفة هم الذين يثيرون هذه الشكوك حين يحاولون إخضاع هذا الوجود للبرهان ، أى حين يقولون للإنسان فى موقفه الطبيعى : صحيح أنك تدرك هذا العالم ، وتراه أو تلمسه ، إلخ... ولكن هل لديك إثبات أو برهان عليه ؟ والقضية التى ندافع عنها فى هذا الفصل هى أن هذا السؤال غير مشروع ، لأن الإثبات أو البرهان — فى المسائل المتعلقة بوجود الأشياء — لا محل له إذا كانت الأشياء مدركة بالفعل . أى أن مهمتنا هنا هى أن نرد على أصحاب الاتجاهات الفلسفية المثالية بقولنا : ولكن المشكلة أصلا تتعلق بميدان لا مجال فيه للبرهان ، طالما أن الإدراك يقوم بدوره ! فلنبين الآن إلى أى حد أخطأت المثالية بمحاولتها « البرهنة » على وجود العالم الخارجى .

من المعروف أن ديكارت قد بدأ تفلسفه بالشك فى وجود العالم الخارجى

على أسس مختلفة من بينها إمكان خداع الحواس والخلط بين الحلم واليقظة ، إلخ ، وفي هذا الشك عبر ديكارت عن عدم اكتفائه بإدراك العالم بوصفه وسيلة للتأكد من وجوده ، وسعى إلى البحث عن وسيلة أخرى من وسائل الإثبات . ومن المعروف أيضاً أن ديكارت قد استعاد ثقته في وجود العالم الخارجى بعد أن تأكد من وجود الله ، ومن أن الله لا يخدع . وهو يشرح فى كتاب مبادئ الفلسفة (القسم الأول من الجزء الثانى) « براهينه » على وجود الأجسام المادية ، فيقول « إن فى مشاعر وأحاسيس لا أبعثها فى نفسى كلما شئت وكما شئت ، بل إن شيئاً ما هو الذى يبعثها فى . وقد يقال إن الله هو الذى يبعث فىنا إحساساً بوجود هذا الشيء الممتد طولاً وعرضاً وعمقاً ، أو أنه يدفع شيئاً ليست له مثل هذه الطبيعة إلى بعث هذا الإحساس فىنا ^(١) — ولكن هذا معناه أن الله يخدعنا ، وهو أمر مخالف لطبيعته ، فلا بد أن يكون هناك بالفعل جوهر ممتد يوجد فى العالم ، له كل ما نعرفه عنه من خصائص » .

وإذن فديكارت لا يقنع بأن العالم الخارجى موجود لأنه حقيقة مدركة بل يريد « برهانا » على وجوده ، ويستمد هذا البرهان بطريقة غير مباشرة من فكرة الكوجيتو . وهو لا يعترف بوجود هذا العالم إلا على أساس ذلك البرهان الذى يسير فيه شوطاً طويلاً : من الشك إلى الكوجيتو إلى وجود الله ومنه إلى وجود العالم . ولو لم يوجد الإله الكامل الذى يركز عليه الاعتقاد بوجود العالم لما منعنا شيئاً من الاعتقاد بأن المسألة كلها خداع . والواقع أن مشكلة ديكارت ، من أساسها ، لم تكن مشكلة عدم اعتراف بوجود العالم الخارجى كما هى الحال لدى كثير من المثاليين التاليين ، وإنما مشكلة جعل ذلك الوجود

(١) لا حظ التشابه القوى بين هذا الافتراض الأخير وبين رأى باركلى اللاحق فى

إرجاع المدركات إلى الذهن الإلهى .

مقيدا بشرط الإتيان ببرهان عليه ، وترك ذلك العالم معلقا أو موضوعا بين قوسين إلى أن يستطيع العودة إليه عن طريق وسائط أخرى . والسؤال الذى ينبغى ألا يكف المرء عن ترديده فى هذه الحالة هو : أليس وجود العالم فى غنى عن البرهان ، لأنه أسبق من البرهان ؟ وهل تعد طريقة البرهان العقلى أفضل طريقة للتأكد من هذا الوجود ؟ ولو فرضنا أنه ظهرت حجة تزعم هذا البرهان أو تقضى عليه ، فهل يعنى ذلك أن اعتقادنا بوجود العالم الخارجى ، وسلوكنا فيه ، سيظل معطلا حتى يتم « إصلاح » البرهان أو إبداله ؟

فإذا انتقلنا إلى هيوم ، لوجدناه يعبر عن نفس الفكرة العامة تعبيراً مختلفاً إلى حد ما : فعنده أن الإيمان « الطبيعى » بوجود الأشياء وجوداً مستمراً ومستقلا عن الذهن هو إيمان لا يقوم على أساس فلسفى ، ولا يركز على العقل مطلقا . ويحدد هيوم لنفسه مهمة تحليل هذا الإيمان من الوجهة الفلسفية ، وإثبات مدى الخطأ العقلى فيه . ويدرك هيوم بكل وضوح أن فكرة وجود الأشياء وجوداً متميزاً مستمرا هى فكرة بعيدة تماما عن العقل ، وأنها لا بد ناتجة عن ملكة أخرى غير الفهم^(١) ، ولكنه يصر على أن يختبر هذه الفكرة فى ضوء العقل ، ليثبت أوجه الخطأ فيها . أى أن تلك التجربة التى تمارسها البشرية كلها ، وتؤكد صحتها فى تصرفاتها العملية ، تجربة غير موثوق منها طالما أن التحليل العقلى لا يدعمها .

وكما قلنا من قبل ، فليست مهمتنا هنا هى بحث الحجج العقلية التى يركز عليها هيوم أو غيره فى هذا الصدد ، وإنما هى البحث فيما إذا كان وجود العالم الخارجى مشكلة تخضع للحجج العقلية وتحسمها هذه الحجج أصلا . وفى فلسفة هيوم أوضح مثل لحالة المفكر الذى يشك فى اعتقادنا بوجود العالم الخارجى بأسره على أساس أن هذا الاعتقاد لا يركز على حجج عقلية . وهو

لا يثق بتجربة الناس المباشرة في هذا الميدان ، ولا يبحث في احتمال كون الاستدلال العقلي غير مثمر في هذا الميدان الذى لا يؤلف معرفة مستمدة ، بل تجربة مباشرة أصيلة تُستمد منها معارف أخرى فيما بعد . وهو يطلب برهانا ودليلا على شيء لا مجال فيه للبرهان ، لأنه أساس كل معرفة وموقف فكرى أو عملى لنا . وبعبارة أخرى ، فهيوم ، وأمثاله من الفلاسفة ذوى الاتجاهات المثالية ، يبحثون عن « أسباب » لظاهرة لا تحتاج إلى تقديم « أسباب » ، لأنها قائمة قبل كل تبرير . ولقد روى هيوم عن نفسه أنه كان أحيانا يغادر غرفة مكتبه ويختلط بالآخرين لكى يتأكد من أنهم ، ومعهم العالم الخارجى ، موجودون بالفعل ! وهذه القصة تدل على مدى سيطرة الرغبة فى الحصول على براهين عقلية على تفكيره فى هذه المسألة — ولكن الأبلغ دلالة من ذلك ، هو أن هذه البراهين لم تكن توصله إلى شيء وهو قابع فى غرفته ؛ وكان الحل الذى يعيد إليه ثقته بوجود العالم هو أن يطل على الناس أو يختلط بهم ، أى أن يمارس تجربة إدراك العالم الخارجى بالفعل . ولا جدال فى أن هذه التجربة كانت أقوى إقناعا له ، فى هذه اللحظات ، من جميع الحجج العقلية ، ومع ذلك ، فهل توصل هيوم إلى استخلاص الدلالة الحقيقية لقصته هذه ؟!

وينبغى أن يلاحظ أن رأى الذى نقول به ليس رأيا شاذا وسط إجماع عام من الفلاسفة على الرأى المضاد ، بل إن فى وسعنا أن نجد تأييدا له لدى بعض الفلاسفة . ففي رسالة اسبينوز لرقم ٥٦ إلى « هوجو بوكسل Hugo Boxel » يقول « من الصحيح تماما أننا كثيرا ما نسلك فى العالم بالتخمين ؛ ولكن من غير الصحيح أننا نمضى فى تأملاتنا بالتخمين ، فنحن مضطرون فى الحياة المعتادة إلى السير وفقا لما هو مرجح ، أما فى تأملاتنا النظرية فإن غايتنا هى الحقيقة . وإن المرء ليهلك جوعا وعطشا إذا رفض أن يشرب ويأكل إلا بعد أن يثبت إثباتا كاملا أن المأكول والمشرب نافعان ، والأمر ليس كذلك فى

الفكر . »^(١) كذلك يحذرنا شوبنهاور من الإفراط في الاعتماد على البرهان ، مؤكداً وجود حقائق لا تنفع فيها المعرفة البرهانية ، فيتحدث عن وجود خطأ قديم يقول « إن كل ما يبرهن عليه هو وحده الصحيح صحة مطلقة . ولكن كل برهان أو دليل يقتضى ، على العكس من ذلك ، حقيقة غير مبرهن عليها . . . » وإذن فالحقيقة المباشرة تُفضل على الحقيقة المقررة بالبرهان مثلما يفضل ماء النبع على ماء المضخات .. فالأحكام المستمدة من الإدراك مباشرة والمبنية عليه ، من دون أى برهان ، لا الأحكام المبرهن عليها أو أدلتها ، هى التى تكون للعلم بمثابة الشمس للعالم : إذ ينبع منها كل ضوء »^(٢) . وصحيح أن شوبنهاور كان يرمى من هذا الكلام إلى هدف مخالف تماماً لفكرة تأييد وجود العالم الخارجى ، ولكنه يتضمن بلا شك تحذيراً من الإفراط فى استخدام البراهين العقلية ، وتنبيهاً إلى ضرورة البحث فى طبيعة الميدان الذى نعالجه لكى نكون على ثقة من أنه ميدان يقبل هذه البراهين أصلاً . ومثل هذا التحذير يفيد بلا شك فائدة خاصة فى مشكلة وجود العالم الخارجى .

أما لوك ، فإنه يعرب صراحة عن إيمانه بأن معرفتنا بوجود الأشياء لا ينبغي أن ترد إلى الذهن . فالوسيلة الوحيدة لهذه المعرفة فى رأيه ، هى الإحساس ، ولا يمكن عن طريق الأفكار الذهنية وحدها إثبات وجود موضوع للفكرة ، مثلما لا يمكن إثبات وجود الإنسان من صورته المرسومة . « وإذن فالتلقى الفعلى لأفكار من الخارج هو الذى يثبتنا بوجود الأشياء الأخرى ، ويجعلنا ندرك أن شيئاً يوجد فى ذلك الوقت خارجنا ، ويسبب فينا تلك الفكرة » . والدليل الأقوى على ذلك هو شهادة الحواس التى يصفها هنا بأنها الحكم

Spinoza : Oeuvres Complètes . Edition Gallimard . P. 1302. (١)

The World ... Vol I / I4 (P. 64) .

(٢)

الوحيد الصحيح في هذا الميدان^(١). ويؤكد لوك أن من الخطأ تقديم أسباب وبراهين ، أو توقع مثل هذه الأسباب والبراهين ، في الأمور التي لا تقبل البرهنة أو التعليل — ومثل هذا الشخص الذى يطلب البرهنة على كل شيء ، ولا يقبل إلا ما هو ثابت بالبرهان ، معرض للفناء السريع^(٢). بل إن لوك يعبر عن رأيه بصراحة قد يصفها الفلاسفة بأنها « ساذجة » حين يقول « لا أظن أن أحداً يبلغ به الشك ، جاداً ، إلى الحد الذى يرتاب معه في وجود الأشياء التي يراها ويحسها »^(٣). ولسنا ندرى ماذا كان لوك يقول لو اطلع على الاتجاهات المثالية التي ظهرت من بعده والتي تأثر بعض ممثليها بفلسفته هو ذاته . والأغلب أنه لم يكن عندئذ ليشك في « جدية » القائلين بهذه الآراء ، وكل ما في الأمر أنه كان سيرُجعها إلى الإفراط في طلب البرهنة على الأمور التي لا تحتاج إلى برهان .

ولنلاحظ أن إشارة لوك إلى تعرُّض من يطلبون برهاناً على كل شيء للفناء السريع ، لها مغزى كبير في هذا الصدد . فهو هنا يشير إلى الضرر العملى الذى يجلبه الإفراط في طلب البراهين : إذ أن إمكان حياة الإنسان العملية يقتضى الاكتفاء بالتجارب المباشرة في المواقف التي يتعامل فيها الإنسان مع الأشياء ، وعدم الإصرار على طلب برهان على وجود هذه الأشياء : أولاً لأن هذا البرهان قد يكون مستحيلاً ، كما أثبت ذلك فلاسفة كثيرون عجزوا عن الاهتداء إليه ، وثانياً لأنه يعوق سير السلوك العملى في مجراه الطبيعي ، بحيث يدو التفكير الفلسفى الذى يمارس بحثاً عن هذه البراهين أشبه بقوة تعطل الحياة عن السير في مجراها الطبيعي .

Locke : Essay. Book IV, Chap. II, / I, 2,3

(١)

Ibis. / 10 .

(٢)

Ibid / 3

(٣)

بل تؤدي إلى توقفها التام في نهاية الأمر .

ولتوسع قليلا في مسألة الصلة بين فكرة وجود العالم الخارجى هذه ، وبين سلوك الإنسان العملى فى الحياة . فهناك فى حياة الإنسان أمور واضحة لا ينكر الإنسان وجودها على الإطلاق ، ولكنه يظل دائما عاجزا عن إثباتها ، فهل يعنى ذلك عدم وجودها ؟ ولنضرب لهذه الأمور مثلا مشهورا ، هو حجج زينون لإثبات بطلان الحركة . فهذه الحجج ما زالت لها جديتها ، وما زال الفلاسفة يناقشونه بوصفها مشكلة فلسفية حقيقية حتى اليوم . ولكن ، رغم منطقية هذه الحجج ، فهل شك أحد فى ظاهرة الحركة ذاتها ؟ الواقع أن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم تكن المشكلة فى واقع الأمر هى : هل للحركة وجود بعد كل هذه الاعتراضات ؟ وإنما هى : كيف نتخلص من المشاكل المنطقية التى تثيرها حجج زينون ، وكيف يمكن التغلب على هذه الصعوبات ؟ ولكن لماذا لا نشك فى وجود الحركة رغم إثارة هذه الحجج التى لا تدحض ؟ ذلك لأن ظاهرة الحركة ليست فى حاجة إلى تحليل وتبرير منطقى ، لأنها توجد بالفعل ، وتمارس على الدوام فى عالم الأحياء وغير الأحياء . ومهما كان للحجة الفلسفية من قوة فليس فى وسعها أن تهدم اعتقادنا بوجود ما ندركه أو نمارسه عمليا بلا انقطاع . والواقع أننى لا أعتقد أن حجج زينون لها تلك الأهمية التى ظل المفكرون يعزونها إليها حتى اليوم ، إذ أنها لا تعدو فى نظرى أن تكون مثالا لمحاولة باطلة لتطبيق البراهين العقلية على ميدان لا يقبل هذه البراهين . ولست أعتقد أن من واجب المفكرين أن يولوا أهمية كبيرة — كما فعل رسل وكثير من المناطقه الرياضيين المحدثين — لحجة كتلك القائلة إن من المستحيل قطع مسافة ما لأن ذلك معناه قطع نصف المسافة ثم نصف النصف ويليهِ نصف النصف الباقى ، وهكذا إلى ما لا نهاية — مثل هذه الحجة فى رأى لا تستحق كل ما أبدى نحوها من الاهتمام ، لأنها لو طبقت فى أى ميدان آخر فستجعل كل

الأفعال مستحيلة : فمثلا أستطيع أن أقول إني لن أشرب كوب الماء كله لأننى سأشرب أولا نصفه ثم نصف النصف ، إلخ : . ولن أقرأ هذه الصفحة كلها لأننى سأقرأ أولا نصفها ثم نصف النصف ، إلخ .. ولن أصعد سلم دارى لأننى سأصعد أولا نصف الدرج ثم نصف النصف إلخ . .

وهكذا تؤدي نفس الحجة ، إذا طبقت على أى فعل بشرى (لا على الحركة فحسب) ، إلى استحالة تماما . ومثل هذه النتائج الغريبة ذاتها ينبغي أن تؤدي بنا إلى الإقلال من قيمة هذه الحجة . ولا بد أن يكون هناك بطلان في أى استدلال فكرى تكون له مثل هذه النتائج : لأننى بالفعل أشرب كوب الماء كله ، وأقرأ الصفحة كلها ، وأصعد كل سلام دارى — ولأن الحركة موجودة ، ولولاها لما كانت الحياة .

ونستطيع أن نقول إن هذا هو الفارق بين طريقة التفكير التى تركز على الموقف الطبيعى وطريقة التفكير المثالية . فإذا صادفت الأولى حجة تؤدي إلى نتيجة مستحيلة كالتائج السابقة رفضتها على التو ، مهما بدا لهذه الحجة من قيمة منطقية ، طالما أن نتائجها تناقض الواقع الفعلى الملموس . ومن الممكن أن يأتى بعد ذلك تنفيذ منطقى مفصل لهذه الحجة^(١) . ولكن المهم فى الأمر أن

(١) هناك تنفيذ منطقى بسيط لحجة زينون هذه ، لا أذكر أن أحدا ممن قرأت لهم قد استخدمه ضد حجج زينون : فزبنون يسلم بأن من الممكن ألا قطع نصف المسافة ، ثم يبرهن على استحالة إكمال النصف الثانى ، ولكن الرد البسيط على ذلك هو أن قطع النصف الثانى يتم على نفس النحو الذى قطع به النصف الأول ! وإذا كان الفرض ذاته يتضمن قطع النصف الأول فمن الواجب ، قياسا على ذلك ، أن يكون من الممكن إكمال النصف الثانى : ولو افترض زبنون أى قدر من الحركة — خمس المسافة أو عشرها أو واحد على مائة منها فسيكون من الممكن إثبات إمكان قطع بقية المسافة بالتمثيل . والحالة الوحيدة التى تبقى أمام زبنون هو ألا يقول بأية حركة منذ البداية ، لأنه لو افترض إمكان البدء فى الحركة لأصبح إمكان إتمامها أمرا محتملا . أما إذا لم يتضمن فرضه أية حركة ، فسيكون ذلك مناقضا لكل حججه ، التى تضمنت فروضها كلها البدء بحركة ما .

منافاة نتائجها للواقع الفعلى تكفى « وخذها » لاستبعاد الحجة فوراً .
أما طريقة التفكير المثالية فتقبل الحجة على أساس ما يبدو لها من تماسك منطقى
ولا تجد غضاضة فى إنكار الواقع الملموس ذاته إذا تناق معها .

والواقع أن هناك أموراً عديدة واضحة كل الوضوح ، ويثبتها الواقع العملى
كل لحظة ، ولكن يصعب ، وربما يستحيل ، إيجاد « برهان » لها . بل إنه ل يبدو
أنه كلما ازداد الشئ وضوحاً ، كان الإتيان ببرهان لإثباته أصعب . ولكن
النقد فى مثل هذه الحالات ينبغى أن يوجه إلى محاولة البحث عن برهان ،
لا إلى وضوح الشئ ذاته . فما أصعب أن يثبت المرء أن هذه الورقة التى أكتب
عليها بيضاء (إلا بقياس دذبذبة الضوء ، وهى عملية عظيمة التعقيد ، ولا تؤلف
« برهاناً » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .) ولنفرض أنك أبدت لصديقك فى
يوم مشمس إعجابك بالدفع الذى تبعثه الشمس ، فأجاب اثبت لى أن
الشمس طالعة ! — فهل يكون من السهل الإتيان بمثل هذا الإثبات ؟ وهلا
يكون أفضل رد فى هذه الحالة هو الإشارة إلى عملية الإدراك ذاتها ، واستبعاد
طلب الإثبات فى الحالات التى تحدث فيها هذه العملية ؟

إن الاستدلال أو البرهان العقلى ، فى نهاية الأمر ، لا يعدو أن يكون مجموعة
من الأفكار ، والأفكار لا تستطيع وحدها أن تنفى وجود شئ ندركه
بالفعل ، لأن هذا خارج عن نطاق قدرتها . والواقع أن الحاجة إلى البرهنة على
وجود شئ تقوم فى الحالات التى لا يستطيع المرء فيها أن يدرك الموضوع
أو أن يحسه مباشرة . وربما كان تعريف البرهان ذاته ، فى الحالات المتعلقة
بوجود الأشياء ، هو أنه إثبات مالا يدرك ، أى أن عدم القدرة على الإدراك
شرط أساسى لمجرد التفكير فى البحث عن برهان . فنقطة البداية فى أى بحث عن
وجود شئ ما ينبغى أن تكون السعى إلى إثبات كون موضوعه قابلاً للإدراك

المباشر ، فإذا أمكن ذلك عدت النتيجة منتهية . أما إذا لم يكن فعندئذ يبدأ البحث عن برهان . وبعبارة أخرى ، فإن السعى إلى البرهنة على الوجود في الحالات التي يكون فيها الشيء قابلاً لأن يدرك ، أى في حالة مثل وجود العالم الخارجى ، هو فكرة منافية لطبيعة البرهان ذاته .

المثالية ومحتوى المعرفة

يتناول هذا الفصل بالمناقشة مشكلة تأثير المثالية في موقف الإنسان من الوقائع الفعلية ، ويبحث في تلك الظاهرة الفريدة ، ظاهرة التضاد التام بين المواقف العملية والأفكار النظرية للفيلسوف المثالي ، ويحاول استخلاص دلالة هذا التضاد .

ومن الواضح أن للمرء كل الحق في أن ينتظر من المثالية أن تؤثر في مواقف الإنسان العملية إزاء موضوعات أو أشياء هذا العالم . ذلك لأن المثالية تبدو رأياً محدداً واضح المعالم في « طريقة وجود » هذه الموضوعات وعلاقتها بنا ، ومن المعقول تماماً أن يكون لهذا الرأي انعكاس على تصرفاتنا إزاء هذه الأشياء : فعندما كان الناس يؤمنون بأن محاصيلهم هبة من إله الزرع أو الخصب ، كانوا يركزون جهودهم في الصلاة لذلك الإله ويتركون زرعهم تحت رحمته ، أما عندما أصبحوا يؤمنون بأن جودة محاصيلهم تتوقف على ما يبذلونه فيها من جهد ، فإن نشاطهم تحول من الصلاة لإله الزرع إلى رعاية الأرض وتعهده النبات . وهكذا يؤدي تغيير طريقة التفكير النظرى في الأشياء إلى تغيير في طريقة التعامل مع هذه الأشياء . ومن هنا كان من المشروع جداً أن نتظر من المثالية ، طالما أنها تفكر نظرياً في مشكلة العالم الخارجى على نحو مخالف للطريقة التى تفكر بها في موقفنا الطبيعى ، أن تؤدي إلى تصرفات عملية مخالفة لتصرفات الإنسان المألوفة إزاء العالم الخارجى في ظل الموقف الطبيعى . أو بعبارة أخرى ، فإن الإنسان في موقفه الطبيعى يعد الأشياء ذات وجود خارج ومستقل عنه ، ويتصرف عملياً على هذا الأساس ، وها هو ذا المثالى يعد

الأشياء ذات وجود غير مستقل عن الذهن — بمعان مختلفة لهذه الكلمة — فلماذا إذن لا يتصورها على أساس اعتقاده هذا ؟ ولماذا لم نجد مثاليًا واحدًا يعامل الأشياء كما لو كانت « ذهنية » بالفعل ، أى يستخرج النتائج العملية المتوقعة من تفكيره النظرى ، ويتصرف على أساسها ؟

إننا باحثى الفلسفة ، فيما أعلم ، لم يعيروا اهتمامًا كبيرًا لمشكلة التباين بين التفكير النظرى والتصرف العملى للفلاسفة المثاليين ، وربما كانوا ينظرون إلى المشكلة على أنها ، فى أساسها ، « ساذجة » . ولكنى لا أرى على الإطلاق ما يدعو إلى الاستخفاف بها ، بل إننى أعتقد أن من الواجبات المقدسة لكل باحث نزيه فى الفلسفة أن يفكر مليًا فى هذا التعارض ، ويحاول استخلاص دلالاته الحقيقية . وعلينا دائمًا ، إذا شئنا أن نناقش هذه المسألة مناقشة لا تغفل أى طرف من أطرافها ، أن نسأل المثالى : إذا كنت حقًا تؤمن بأن العالم الخارجى معتمد على الذهن ، فلماذا لا تتعامل مع ذلك العالم على هذا الأساس ؟ ولماذا تسلك دائمًا فى حياتك العملية كما لو كنت مؤمنًا « بالواقعية الساذجة » التى تعد الخروج عنها أول شروط التفلسف ؟

ولست أدرى ماذا ستكون إجابة المثالى على هذا السؤال ، ولكن الإجابة الواضحة فى رأيى — سواء أتت من جانب المثالى أو غيره — هى أن التعامل مع العالم الخارجى مستحيل إلا على أساس الموقف الطبيعى . فالشخص الذى يعامل الأشياء على أنها « ذهنية » ، ويتصرف فى حياته العملية تصرفًا متسقًا مع هذا التفكير ، معرض للفناء لتوه . والشخص الذى يتعامل مع بقية الناس على أساس إنكار وجود الأذهان الأخرى أو الشك فى وجود هذه الأذهان — وهى فكرة غير أصيلة — معرض للاصطدام الدائم ، وربما الضار ، بهؤلاء الناس . ولا أظن أن تاريخ الفكر قد عرف شخصًا استطاع أن يوفق بين اعتقاداته المثالية وطريقة نظرتة إلى الأشياء وإلى بقية الناس .

وبعبارة أخرى ، فالمثالية ، على الرغم من أنها تتناول نظريا مشكلة الموضوعات الفعلية الموجودة في هذا العالم ، لا تؤدي إلى أى تغيير فعلى في موقف الإنسان العملى من هذه الموضوعات . أى أن صورة العالم ، كما ترسمها المثالية ، ستظل ، من الوجهة العملية ، هى نفسها صورة العالم كما يكونها الإنسان في موقفه الطبيعى ، ولكن مصوغة في « لغة أخرى » . فلنحاول إذن أن نثبت ، بشئ من التفصيل ، الفكرة القائلة إن المثالية مجرد « لغة أخرى » لا تؤثر في صورة العالم الفعلية أدنى تأثير .

ففى فلسفة باركلى المثالية تظهر محاولة من أكثر المحاولات تطرفا لإنكار الوجود المستقل والتميز للعالم الخارجى . ومع ذلك فقد اعترف باركلى نفسه بأن صورة العالم النهائية لن تتغير ، من الناحية العملية ، عن صورته المألوفة في الموقف الطبيعى . « فإذا كنت تعنى بالأفكار ideas الموضوعات المباشرة للفهم ، أو الأشياء المحسوسة التى لا يمكن أن توجد غير مدركة ، أو خارج ذهن ، فإن هذه الأشياء (الشمس ، القمر ، النجوم ، الأرض ، إلخ ...) أفكار . أما تسميتك لها بالأفكار فأمر ليست له أهمية كبرى ، إذ الفارق كله يدور حول اسم ، وسواء احتفظ بهذا الاسم أم لم يحتفظ به فإن معنى الأشياء وحقيقتها يظل كما هو . ونحن في حديثنا المعتاد لا نسمى موضوعات حواسنا أفكارا ، وإنما أشياء . فلنظل نطلق عليها هذا الاسم ، شريطة ألا تنسب إليها أى وجود خارجى مطلق . ولن أتنازع معك أبداً حول كلمة » ^(١) وهنا يظهر بوضوح أن هدف باركلى الأساسى هو إنكار الوجود الخارجى المطلق للأشياء ، مع الاعتراف بأن الأشياء ، من حيث حقيقتها وواقعيتها ، ستظل كما

(١) Dialogues Between Hylas & Philonous. (Works, Vol, 1)

هى . وتتحدد هذه الفكرة بمزيد من الوضوح فى مواضع أخرى كثيرة من كتابات باركلى يحرص فيها على أن يؤكد أن حقيقة العالم لا تتأثر على الإطلاق بنظريته ، وأن كل الظواهر والقوانين الطبيعية تظل كما هى ، وكل ما فى الأمر أنها فى فلسفته تفسر على أساس الأفكار ، لا المادة^(١) .

ويضرب باركلى مثالا له دلالة بالغة فى هذا الصدد : « فلنفرض — وهو فرض لا ينكر أحد إمكانه — أن هناك عقلا يتأثر دون مساعدة أجسام خارجية ، بنفس سلسلة الإحساسات أو الأفكار التى تتأثر أنت بها ، منطبعة فى ذهنه بنفس الترتيب والحيوية . فهلا تكون لدى هذا الذهن من أسباب الاعتقاد بوجود جواهر مادية ، تمثلها أفكاره ، وتثير هذه الأفكار فى ذهنه ، ما لديك أنت للاعتقاد بالأمر نفسه ؟ هذا أمر لا جدال فيه . وهو يكفى وحده لتشكيك أى عاقل فى قوة أية حجة قد يعتقد أنها تبث فيه الاعتقاد بوجود الأجسام دون الذهن »^(٢) . وتوضح قيمة هذا المثل فى أنه يؤدى إلى الاعتراف بأن الفارق بين الحالتين : حالة كون الأشياء مجرد أفكار تثار فى الذهن ، وحالة كونها واقعية بالفعل ، ليس فارقا ينعكس على الصورة العملية للعالم وطريقة تصرفنا فيه ، وإنما هو فارق فى « تفسير » العالم فحسب ، ويظل ذلك العالم على ما هو عليه ، مهما اختلف التفسير . ويلاحظ أيضا أن من الممكن استخدام هذه الحجة ذاتها بمعنى عكسى : فكما قلنا من قبل ، نستطيع أن نفترض عالما آخر فيه أشياء حقيقية فعلية ، وعقولا تدرك هذه الأشياء الفعلية من خلال حواسها ، وسنجد أن هذه العقول سيتولد لديها نفس الشك المثالى فى أن تكون الأشياء المدركة مجرد صور أو أفكار ذهنية ، لا تناظر وجودا خارجيا . وعلى أية حال فالفارق فى الحالتين لن يعدو أن يكون فارقا فى تفسير

(١) انظر مثلا Principles of Human Knowledge, Ist. Part § 36, 50

Ibid, § 20.

(٢)

العالم ، ومن المحال أن يؤدي إلى اختلاف في طريقة التعامل مع الأشياء .
ولو تأملنا قضية باركلي الرئيسية ، وأعني بها « وجود الشيء هو كونه
مدركا » لوجدناها مؤدية في نهاية الأمر إلى تأييد الرأي الذي نقول به ها هنا
من أن المثالية لغة نتحدث بها عن العالم ، وتفسير لا يؤثر في سلوكنا الفعلي إزاء
ما فيه من أشياء . فالمقصود من هذه القضية مجرد تعريف لفكرة « وجود
الشيء » . وطالما ردد باركلي ، وهو يبرر هذه الفكرة ، قوله : هل في
استطاعتك أن تعرف معنى وجود أى شيء إلا بكونه مدركا ؟ لو أتيت
بتعريف آخر فسوف أتنازل عن رأيي وأسلم . وعلى أية حال ، فمن الواضح
أن مناقشة هذا الموضوع هي منذ البداية مناقشة تتعلق بالتفسير وحده : فإثارة
حالة إمكان (أو عدم إمكان) وجود الشيء إن كان غير مدرك ، هي إثارة
لحالة مستحيلة ، بل غير عملية على الإطلاق : لأن التحقق من وجود الشيء
في حالة عدم إدراكه ليس من الأمور التي يمكن تصورها عمليا . ومن هنا كان
إثبات هذه القضية أو نفيها لا يؤدي إلى أى تغيير في موقف الإنسان من هذا
الشيء الموجود .

وفي مستهل الفصل الثاني من الباب الرابع من كتاب هيوم الرئيسي « بحث
في ذهن الإنسان » ، يذكر هيوم أن هدفه هو البحث في « الأسباب » التي
تدفعنا إلى الاعتقاد بوجود الجسم (أو العالم الخارجي) ، لا البحث في هذا
الاعتقاد ذاته ، إذ أن من العبث التساؤل عما إذا كان ثمت جسم أم لا ^(١)
ويفسر « برايس » معنى هذه العبارة الأخيرة ، ولا سيما لفظ « من العبث »
(is in Vain) بأنه : من المستحيل نفسياً ، أو مما ليس له معنى من الوجهة

المنطقية Logically nonsensical^(١). ولكن التفسير المعقول لهذه العبارة في رأينا هو أنه من غير العملى توجيه هذا السؤال ، لأننا في مواقفنا العملية نعترف حتما بوجود الأشياء . ومما يؤيد هذا التفسير المعنى العملى الواضح الذى تحمله كلمة « من العبث » .

وتبعاً لهذا الرأى الذى نقول به يكون هيوم قد اعترف بأن أى موقف نتخذه في مسألة وجود العالم الخارجى إنما هو موقف تفسيرى فحسب ، وبأننا في الميدان العملى لا نثير هذا السؤال على الإطلاق . وهكذا كان هدفه يتجه إلى البحث في « أسباب » الاعتقاد ، أى إلى بحث تفسيرى لا يؤثر في المواقف العملية . ومما يؤيد هذا الفهم لرأى هيوم كل التأيد ، ذلك النص الذى يتعرض فيه هيوم لمسألة الاعتقاد بالوجود المستمر للأشياء ، فيقول : « ولنبداً بأن نلاحظ أن الصعوبة في هذه المسألة لا تتعلق بالأمر الواقع ، أو بما إذا كان الذهن يستخلص مثل هذه النتيجة المتعلقة بالوجود المستمر لإدراكاته ، وإنما تتعلق المسألة بالطريقة التى تُستخلص بها هذه النتيجة ، والمبادئ التى تستمد منها . فمن المؤكد أن البشر كلهم تقريباً ، بل والفلاسفة أنفسهم ، ينظرون إلى إدراكاتهم ، خلال الجزء الأكبر من حياتهم ، على أنها هى ذاتها موضوعاتها ، ويفترضون أن ما يمثل للذهن هو ذاته الجسم الحقيقى أو الوجود المادى »^(٢) . وإذا كان هيوم قد تحدث هنا عن البشر كلهم « تقريباً » ، والفلاسفة أنفسهم « في الجزء الأكبر من حياتهم » ، على أنهم يتصرفون عملياً حسب الموقف الطبيعى ، فلنضف إلى ما قاله أن هذا ينطبق على البشر كلهم بلا استثناء أى بكل من فيهم من فلاسفة ، وذلك خلال حياتهم كلها ، باستثناء لحظات التأمل .

H. H. Price. Hume's Theory of the External world (Oxford (١)

U. P. 1948) P. 10 - 13.

Treatise, P. 206, Part IV, § Section 2.

(٢)

المنعزل فى العالم من وجهة النظر المثالية (لأن التفكير فى حوار أو فى محادثة يفترض وجود الأذهان الأخرى ، وبالتالى وجود حقيقة خارج الذهن الفردى) — والتأمل المنعزل ، على أية حال ، لا ينتمى إلى التصرفات العملية .

ولنتأمل طبيعة « الفلسفة الترنسندنتالية » كما عرضها كانت ، فى ضوء رأينا القائل بأن المثالية مجرد لغة أو نظرة تفسيرية لا تؤثر فى الوقائع كما نتعامل معها عمليا . فالفلسفة الترنسندنتالية ، حسب تعريفها ، تبحث فى « شروط إمكان المعرفة » ومعنى ذلك أن محتوى المعرفة ذاته لا يمس فى هذه الفلسفة ، بل يدور البحث كله فى « شكلها » أو الشروط الممهدة لها — فالكرسى الذى أدركه يظل على ما هو عليه فى كل الحالات ، سواء نظرت إليه من وجهة النظر الطبيعية أو الترنسندنتالية ، وفهمى له وتصرفى إزاءه لا يتأثر على الإطلاق ، وإنما تنحصر المسألة كلها فى تحديد الشروط التى جعلت معرفتى له ممكنة . وحتى حين يتم الوصول إلى أن هذه الشروط ذاتية ، فلن يتغير شئ على الإطلاق ، بل ستتغير « اللغة » التى فسرته بها فحسب . وليس هذا ما يحدث فى حياتى الفعلية : فعند ما أكتشف مثلا أن ما ظننته شيئا هو قط أسود ، يتغير تصرفى الحالى ، فيعدم الخوف الذى كان يلازمنى ، وأستطيع أن أقرب من هذا القط وألمسه ، إلخ . وإذا اكتشفت أن ما أظنه نارا مشتعلة تحول بينى وبين السير إلى الأمام ، هو مجرد خيال أثارته حالتى المرضية ، فسأتابع سبرى إلى الأمام ، ويتغير سلوكى إزاء الموضوع تغيرا أساسيا . أما فى حالة اعتداء كانت على أن شروط المعرفة ذاتية فإن شيئا لا يتغير على الإطلاق ، ويظل كل شئ على ما هو عليه . ولقد كان كانت ذاته هو الذى أكد أن مثاليته لا تؤثر فى وجود الأشياء ، ولا تؤدى إلى القول بأن الطبيعة كلها خداع شامل ، بل تؤكد فقط

أن تمثلنا الحسى للأشياء يتم عن طريق الزمان والمكان ، وهما مجرد طرق للتمثل ، لا أشياء أو تحديدات كامنة في الأشياء ذاتها^(١) . بل إن كانت لينتقد ديكارت لشكه في وجود الأجسام خارجنا . وكل ما في الأمر أنه يود أن يفهم كلمة أجسام بمعنى « ظواهر » لأشياء في ذاتها ، وأن تفهم كلمة « خارجنا » بأنها تعنى الوجود في المكان ، لا خارج أفكارنا^(٢) . وهكذا ، فكل ما تؤدي إليه مثالية كانت هو الحديث عن الأشياء الخارجية بلغة « الظواهر » ، و « صور الحساسة أو الذهن » بدلا من لغة الأشياء في ذاتها أو الوجود خارج الذهن .

وهذا هو الفارق الأساسى بين « الانقلاب الكبرنيكى » الذى أحدثه كانت في الفلسفة وبين الانقلاب الكبرنيكى الحقيقى : فقد بدا في وقت ما أن نظريات كبرنك لم تحدث تغييراً فعلياً في علاقة الإنسان بالكون ، وإنما هي « تفسير » مخالف لما كان سائداً قبلها فحسب : أى أن علاقة الأرض بالشمس والمجموعة الشمسية والكواكب هي على ما هي عليه ، وتنبؤاتنا الفلكية مستمرة كما هي (إذ كانت التنبؤات الخاصة بالكسوف والخسوف ممكنة بدقة في ظل النظام البطليموسى) ، ولكن تفسيرنا للظواهر هو وحده الذى اختلف . ومع ذلك فما لا شك فيه أن كل التطورات العلمية التالية قد أيدت رأى كبرنك ، وأصبحت المسألة في وقتنا الحالى تزيد على مجرد فرض تفسيرى ، وأصبح القول بأن الأرض هي الثابتة متعارضاً مع عدد هائل من الوقائع العلمية المؤكدة . وهكذا أصبح الانقلاب الكبرنيكى ، في ميدان الفلك ، يمثل تغييراً نظرياً وعملياً في الآن نفسه ويؤدي إلى اختلاف أساسى في طريقة تعاملنا مع موضوعات علم الفلك . أما في ميدان الفلسفة ، فماذا كانت

Prolegomena. § 13, Note 3.

(١)

Ibid, § 49.

(٢)

ذلك « الانقلاب الكبير نيكى » الذى أحدثه كانت فى نظرية المعرفة ، حين جعل الأشياء تدور حول الذات بدلا من أن تدور الذات حول الأشياء ؟ لا شئ من وجهة النظر الفعلية : فلم يطرأ على موقف الفلاسفة أو العلماء ، أو الناس العاديين ؛ من العالم الخارجى تغيير ، ولم يحدث فى « محتوى » معرفتنا بذلك العالم أدنى تحول . ولم تكن المسألة ، كما قال كانت ذاته ، وكما أشرنا من قبل ، إلا « فرضا » نجرب به طريقة أخرى لتفسير الأشياء : فرضا نجرب به المنهج الذى أدى إلى جعل الرياضة والطبيعة علمين دقيقين ، على الميتافيزيقا ، وعلى نظرية المعرفة بوجه خاص . « فقبل الآن كان الفرض السائد هو أن معرفتنا ينبغى أن تطابق الأشياء . ولكن كل محاولة لتوسيع نطاق معرفتنا بالأشياء عن طريق إيجاد شئ متعلق بها « أوليا » ، بواسطة التصورات ، كانت تنتهى على أساس هذا الفرض إلى الإخفاق . لذا كان من واجبنا أن نرى إن كنا نحز نجاحا أعظم فى ميدان الميتافيزيقا إذا افترضنا أن الأشياء ينبغى أن تتفق مع معرفتنا » (١) .

وعلى أية حال ، فإن الفرض الذى يتخذ من الذات ، أو من طريقة معرفتنا لا من الأشياء ، نقطة بداية ، يؤدى إلى نتائج ممتعة من وجهة النظر المنطقية ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل . وليس أدل على مدى تعارض هذا الفرض مع الموقف الطبيعى من أنه يثير أسئلة تبدو فى نظر ذلك الموقف غريبة حقا : مثل : « كيف تكون الطبيعة ممكنة » (٢) ؟ وهنا تصبح الطبيعة فى حاجة إلى مبرر ، وتكون وسيلة إمكان الطبيعة — تبعا لرد كانت على هذا السؤال — هى التركيب الخاص لحساسيتنا وذهننا . ومن الطبيعى أن يتبادر السؤال التالى إلى ذهن المرء بعد ذلك مباشرة : وكيف يكون تركيب حساسيتنا وذهننا ممكنا ؟

فيكون الرد غير المقنع الذى يأتى به كانت : « هنا تتوقف الحلول والإجابات ، إذ أن هذه الأمور [أى الحساسية] إلخ هى التى ينبغى أن نلجأ إليها دائما من أجل كل إجابة وكل تفكير عن الأشياء »^(١) .

وهكذا يقدم كانت حلا دائريا واضحا للمشكلة ، أى أنه إذا سئل : كيف تكون الطبيعة ممكنة ؟ أجاب : لأن تركيبنا من شأنه أن يسمح بإمكانها . وإذا سئل . وكيف يكون تركيبنا ممكنا ؟ أجاب : لأنه هو الذى يسمح بإمكان الطبيعة (أو تجربتها) !

وهكذا يقدم كانت فرضا تفسيريا محضا لا يغير من محتوى المعرفة على الإطلاق ، وحتى من حيث الشكل ذاته يثير ذلك الفرض أسئلة مفرطة الطموح مثل السؤال عن كيفية إمكان الطبيعة ، وهو السؤال الذى يفترض أن الذات هى الثابتة والطبيعة هى التى تحتاج إلى مبرر ؛ ولكنه يعجز عن المضى فى التبريرات الشكلية للفرض الذى وضعه ، ويطلب منا أن نسلم مقدما بأمور معينة — لا يستطيع المرء أن يمتنع عن التساؤل عنها — حتى يتسنى له المضى فى فرضه إلى النهاية، فتكون النتيجة إخفاقا للفرض حتى من الناحية الشكلية ذاتها .

* * *

ومما يؤيد القول بأن المثالية موقف تفسيرى لا يغير شيئا من محتوى المعرفة البشرية بالعالم الخارجى ، ظاهرة تهرب كثير من المثاليين من مذهبهم ، وحرصهم على إخفاء الوجه المثلث لذلك المذهب ، والظهور بمظهر مخالف لحقيقته .

فالمحاولات التى بذلها « كانت » لنقد المثالية معروفة ، وهو يحرص على تنفيذ « المثالية المادية » بنوعها : الإشكالية Problematic والتوكيدية

dogmatic^(١) ، ويؤكد أن وجود الموضوعات الخارجية أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، بشرط أن تفهم على أنها « ظواهر » لا أشياء في ذاتها — أى أنك تستطيع أن تحتفظ بكل آرائك ومعارفك عن الأشياء الخارجية ، وتعاملها دائماً على نفس النحو ، وكل ما هو مطلوب منك هو أن تفسرها من خلال لغة « الظواهر » لا « الأشياء في ذاتها » . وعلى أية حال فقد نظر كانت إلى فلسفته ذاتها على أنها تمثل نوعاً آخر من المثالية الترنسندنالية أو النقدية ، وهى مذهب يؤكد مثالية « شروط المعرفة » ، ويدّعى كل شيء على ما هو عليه بشرط أن يفهم من خلال شروط المعرفة المثالية هذه . وكما أوضحنا من قبل ، فليس الفارق بين مثالية كانت والأنواع الأخرى التى انتقدها من المثالية خطيراً إلى الحد الذى يبرر نظر كانت إليها على أنها مذهب « يفنده » مذهبه الخاص فى المثالية .

كذلك ينتقد شوبنهاور مثالية فشته الذاتية ، ويؤكد أن مذهبه ليس مادياً ولا مثالياً^(٢) — هذا فى الوقت الذى ينطق فيه كتابه « العالم إرادة وتمثلاً » بلغة المثالية منذ أول جملة فيه ، وفى الوقت الذى انتقد فيه كانت لأنه حذف فى الطبعة الثانية من « نقد العقل الخالص » كثيراً من الأفكار « المثالية » التى تضمنتها طبعته الأولى^(٣) . وعلى أية حال فإن شوبنهاور يؤيد الرأى الذى نقول به تأييداً أوضح إذ يقول « إن المثالية تترك الحقيقة التجريبية للعالم دون مساس »^(٤) وكل ما فى الأمر أن معنى موضوعية ذلك العالم لا يفهم إلا من خلال الذات .

ومثل هذا الموقف ، الذى كان فيه دون شك متأثراً بتعاليم كانت ، يدل على إدراك ضمنى للطبيعة التفسيرية لمذهبه الخاص فى المثالية . وإذا كنا نصف المثالية هنا بأنها لغة أو تفسير لا يمس محتوى المعرفة بل يمس

شكلها فحسب ، ولا يؤثر آخر الأمر في تعاملنا الفعلى مع الأشياء ، فإن هذا يتضمن نقدًا للاتجاهين : الاتجاه القائل إن المثالية تؤدي إلى نوع جديد من المعرفة بالأشياء ، والاتجاه القائل إنها تعوقنا عن معرفة الأشياء .

أما عن الاتجاه الأول ، فمن الواضح ، من كل ما ذكرنا في هذا الفصل ، أن تعامل الفعلى مع موضوعات العالم الخارجى سيظل على ما هو عليه سواء أكنت مثاليًا أم ماديًا . ولن يستطيع أحد أن يجد فارقا بين صاحب المذهب المثالى وصاحب المذهب المادى فى نظرتة إلى الشمس أو البحر أو الجبل أو المنضدة من حيث هى أشياء يتعامل معها (ولنكرر هنا ما قلناه من قبل من أن الفلاسفة يبحثون فى موضوعات الموقف الطبيعى ، أو فى العالم الأكبر المنظور والملموس ، ولا يمكنهم اتخاذ الموقف العلمى إلا بطريقة غير مباشرة ، وبعملية اقتباس مستمدة من مجال العلم . وعلى العموم فمثل هذه الموضوعات أو الأشياء السابقة هى التى كان الفلاسفة المثاليون يحاولون إثبات مثاليتهما) . وسيظل كل منهما يسلك نحو هذه الأشياء نفس السلوك ، ويفهمها نفس الفهم ، وإن يكن « يفسرها » بلغة مختلفة .

ونفس هذا الرد ينبغى أن يوجه إلى أصحاب الاتجاه الثانى . فالمثالية ، من حيث هى نظرية فى معرفتنا لموضوعات العالم الخارجى ، لا تعوقنا عن معرفة شىء . وهى لا تنكر أى موضوع من موضوعات ذلك العالم ، ولكنها تفسره بلغة مختلفة فحسب . ولم يحدث أن قال شخص من المتأثرين بالمثالية : إن هذا الجبل صورة فى ذهنى ، أو راجع إلى صورة كهذه ، فليس هناك ما يدعونى إلى كشفه أو ارتياده . ففى مجال التعامل مع الأشياء الواقعية تستوى المثالية والمادية معا ، ولا ينعكس رأى أى مذهب منهما على سلوك الإنسان الفعلى مع هذه الأشياء ، أو على درجة معرفته لها .

وإذا كنا قد اتخذنا هنا موقفا مضادا للمثالية على الدوام ، فليس هذا راجعا

إلى اعتقادنا بأنها تعوق معرفتنا بالعالم الخارجى أو تؤثر فيها على أى نحو من الأنحاء، وإنما لأنها تقدم تفسيراً « يتناقض » مع سلوك الإنسان الفعلى : أى لأن الإنسان لا يستطيع أن يسلك فى هذا العالم إذا حاول أن يطبق الآراء المثالية على سلوكه هذا تطبيقاً حرفياً : فهناك إذن « هوة » بين الآراء المثالية النظرية وبين سلوك الإنسان الفعلى — وهى هوة أشار إليها الفلاسفة المثاليون أنفسهم حين أكدوا أن الإنسان ، والفيلسوف نفسه ، يعيش فى « معظم » أوقات حياته حسب الموقف الطبيعى ، ويسلك كما لو كانت الأشياء ذات وجود خارجى بالفعل .

لهذا السبب كان اعتراضنا على المثالية رغم كونها لا تؤثر فى « محتوى المعرفة » أدنى تأثير . ولكن هل يعنى هذا أن الموقف المثالى لا تأثير له على الإطلاق ؟ وهل يعنى ذلك أن اتخاذ فيلسوف معين لهذا الموقف إنما هو مجرد اختيار اعتباطى لا يعبر عن شىء ؟ وهل الفارق بين الموقف المثالى والموقف الطبيعى فارق فى الشكل أو فى لغة التفسير ، ولا ينعكس على المجال العمل على أى نحو من الأنحاء ؟

ليس هذا ما نرمى إليه على الإطلاق . فللمثالية من حيث هى موقف فلسفى ، تأثير فعلى ، وهى تعبر فعلاً عن شىء ، بل إن لها أصداء عملية غاية فى الأهمية ، ولكن هذا الصدى أو التأثير يتعلق « بالإنسان » نفسه . وهذا هو موضوع الفصل التالى من هذا البحث .

المثالية والإنسان

قد يبدو ما نقوله هنا من أن للمثالية تأثيرات عملية هامة مناقضا لما قلناه في الفصل السابق من أن المثالية لا تؤثر في مواقف الإنسان العملية أدنى تأثير. ولكن الواقع أن المقصود بالمواقف العملية في الفصل السابق هو تعامل الإنسان مع موضوعات العالم الخارجى ، بمختلف الصور المعرفية والسلوكية لهذا التعامل. أما في الحالة الأولى — التى هى موضوع هذا الفصل — فالمقصود من التأثيرات العملية للمثالية هو تأثيرها فى الإنسان نفسه ، ولا سيما فى مواقفه الأخلاقية واتجاهاته الاجتماعية ، إلخ . فليست للمثالية نتائج عملية من حيث مدى معرفة الإنسان بالعالم الخارجى أو تصرفه مع موضوعات هذا العالم من حيث هى موضوعات لمعرفته، ولكن لها نتائج عملية هامة من حيث سلوك الإنسان الأخلاقى وتعامله مع بقية الناس .

ولقد أوضحنا من قبل رأينا القائل إن المثالية مجرد لغة وتفسير للوقائع . لا يتناول محتوى معرفتنا لهذه الوقائع ، وذكرنا كيف أن هذه اللغة تتناقض مع التصرف العملى للإنسان — بوجه عام — بالنسبة إلى موضوعات العالم الخارجى ، أى أننا بينا أن اللغة المثالية ليست هى التى تصلح للتعبير عن العلاقة الفعلية للإنسان بالعالم الخارجى : والمشكلة التى نعالجها فى هذا الفصل هى : ما الذى يدعو الإنسان إلى استخدام هذه اللغة المثالية ؟ وما نتائج هذا الاستخدام بالنسبة إلى المثالى ؟ بل ما هى الدلالة الأصلية لاختيار فيلسوف ما لمثل هذه اللغة ؟

ولا شك فى أن كشف العوامل التى تدعو فئة معينة من الناس إلى اتخاذ

الموقف المثالى هو ، فى رأينا ، من أهم الموضوعات التى تستحق البحث فى صدد هذه الفلسفة ، لأن كل ما تدعيه من تغيير لصورة العالم لا يطابق أى شىء فى الواقع ، ولا يؤدى إلا إلى تغيير داخلى فى الإنسان فحسب . فما هو إذن هذا التغيير ؟

إن المثالية فى رأينا تعبير عن موقف معنوى أو أخلاقى (moral) ، بأوسع معانى هذه الكلمة ، وليس تعبيرها المعرفى أو الميتافيزيقى إلا نتيجة لهذا الموقف المعنوى للإنسان — نتيجة ينبغى أن تكون لها المرتبة الثانية لا المرتبة الأولى . ومن الملاحظ أن مؤرخ الفلسفة — متأثراً فى ذلك بالفيلسوف المثالى نفسه — يصور الأمر كما لو كانت النظريات المعرفية أو الميتافيزيقية للمثالى تظهر أولاً ، ثم تُستخلص منها نتائج عملية أخلاقية فيما بعد . ولكن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك : فالمثالية من حيث هى نظرية معرفية أو ميتافيزيقية مناقضة للموقف الطبيعى للإنسان . وبوصفها مذهباً يتنافى مع إمكان تعامل الإنسان مع العالم الخارجى ، لا يمكن أن تظهر « تلقائياً » فى ذهن الإنسان ، بل لا بد أن قوة « معنوية » معينة هى التى تدفع الإنسان إلى تجاهل ميله الطبيعى إلى معاملة العالم الخارجى على أنه خارجى بالفعل ، وتجعله يقول بمثل هذا المذهب الذى يتعارض تطبيقه العملى فى مجال المعرفة ، مع إمكان تعامل الإنسان مع العالم ومع بقية الأذهان . لا بد أن نوعاً معيناً من الأخلاق أو من النظرة إلى مجتمع الناس هى التى تدفع الإنسان إلى القول بهذا المذهب . ومن الجلى أن هذه الأخلاق ، وهذه النظرة إلى المجتمع ، ينبغى أن يكون لها صلة بالزهد ، وباحتقار العالم المادى : إذ أن المثالية تنكر الوجود المادى للعالم الخارجى ، وتؤكد أنه يوجد — بمعنى ما يختلف من مذهب إلى آخر — فى الذهن ، وهو عادة مرتبط بالنفس ، أو بالروح ، أو بالمبدأ غير المادى وغير الجسمى فى الإنسان . فإذا أصبح كل شىء « ذهنياً » بمعان مختلفة أيضاً — فلا شك فى أن هذا يؤدى إلى

دعم نوع معين من الأخلاق ، ونوع معين من تقويم الإنسان ومجتمعه — هذا النوع من الأخلاق ومن التقويم هو القوة الأولى الدافعة إلى ظهور المثالية ، وليست النظريات المثالية المعرفية أو الميتافيزيقية إلا نتيجة لا حقة له ، وتأيدًا تاليًا لاتجاهه .

* * *

ومن الجلى أن الأمثلة التى سنختارها لتأيد هذا الرأى ينبغى أن تبدأ بأفلاطون : فعند أفلاطون يظهر أول — وربما أوضح — ارتباط بين القول بمثالية المعرفة ، وبين نزعة أخلاقية ومعنوية معينة ، يمكن وصفها عمومًا بأنها زاهدة .

ونستطيع أن نقول إن محاورة « فيدون » تمثل بأسرها تأيدًا مفصلاً للرأى الذى نقول به ها هنا — ففى هذه المحاورة تعبير واضح عن ارتباط الخط من دور الحواس فى المعرفة ، وبالتالى الخروج عن الموقف الطبيعى ، بالاعتقاد بضرورة ضالة دور الحواس فى حياة الإنسان المعنوية ، وباحتقار الحس والجسم بوجه عام . وفى فيدون يتحدث أفلاطون عن الحواس بوصفها شواهد غير دقيقة فى اكتساب المعرفة ، وذلك « فى سياق » حملته على الجسم ودعوته إلى تخلص النفس من شروره « فالوجود الحقيقى يتكشف للنفس فى الفكر والفكر يكون أصلح ما يكون عند ما ينطوى الذهن على ذاته ولا يعكر صفوه شىء من هذه الأشياء كالمسموعات أو المراتيات أو الألم أو اللذة — وعندما تنصرف النفس عن البدن ، ولا تربطهما به إلا أدنى صلة ، ولا تعود لديها حاسة أو رغبة جسدية ، بل تصبو إلى الوجود الحق ^(١) وهنا يظهر الارتباط والامتزاج واضحًا بين الدعوة إلى تأكيد دور الفكر فى المعرفة — وهى القضية التى يرتد إليها كل مذهب مثالى — وبين نوع من الاحتقار الأخلاقى للحس وللجسم . وهذا الارتباط أمر معترف به لدى

أفلاطون، ولكن الأمر الذى لا يعترف به بمثل هذا القدر من الشيوع هو الارتباط السلبي بين هاتين الظاهرتين. فعلى عكس النظرة الشائعة إلى الوجه الأخلاقى أو الاجتماعى لفلسفة ما على أنه ثمرة للتفكير النظرى فى هذه الفلسفة ، نود هنا أن نؤكد أن التفكير المثالى النظرى لم يكن إلا نتيجة لمذهب أخلاقى أو اجتماعى معين ، وأن الاحتقار المعنوى للحس وللجسم قد تولدت عنه محاولة نظرية للإقلال من شأن الحواس فى المعرفة ، ولإنكار وجود حقيقة أصيلة للجسم ، وبالتالي للأجسام الأخرى ، وللعالم الخارجى بأسره .

ولنضرب مثلاً آخر لفكرتنا هذه فى فلسفة ديكارت. ففي الجزء الرابع من المقال فى المنهج، حين يعرض ديكارت شكه المنهجى الذى أدى به فى نهاية الأمر إلى الكوجيتو ، ترد تلك العبارة ذات الدلالة البالغة : « رأيت أننى أستطيع أن أتصور نفسى بغير بدن ، وبغير عالم أو مكان أكون فيه » . وهنا لا يستطيع الإنسان الذى يحتفظ بقدر من سلامة الموقف الطبيعى إلا أن يهتف : كيف ؟! وعلى أى أساس ؟! من هذا الذى يستطيع أن يتصور نفسه بغير بدن ، وبغير عالم وبغير مكان يوجد فيه ؟ أهو إنسان ؟ محال ! إن الذهن الإنسانى ليستبعد تماماً إمكان تصور هذه الحالة ، حتى لو كان المقصود من هذا التصور حالة من الشك الافتراضى الذى سَيُتجاوز فيما بعد . فليس فى وسع الذهن أن يتصور ذاته — حتى من حيث هو مفكر فحسب — إلا من حيث هو مرتبط بالإنسان كله ، من عقل وجسم معاً ، ومن حيث هو ناتج عن الطبيعة الكاملة للإنسان الحاضر ، بكل ما فيها من عناصر .

فكيف إذن تسنى لديكارت ، بهذه البساطة ، وبهذه الجرأة ، أن يصرح بهذه القضية الخطيرة جداً ، والمشكوك فيها إلى أبعد حد ؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا على أساس وجود رأى مثالى سابق ، ذى طبيعة أخلاقية أو معنوية ، ينطوى على نوع من الإقلال من شأن الجسم إلى الحد الذى يتيح التفكير فى

استبعاده^(١) وعلى أية حال ، فإن وجود مثل هذا الاستعداد المعنوى لدى ديكارت واضح كل الوضوح فى موقفه النهائى فى مشكلة العالم الخارجى ، الذى لم يعترف به ديكارت — كما لاحظنا من قبل — إلا بعد ارتكازه على الإيمان « بالصدق الإلهى » ، وهو أساس يدخل ، فى واقع الأمر ، فى باب المواقف المعنوية العملية أكثر مما يدخل فى باب الحجج العقلية .

أما فلسفة باركلى ، فإنها تحفل بالبراهين على القضية التى نحاول إثباتها ، ومن هنا كنا نستطيع أن نعدها حالة نموذجية فى الفلسفة المثالية بوجه عام .

ففى كتاب « محاورات بين هيلاس وفيلونوس » يوضح باركلى الفارق بينه وبين سائر المؤمنين بالمسيحية ، من خلال فكرته القائلة إن الله يدرك صور الأشياء وأنها توجد فيه ، فيقول « إن الناس يعتقدون عادة أن الله يدرك أو يعرف جميع الأشياء ، لأنهم يؤمنون بوجود الله ، أما أنا فأستنتج وجود الله مباشرة وبالضرورة ، لأن كل الأشياء المحسوسة ينبغى أن تدرك بواسطته »^(٢) فى هذا النص يصور باركلى الأمر كما لو كانت فكرة الله فى فلسفته نتيجة لوجوب وجود كائن يدرك الأشياء المحسوسة حين تغيب عن إدراكنا ، حتى يحفظ لها دوام بقائها . أى كما لو كان الموقف المعنوى — الذى ينتمى إليه الإيمان بفكرة الله وما يرتبط بها من مواقف أخلاقية — « نتيجة » للرأى النظرى الذى قال به باركلى بشأن وجود الأشياء الذى لا يمكن أن يكون إلا كونها

(١) ولنلاحظ أيضاً أن مجرد التفكير فى إمكان أن أكون بغير جسم ، وبغير مكان أو عالم أوجد فيه ، ينطوى فى ذاته على كل الاستنتاجات الديكارتية التالية ، ويمكن أن نستخلص منه أكثر المواقف المثالية تطرفاً ، وهكذا يتضح أن شك ديكارت ، لم يكن محايداً أو منهجياً بالمعنى العلمى لهذه الكلمة ، بل كان شكاً « متحيزاً » ينطوى مقدماً على النتيجة التى سيتم التوصل إليها فيما بعد .

مدركة . وفى رأى أن عرض باركلى لفلسفته على هذا النحو مضلل إلى حد بعيد ، إذ أن آراءه النظرية التى تربط وجود الأشياء بكونها مدركة ، كانت هى ذاتها نتيجة لآرائه الأخلاقية والدينية ولموقفه المعنوى بوجه عام . وليس من العسير على الإطلاق الإتيان بأمثلة متعددة من كتابات باركلى تثبت أن التسلسل الصحيح لتفكيره بدأ من الموقف المعنوى — ولا سيما الدينى وما يرتبط به من أخلاق — إلى التفكير النظرى المثالى ، لا العكس .

ففى تصدير كتاب « مبادئ المعرفة البشرية » ، يحدد باركلى الغرض من كتابه هذا قائلاً إن ما ورد فيه من الآراء مفيد « وخاصة لأولئك الذين تساورهم روح الشك ، أو يحتاجون إلى برهان على وجود الله ولا ماديته ، أو الخلود الطبيعى للنفس »^(١) . وإذن ، فالهدف الذى وضعه باركلى لنفسه من كتابه الرئيسى هذا ينتمى فى الأساس إلى المجال الدينى ، وهو القضاء على الشك فى وجود الله ولا ماديته ، وخلود النفس . ويبدو منذ بداية الكتاب أن باركلى كان يريد أن يجعل لفكرة الله دوراً مستمراً ، فمهد الطريق لذلك بفكرة « وجود الشيء هو كونه مدركاً » ، بما تنطوى عليه من ضرورة الإدراك الإلهى المستمر .

وكثيراً ما كان باركلى يؤكد الارتباط بين « الإلحاد » وبين فكرة وجود الجوهر المادى (وكان الاعتقاد السائد فى الموقف الطبيعى بوجود مثل هذا الجوهر يؤدى بدوره إلى الإلحاد !) . فإذا كان الملحدون فى رأيه يجدون فى هذه الفكرة عوناً كبيراً ، أليس لنا أن نشك فى أن الأصل فى نقد « الأسقف » باركلى لفكرة وجود العالم الخارجى بصورته المعروفة فى الموقف الطبيعى كان راجعاً إلى دوافع متمية إلى المجال المعنوى ، لا إلى المجال الفلسفى بالمعنى

الدقيق ؟ ويزداد موقف باركلي وضوحاً حين يقول « عندما يرى أصحاب المبادئ الأفضل أن أعداء الدين يولون مثل هذا الاهتمام الكبير للمادة غير المفكرة ... فلا شك في أنهم يطربون إذ يرونهم قد حرّموا من سنّدهم الأكبر وُضردوا من تلك القلعة الوحيدة التي ما كان يتسنى للأبيقوريين وأنصار هُبنز وأمثالهم أن يستندوا إلى حجة واحدة بدونها »^(١) .

ولم يكن باركلي على استعداد لمهاجمة الاعتقاد بوجود العالم الخارجى وحده لدعم موقفه الدينى ، بل كان أيضاً على استعداد لمهاجمة كل علم متفرع عن ذلك الاعتقاد ، بل كل معرفة ذات صبغة مستقلة عن الروح الدينية . وإذا كانت مهاجمته لفكرة وجود العالم الخارجى تتخذ شكل حجج يعترف بها الفلاسفة ، فإن مهاجمته للعلوم لم تكن قائمة على أى أساس يقبله العلماء أنفسهم . ومنها يظهر بكل وضوح أن هدفه الأسمى كان دعم الإيمان بالصورة التى ارتآها هو ، وفى سبيل هذا الخذف هاجم كل ما اعتقد أنه يضر بهذا الإيمان ، ولو كان ذلك أرسخ العلوم فى عصره . فهو فى الجزء الأخير من « مبادئ المعرفة البشرية » يحمل على الوضع السائد فى الفلسفة الطبيعية والرياضيات ، ويرى ضرورة تكملة آراء نيوتن بنظرة أخرى إلى العالم من خلال « الروح » ، تنكر المكان المطلق ، والزمان المطلق ، والحركة المطلقة ، حق لا يكون فى هذه الأفكار ما يؤدى إلى الاعتقاد بوجود مطلق للعالم الخارجى^(٢) . وعلى هذا الأساس نفسه يهاجم الرياضيات بنفس العنف^(٣) بل إن الأمر يصل به فى بعض الأحيان إلى حد القول بأن رأيه هذا هو الذى

Ibid. Ist. Fart. § 93.

(١)

انظر أيضاً الأقسام التالية ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

Ibid. § 101 - 117.

(٢)

Ibid. 118 - 133

(٣)

يتمشى مع « الأناجيل المقدسة »^(١) ، وكأن المنتمين إلى عقائد أو أديان أخرى ليس لهم أى مكان فى مذهبه ، أو ليست لهم معرفة على الإطلاق ! .
ونستطيع أن نقول إن كتاب (Alciphron) ليس إلا محاولة للدفاع عن وجهة النظر المسيحية فى النواحي الأخلاقية واللاهوتية ، وهو دفاع يظهر منه بوضوح أن النزعة الدينية كانت لديه أقوى من النزعة الفلسفية ، وأن أفكاره العقلية لم تكن إلا محاولة لتبرير إيمانه . وبالمثل يهاجم باركلى يقينية الرياضة فى كتابه (The Analyst) ولا يُخفى أن سبب خصومته لهذا العلم هو إيمانه الذى لا يريد أن يناقسه فى اليقين شئ . أما فى (Siris) ، فينصب النقد على العلم الطبيعى السائد فى عصره ، ويحتشد الكتاب بآراء صوفية مضادة تماماً للروح العلمية الأصيلة (مع ملاحظة أن الكتاب قد ظهر فى عام ١٧٤٤ ، وأن أواسط القرن الثامن عشر كان نقطة بداية الحركة العلمية الضخمة التى دفعتها إلى الأمام أفكار نيوتن) .

وهكذا يريد باركلى للعالم أن يكون مظهرًا للروح تدب فيه ، فتصور أن إدراكنا كلها نابعة عن الله الذى يبعثها فىنا ، بحيث تصبح الأشياء ، وأذهاننا فى حاجة دائمة إلى الروح الإلهية وعلى صلة مستمرة بها . وفى سبيل ذلك يفضل تصوير الشعوب القديمة للعالم على أنه حيوان حى ، بوصفه تصويرًا أكثر روحية ، ويمهد مباشرة لتصوير العالم على أنه يحيا بالروح الإلهية العاقلة المنبثة فيه^(٢) . ويصل إلى قمة التصوف حين يقول « لا الحامض ولا الملح ولا الكبريت ولا الهواء ولا الأثير ولا النار الجسمية المنظورة ، ولا شبح القدر أو الضرورة ، هو الفاعل الحقيقى ، بل إننا نصعد ، عن طريق تحليل مؤكد ،

Dialoges P. 452.

(١)

Siris. § 276.

(٢)

وارتباط وارتقاء منتظم ، من خلال كل هذه الوسائط إلى إدراك لمحة عن المحرك الأول ، غير المنظور وغير الجسمي وغير الممتد ، الذى هو المصدر العقلى للحياة والوجود »^(١) .

وإذن ، فلم تكن المسألة عند باركلى مسألة تفكير نظرى حول طبيعة المعرفة أو طبيعة العالم الخارجى ، يُستخلص منه رأى معين فى فكرة الله أو نتائج معينة فى الأخلاق ، كما حاول باركلى أن يقنعنا فى النص الذى أوردناه فى بداية الحديث عنه ، وإنما كانت نقطة بدايته موقفا معنويا معنا ، يتضمن عناصر دينية وأخلاقية واجتماعية ، إلخ . . هو الذى أملى عليه الاتجاه المثلث الذى سارت فيه فلسفته النظرية فى ميدان نظرية المعرفة والميتافيزيقا . ولنختم هذه المناقشة بإيراد الفقرة الأخيرة من كتاب « مبادئ المعرفة البشرية » ، وهى فقرة يُستخلص منها بوضوح الهدف الأصيل لفلسفته : « إن ما يستحق المكان الأول من دراستنا هو البحث فى الله وفى واجبنا ؛ ولما كان القيام بذلك البحث هو الدافع والهدف الأول لأعمالى ، فإنى سأعد هذه الأعمال عقيمة لا جدوى منها إن لم أثير فى قرائى ، بما قلته ، إحساسًا ورعًا بحضور الله ، وإن لم أتمكن ، بإظهار زيف أو عقم تلك الأبحاث التى ينصرف إليها رجال العلم ، من أن أجعل هؤلاء أكثر استعدادًا لاحترام حقائق الكتاب المقدس المباركة والإحاطة بها — وهى حقائق تسمو معرفتها وممارستها بطبيعة البشر إلى أشرف مراتب الكمال »^(٢) .

ولنشر أخيرًا إشارة موجزة إلى كانت ، فننبه إلى ما صرح به فى كثير من كتاباته من أن الاعتبار الأخلاقية كان لها المقام الأول فى تفكيره . ومن أمثلة ذلك قوله : « من الواضح أن الغاية القصوى للطبيعة فى نعمتها الحكيمة علينا

Ibid. § 296.

(١)

Principles ... § 156.

(٢)

موجهة ، فى تركيب الذهن ، إلى الاعتبارات الأخلاقية وحدها^(١) » بل إنه يحدد هدفه فى مقدمة نقد العقل الخالص بكل وضوح على أنه تضيق المجال المتاح للعقل النظرى — وهو هدف سلبى — لكى يتسع المجال أمام العقل العملى — وهو الهدف الإيجابى . ويشبه مهمة النقد فى هذا الصدد بمهمة الشرطة ، التى تبدو فى ظاهرها مهمة سلبية ، وهى منع الجريمة ، ولكنها فى واقع الأمر إيجابية إذ تتيح للناس الاستمرار فى أعمالهم فى اطمئنان . ويحدد موقفه بوضوح تام إذ يقول « لذلك وجدت لزما على أن أنكر المعرفة حتى أفسح الطريق للإيمان وإن التوكيدية الميتافيزيقية ، أى الرأى الذى يجزم مقدما بإمكان المضى فى الميتافيزيقا دون نقد سابق للعقل الخالص ، إنما هى مصدر كل ذلك الافتقار إلى الإيمان ، الذى هو دائما مفرط فى التوكيدية ، والذى يشن الحرب على الأخلاقية »^(٢) . وهنا يحق لنا أن نتساءل : إلى أى حد يكون من المثمر بحث فلسفة كانت من خلال هذا الترتيب الذى قدمه كانت ذاته ، والذى طالما تجاهله عارضو فلسفته — أعنى بحثها على أساس أن نقطة بدايتها هى الأخلاق ، وأن الآراء النظرية فيها وسيلة قصد بها تبرير أسبقية العقل العملى فحسب ؟

ألا نكون قد أطعنا تعاليم كانت ذاته إذا عاجلنا فلسفته على أن التفكير النظرى فيها قائم على أسس غير نظرية ، وأن غرضه الأسمى كان إثبات أولوية العقل العملى ، وفى سبيل ذلك وضع للعقل الخالص حدودا لا يستطيع تجاوزها وأكد أن القضايا الميتافيزيقية الرئيسية لا تحل إلا على مستوى العقل العملى (وفكرة وجود حدود للعقل الخالص هى — كما هو معروف — المركز الذى تتجمع حوله كل آراء كانت فى التفرقة بين الظواهر والأشياء فى ذاتها ، وفى

Critique, B. 829.

(١)

Critique, B. XXX.

(٢)

إرجاع صور الحاسية ومقولات الذهن إلى أصل ذاتي .

* * *

ولو تتبعنا نوع الموقف « المعنوى » الذى يرتبط بالمذاهب المثالية لوجدنا أنه — منذ أفلاطون حتى آخر المثاليين — موقف ينطوى على نوع من الاحتقار لشأن الجسم وللعالَم المادى بأسره . ومن أصعب الأمور أن يتسنى للمرء الاهتداء إلى حالة واحدة لفيلسوف له آراء مثالية وأفكار غير زاهدة — بالمعنى الواسع لهذه الكلمة — فى المجال العملى . وهكذا نستطيع أن نقول إن التشكيك فى الخواس وفى وجود العالم الخارجى من جهة ، والموقف المعنوى المضاد للعالم المادى وكل محتوياته الفعلية من جهة أخرى ، هما أمران يرتبطان سوياً ارتباط النتيجة بالسبب : أى أن أفلاطون نظر إلى عالم الظاهر على أنه خداع « لأنه » كان يؤمن بالزهد الأخلاقى وبما يرتبط به من أفكار اجتماعية منازرة . وباركلى أنكر مادىة العالم الخارجى « لأنه » أراد دعم الدين ونظر إلى هذه الفكرة — صواباً أو خطأ — على أنها تقف فى وجه الدين . وكأنت وصف العالم الخارجى بأنه عالم ظواهر « لأنه » أراد أن يفسح مجالاً للأخلاق المطلقة لفكرة وجود الله وخلود النفس فى العقل العملى الذى لا يتقيد بحدود عالم الظواهر كما نعرفه ، وشوبنهاور أكد أن العالم « تمثلى » ، وأن المبادئ المتحركة فى إدراكنا له ناشئة عن الذات « لأنه » كان يدعو إلى نوع من الزهد وإنكار إرادة الحياة على نحو لا يمكن معه أن يكون هذا العالم إلا خداعاً ظاهرياً .

والمشكلة فى هذا كله هى أن الفلاسفة كانوا فى معظم الأحيان يعرضون آراءهم بالترتيب العكسى ، كما لو كانوا قد توصلوا إلى أفكارهم النظرية أولاً ثم « استخلصوا » منها ما يتسق معها من النتائج العملية ، وهدفهم من ذلك ، ولا شك ، هو إظهار مذاهبهم بمظهر منطقى صرف : بحيث تكون اعتبارات التفكير النظرى هى وحدها التى أملت عليهم آراءهم فى صورة العالم ، بل فى

الميدان العملى ذاته . وربما كان الفيلسوف ذاته غير واع بالأصول الحقيقية لتفكيره فى كثير من الأحيان ، وحتى لو أدرك بعضها ، فعليه أن يتبع العرف الشائع لدى الفلاسفة ، الذى كان دائما ينطوى على احترام للتفكير النابع من أصول نظرية خالصة ، بل على اعتقاد بأن الفلسفة الحققة لا تعمل حسابا لأى اعتبار سوى الاعتبارات النظرية الخالصة . وهكذا يظهر التفكير الفلسفى كأنه كان كله عملية واعية لا ترجع إلى أى أصل سوى مقتضيات التفكير المنطقى — وهو مظهر للفلسفة يعجز المرء معه عن تفسير ذلك التنوع الهائل بين المذاهب، وهو التنوع الذى لا يمكن أن يكون راجعاً إلى اعتبارات المنطق وحدها ، كما يعجز عن تفسير ذلك الميل الدائم إلى الخروج عن الموقف الطبيعى ، وقبول التناقض بين التفكير النظرى والسلوك العملى ، والقول بآراء عن طبيعة العالم الخارجى لا تؤثر على الإطلاق فى موقف الإنسان الفعلى من ذلك العالم .

وهناك ملاحظتان ينبغى أن نلفت إليهما الأنظار فى ختام هذا الفصل : الأولى هى أن « الموقف المعنوى » الذى نقول إنه سبب الأفكار النظرية المثالية وأصلها ، يشمل كل الجانب العملى من مظاهر حياة الإنسان : من أخلاق ودين وتفكير اجتماعى ووضع اقتصادى ، إلخ .. وهذه المظاهر كلها متضافرة بحيث أن رأى المفكر فى واحد منها يؤثر حتماً فى رأيه فى بقية المظاهر ويصبغها بصبغة محددة . ولكنها تتفاوت ظهوراً وخفاء ، ولا تتساوى فى درجة قابليتها للاكتشاف .

والملاحظة الثانية هى أن رأى الذى نقول به هنا يحتاج ، قطعاً ، إلى إثبات أوسع نطاقاً بكثير مما ذكرناه فى هذا الفصل . وكل ما نهدف إليه هنا هو أن نقدم فرضاً يبدو لنا محتماً فى ضوء ما قلناه من قبل عن طبيعة المثالية بوصفها تفسيراً أو لغة — ولكن الإثبات التفصيلى لهذا الفرض يحتاج إلى جهد أضخم

بكثير مما قمنا به في هذا الصدد . ولكم يكون من المثمر أن يُكتب تاريخ الفلسفة — وتاريخ الفلسفة المثالية بوجه خاص — في ضوء هذا الفرض : أى أن تكون نقطة البداية ، التى تكون أساس المذهب ، هى الاعتبارات العملية ، أو رأى الفيلسوف فى « الإنسان » ثم تُعرض الآراء النظرية بوصفها نتيجة أو تبريراً لاحقاً لهذا رأى . ألا تبدو الفلسفة ، على هذا النحو ، ألصق بواقع الإنسان العيى ؟ ألا يكون تعليل ما فيها من تجريدات تعليلًا « إنسانياً » أمراً أيسر بكثير ؟ ألن نستطيع عندئذ أن نتخلص من النظرة الشائعة إلى طريقة ظهور المذاهب الفلسفية على أنها انبثاق فجائى بلا مقدمات وبلا أصول ؟ إن هذه النتائج وحدها لكفيلة بأن تجعل هذه المحاولة جديرة بأن تجرب .

خاتمة

نظرية المعرفة والعلم

إن الفلسفة ، من غير شك ، في حاجة إلى عملية إعادة تقويم أساسية لحدودها وقدراتها . حقاً إن محاولات كثيرة كهذه قد ظهرت خلال تاريخ الفلسفة ، ولكن هذه المحاولات كانت تنطوي في معظم الأحيان على قدر من المبالغة في مهمة الفلسفة لا يقل عما استهدفت هذه المحاولات ذاتها انتقاده . وها نحن أولاء ، بعد خمسة قرون من التقدم العلمي المستقل — بدرجات متفاوتة — عن الفلسفة ، نعالج في الفلسفة موضوعات مشابهة إلى حد بعيد لتلك التي كانت تعالجها الفلسفة اليونانية مثلاً — والأغرب من ذلك أننا نعالجها بنفس الروح التي كان يعالجها بها الفيلسوف اليوناني . فحين يأتي فيلسوف في عصرنا الحديث بنظرية جديدة في المعرفة ، أو في طبيعة العالم مثلاً ، نظن فعلاً أن هذه نظرية جديدة — بالمعنى الذي نقول فيه عن التطورية إنها نظرية أو عن النسبية إنها نظرية . ويعرض الفلاسفة المحترفون هذه النظرية كما لو كان شيء جديد قد كُشف ، وكما لو كانت إضافة جديدة إلى علوم الإنسان قد حدثت .

ونستطيع أن نلتمس للمفكرين القدماء كل العذر حين كانوا يقدمون فلسفاتهم على هذا النحو . ففي ذلك الحين كان الخلط بين التفكير العلمي والتفكير الفلسفي شائعاً دون أن يتنبه إليه أحد ، بل كانت الفلسفة هي ذاتها العلم . وهكذا كان الفيلسوف يخوض ميدان الرياضة ، مثلاً ، فيأتي فيه بآراء

تعد مساهمة حقيقية في العلم ، ويبحث في « الأنتولوجيا » فيأتى بآراء لا تزيد من العلم ولا تنقصه ، ويبحث في الفلك فتكون بعض نتائجه إضافات إلى العلم وبعضها الآخر لغوا لا قيمة له — كل ذلك وهو يعتقد أنه في جميع هذه الحالات يقوم بنشاط فكري « مطرد » و « من نوع واحد » ، أى أنه يساهم في معارف البشر حين يبحث ، على سبيل المثال ، في الأنتولوجيا مثلما يساهم فيها حين يأتى بنظرية رياضية أو فلكية ذات طابع علمي .

ونستطيع أن نقول إن هذا الخلط ما زال قائما في الفلسفة إلى حد بعيد حتى في وقتنا الحالى ، على الرغم من الانفصال الواضح الذى حدث منذ أمد بعيد بين مجال الفلسفة ومجال العلم . ويتمثل هذا الخلط في عدم إدراك الطبيعة الحقيقية للتفكير الفلسفى . فما زال الفلاسفة حتى اليوم لا يدركون دلالة ذلك الانفصال الأصيل بين حياة الإنسان الفعلية وبين مضمون معظم النظريات الفلسفية ، وما زالوا ، في اللحظات القليلة التى يتنبهون فيها إلى مجرد هذا الانفصال ، يعزونه إلى نوع من التفاهة أو السطحية لتلك الحياة العملية ، التى تسمى « باليومية » أو العقيدة أو الساذجة ، ثم يظن الفيلسوف أنه قد تخلص بهذه التسمية من تلك الهوة العميقة التى وضعها تفكيره بين آرائه النظرية وحياته الفعلية .

ولن يتسنى التخلص من هذا التناقض الأساسى بين التفكير الفلسفى وبين العالم الفعلى إلا بإدراك الطبيعة الحقيقية للتفكير الفلسفى . وقد تضمن هذا البحث محاولة لتحليل هذه الطبيعة في مجال من أهم مجالات الفلسفة ، وهو نظرية المعرفة . وفي هذا التحليل انتهينا إلى أن المثالية التى تمثل أكثر الاتجاهات الفلسفية شيوعاً في هذا المجال ، والتى أثرت آراؤها حتى في كثير من خصومها الظاهريين ، هى مذهب تفسرى فحسب . فالنظرية الجديدة في المعرفة لا تضيف شيئاً إلى محتوى المعرفة البشرية ، ولا تؤدى إلى تغيير في تصرف

الإنسان أو سلوكه إزاء العالم الخارجى . ومع ذلك ، فكم من المفكرين ينظرون إلى مهمة الفلسفة فى هذا المجال على هذا النحو؟ وكم منهم لا يعرضون نظريات المعرفة على أنها فعلا « نظريات » وعلى أنها تتضمن فعلا « معرفة » جديدة ؟

إن هناك أسسًا عديدة شائعة للتفرقة بين الفلسفة وبين العلم ، ولكن هذه الأسس فى نظرنّا تغفل مسائل رئيسية تتحدد بها العلاقة بين الفلسفة والعلم بصورة أوضح. وهذا الإغفال راجع ، قبل كل شيء ، إلى الاعتقاد بأن النظريات الفلسفية التفسيرية ، التى تكتفى بوصف العالم بلغة أخرى دون أن تغير من محتوى معرفتنا له أو سلوكنا فيه شيئًا ، هى نظريات بالمعنى العلمى لهذه الكلمة. ولا بد أن يعدل هذا الفهم لطبيعة نظريات الفلسفة ، وبالتالى مشكلاتها ، على نحو يزيد من إيضاح الفارق بين التفكير الفلسفى والعلمى . ولنشرهنّا إلى بعض العناصر الرئيسية لطبيعة النظريات والمشكلات الفلسفية فى علاقتها بالنظريات والمشكلات العلمية كما يُستخلص من هذا البحث :

(١) تتميز المشكلات الفلسفية بنوع من الثبات لا يمكن أن يتمثل فى مشكلات أى فرع من فروع العلم . ولو تأملنا قائمة المشكلات الرئيسية التى يحاول كل من العالم والفيلسوف الإجابة عنها فى عصور مختلفة ، لوجدنا الفارق هائلًا بين تغير الأولى وثبات الثانية . فالأسئلة الرئيسية التى كانت تحير العلم أيام نيوتن مختلفة عنها أيام لافوازييه أو أيام دارون ، بل هى اليوم تختلف من عقد إلى آخر ، وفى بعض الأحيان من سنة إلى أخرى . أما أسئلة الفلسفة فتكاد تظل كما هى ، إذا استثنينا إضافة مبحث فلسفى جديد ، كالبحث فى القيم أو علم الجمال ، من آن إلى آخر ، وإن تكن الأسئلة الرئيسية فى هذه المباحث الجديدة تظل بدورها متماثلة. فالفلسفة تنفرد بتلك الظاهرة الغريبة، وهى أن الأسئلة التى كان يتساءلها أفلاطون وأرسطو منذ أكثر من ألفى عام لا تبدو

غريبة في نظر دارسيها المعاصرين ، بل أنها تؤلف جزءاً كبيراً — وفي نظر البعض الجزء الأكبر — من المشكلات التي تحاول الفلسفة اليوم إيجاد حل لها ، بل إن نفس إجابات القدماء على هذه الأسئلة ما زال لها احترامها ، وما زالت تعد إجابات قابلة للمناقشة في الأوساط الفلسفية . وهذا وضع غريب تنفرد به الفلسفة عن جميع علوم البشر وأبحاثهم . والمهم في هذا الوضع هو أن نحاول تعليله ، إذ أنه ، مع كونه معترفاً به لدى الأغلبية الكبرى من الفلاسفة ، لا يعلل تعليلاً شافياً على الإطلاق .

وفي رأينا أنه إذا كان هناك ما يسمى بالعنصر الثابت في الفلسفة ، فإنه راجع إلى ارتباط الفلسفة بالموقف الطبيعي لا العلمى . فكل المعارف التي ترتبط بالموقف العلمى تتطور مع العلم في تاريخه الذى سار في تغير مطرد كان بطيئاً أول الأمر ثم أصبحت سرعته الآن لا تكاد تسمح بملاحقته . أما الموقف الطبيعى فلا تغير فيه : فإدراك الإنسان للعالم الخارجى هو هو لم يتغير . ولا نستطيع أن نقول إن الإنسان كان يدرك الجبل أيام أفلاطون بطريقة تختلف عن طريقة إدراكه له اليوم ؛ أو كان يستخدم قدميه في تسلقه بطريقة مغايرة . وكما قلنا من قبل ؛ فإن الفلسفة قد اتخذت من هذا الموقف الطبيعى موضوعاً لتفكيرها ؛ وإن تكن في معظم الأحيان قد أتت « بنظريات » تخالفه (على المستوى الفكرى ، لا العلمى) وفي رأينا أن هذا الارتباط بين موضوع التفكير الفلسفى وعناصر الموقف الطبيعى هو الذى أضفى على المشكلات الفلسفية هذا الثبات . وإذا كانت الفلسفة هى المبحث الوحيد الذى لم يطرأ عليه تغير يناظر ، أو يقترب من تغير أبطأ العلوم تطورا ، فذلك راجع أيضاً إلى أنها هى المبحث الوحيد الذى لا يملك من المنهج ومن الأساليب أو الوسائل ما يمكنه من النظر إلى موضوعاته من الزاوية العلمية ، وإنما يضطر إلى اتخاذ نقطة بدايته من عالم الإنسان كما يحيا حياته اليومية . فما حدث عند ما قال باركلى ، مثلاً ،

بلامادية العالم الخارجى ، لم يكن تجربة علمية توصل منها إلى أى شىء ، ولم يكن نظرة إلى موضوعات إدراكنا بوسائل غير الوسائل التى ندرکها أو نفكر فيها بها ، وإنما قال : « إن نفس هذه المنضدة التى أدركها فى موقفى الطبيعى على أنها مادية لا بد أن تكون غير مادية ، لأن استدلالاى المنطقية التى طبقته عليها تؤدى إلى هذه النتيجة » . ولما كانت هذه المنضدة ذاتها ، أو « الأشياء » المحيطة بنا ، هى نفسها موضوع تفكير أفلاطون وأرسطو وديكارت وكانت (مع اختلاف النتائج التى وصلوا إليها بشأنها) فليس من الصعب عندئذ أن نفسر ثبات موضوعات التفكير الفلسفى .

والذى يحدث هو أن الباحثين فى نظرية المعرفة ، من الفلاسفة ، كانوا يعملون على تحليل الطريقة التى يعرفون بها هذا العالم المحيط بنا — وهو نفس العالم على الدوام — عن طريق ما يمكن أن نسميه « بالاستبطان المعرفى » : أى أن كلا منهم كان يرقب ما يحدث فى نفسه حين يقول إنه يعرف ، وعلى أى نحو تكون علاقته بالموضوعات عندئذ ، ثم يطلع علينا بنظريته : ولا شك فى أن اتجاه ونتيجة هذه النظرية ، ولا سيما من حيث مخالفتها أو موافقتها للموقف الطبيعى ، يتوقف على العامل « المعنوى » الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق . ولكن المنهج الذى يتبعه الفيلسوف ، والوسائل التى يبرر بها نتائجه ، لا تعدو أن تكون ملاحظة ووصفاً لما يحدث بالفعل خلال تلك العملية التى يسميها بعملية المعرفة . وهنا أيضا نجد مبرراً لثبات الأبحاث الفلسفية فى هذا الميدان الذى لا يمكن أن يطرأ على الوسائل المتوافرة لدى الفلاسفة فيه تغير .

وإذن ، ففى وسعنا أن نجد تعليلاً لثبات الأبحاث الفلسفية ، فى ميدان نظرية المعرفة ، بتأمل « موضوع » تلك الأبحاث ، وهو الذى يتخذ نقطة بدايته من عالم الأشياء كما تتبدى للإنسان فى موقفه الطبيعى ، وبتأمل « وسيلة » أو « منهج » تلك الأبحاث ، وهو تحليل الفيلسوف لتجربته فى المعرفة ، وهى

تجربة قد يتغير محتواها ولكن شكلها وإطارها الرئيسى لا يتغير. وإذن فالتعليل الوحيد لثبات الأبحاث الفلسفية — فى الميدان الذى تتناوله فى هذا البحث — هو ارتباطها بالموقف الطبيعى . وصحيح أن النتائج التى ينتهى إليها معظم الفلاسفة تخالف هذا الموقف ، ولكن المهم فى الأمر هو أنه يمثل نقطة بداية الأبحاث الفلسفية ، والمعيار الذى تقاس به الخلافات بين المذاهب .

(٢) وتؤدى الصفة السابقة مباشرة إلى صبغ التطور الفلسفى بصبغة تختلف تماما عن التطور العلمى . فالتطور العلمى فى أساسه تراكمى ، يستفيد فيه الجديد من القديم ويكمّله ويدبّجه ، فى معظم الأحيان ، فى نسقٍ أوسع . ومهما حدث من طفرات فى العلم فإنها تكون دائما متأثرة بالتطورات السابقة ، وباعثة لسلسلة جديدة من التطورات . أما الفلسفة فإن مسارها ليس تراكميا على الإطلاق ، ولا يمكن أن يقال إن التطور فيها من القديم إلى الجديد يتم بانتظام حسب تسلسل منطقى . وليس معنى ذلك أن التاريخ لا قيمة له فى تطور الفلسفة ، فتأثر الفيلسوف بعصره وبالتيارات السابقة عليه أمر لا يُنكر : ولكن النتائج والحلول التى يتوصل إليها الفلاسفة ليست متكاملة بالضرورة ، بل إن أى فيلسوف يستطيع أن يتخلى تماما عن جميع السوابق ، ويأتى بحل ، أو على الأصح بتحليل ، جديد للمشكلة دون أن يلومه أحد على تجاهل الحلول السابقة . كذلك فإن دارس الفلسفة يستطيع أن يرفض رأى أى فيلسوف حديث فى مشكلة ما ، ويفضل عليه رأى فيلسوف قديم ، دون أن يجد أحد فى هذا أية غرابة. وهكذا رأينا « هويتهد » مثلا يقول إن أحدا لم يُفَقْ أفلاطون ، وهى عبارة لا تطلق بمعنى أن أفلاطون متفوق على غيره نسبيا فحسب ، بل قد تستخدم كذلك بمعنى مطلق ، أى بمعنى أننا نستطيع أن نجد لدى أفلاطون حولا للمشاكل الفلسفية تفوق كثيرا من الحلول الحديثة ، أو على الأقل استباقا لمعظم المشاكل التى انشغلت بها الفلسفة حتى الآن . وهكذا أيضا كنا نجد فى الفلسفة حركات إحياء لاتجاهات فكرية قديمة ينظر إليها على

أنها هي التي أتت بالحل الصحيح لمشاكلنا الحالية : فالكائنية الجديدة تظهر بعد قرن من وفاة الفيلسوف الذي انتسبت إليه ، بل إن « التومية الجديدة » تظهر بعد « توما الأكويني » بسبعمئة عام ، وتتخذ من فلسفته مرجعا ، دون أن تضيف إليها سوى بعض التفسيرات أو التفصيلات التي لا تؤدي إلى تغيير جوهرى فى الأصل .

ولقد كان كانت من الفلاسفة القلائل الذين لم يكتفوا بإدراك هذا الفارق بين تطور الفلسفة وتطور العلم ، بل رأوا أنه يمثل نقصا فى الفلسفة وأخذوا على عاتقهم تدارك هذا النقص . ففى مستهل تصدير الطبعة الثانية « لنقد العقل الخالص » ، يعنى كانت على الفلسفة افتقارها إلى الدقة العلمية ، ويرى أن معيار هذا الافتقار إلى الدقة هو توقف المعرفة بعد جهود متواصلة متكررة ، وبعد أن يبدو أنها قد اقتربت من هدفها ، ثم اضطرارها إلى الرجوع والبدء من جديد ، وعدم اتفاق المشتركين فيها على أية خطة مشتركة للعمل . وهذه الصفات كلها فى رأى كانت تتجمع فى الميتافيزيقا . وهكذا حدد كانت هدفه مند البداية بأنه جعل الميتافيزيقا تسير فى « طريق العلم المأمون » الذى تستطيع فيه التخلص من عيوبها القديمة هذه ، وتسير فى الطريق الذى تقدمت العلوم بفضل سيرها فيه : أى أن تصبح الميتافيزيقا معرفة يكمل الجديد فيها القديم ويستفيد منه ، ولا يحاول الحلول محله وإخراجه تماما من الميدان .

وإذن فيها هو ذا فيلسوف أدرك بكل وضوح ذلك الفارق الذى أشرنا إليه بين تطور الفلسفة وتطور العلم ، وركز جهده فى محاولة إزالة ذلك الفارق وجعل الفلسفة تقتدى بالعلم فى تطوره . ولكن ؛ إلى أى حد نجح ذلك الفيلسوف فى تحقيق هذا الهدف ؟

إن فلسفة كانت قامت على بضع دعائم أساسية ، وألها إمكان الأحكام التركيبية الأولية ، ثم رأيه فى الزمان والمكان ، ولوحة الأحكام وما تؤدي إليها

من المقولات . فإذا انهارت هذه الدعائم الأساسية المرتبطة فيما بينها كان في ذلك انهيار للبناء كله . وهذا بالفعل ما حدث بعد فترة وجيزة من وفاة كانت : ففكرة الأحكام التركيبية الأولية ذاتها قد نُقدت نقدًا عنيفًا ، ونفى كثير من علماء الطبيعة والرياضة أن أحكامهم من هذا النوع ؛ وكان مجرد ظهور الهندسة اللاإقليدية عاملاً على هدم معظم آراء كانت في طبيعة الرياضة ، وبالتالي في « الحساسية الترنسندنتالية » . أما لوحة الأحكام التي بنيت عليها آراؤه في التحليل الترنسندنتالي ومعظم تقسيماته وتصنيفاته الفلسفية ، فقد كانت لوحة عتيقة سرعان ما ثار عليها المنطق الحديث ولم يعد يربط بينها وبين التركيب الضروري للذهن على الإطلاق .

وهنا يكون من المفيد إلى حد بعيد أن نقارن بين تفكير كانت وتفكير نيوتن : فصحيح أن آراء نيوتن لم تعد هي المسيطرة على العلم اليوم ، غير أنها كانت بلا شك عاملاً ممهّداً لكل التطورات التالية التي لا يمكن أن تُفهم بدونها . وما زالت فيها إلى اليوم عناصر صالحة في ميادين خاصة ، ولا سيما الميكانيكا . أما آراء كانت ، فإن نقد فكرة القضايا الأولية التركيبية هو وحده كفيلاً يهدمها من أساسها .

وإذن فمن الممكن أن ينهار المذهب الفلسفي من أساسه دون أن يبقى منه شيء إذا كانت مقدماته باطلة . ويظل التطور الفلسفي يتم عن طريق « الاستبدال » ، أى سعى كل مذهب إلى الحلول محل الآخر بدلاً من تكملته . وهكذا لم يستطع كانت على الإطلاق أن يوجه الميتافيزيقا في « طريق العلم المأمون » وظلت الفلسفة من بعده تبدأ على الدوام بدايات جديدة كلما بدا لها أنها اقتربت من هدفها .

هكذا كان طابع الفلسفة النظرية منذ بدايتها إلى اليوم : مجموعة من المشاكل التى لا يطرأ عليها تغير أساسى ، ومذاهب تأتى بحلول « استبدالية » لا « تراكمية » لهذه المشاكل . وكم تضمن تاريخ الفلسفة من محاولات مستمرة للاقتداء بالعلم ، كانت تروح على الدوام هباء نتيجة للاختلاف الأساسى بينها وبين العلم فى المنهج والوسائل المتوافرة وطريقة التطور . وكم تضمن كذلك من محاولات للتقريب بينها وبين المبحث الأدبى البحت ، ولكن هذه المحاولات كانت تتعثر دائماً إزاء ادعاء الفلاسفة أنهم يساهمون إيجابياً فى توسيع نطاق « محتوى » المعرفة البشرية .

ولو نظرنا إلى أهم المسائل التى كانت موضوعاً للمبحث الفلسفى حتى اليوم ، لوجدنا أنها تتعلق بالتساؤل عن أمور يعدها الموقف الطبيعى حقائق مسلماً بها، وهو تساؤل كان فى معظم الأحيان ينتهى إلى التشكيك فى هذه الحقائق أو إنكارها . وهكذا يتساءل الفيلسوف عن وجود الذات ، أو وجود العالم الخارجى ، وعن إمكان المعرفة إلخ .. ولهذا النوع من الأبحاث نتيجتان ممكنتان : فإذا انتهى الفيلسوف من أبحاثه إلى نتيجة إيجابية — وهذا يتمثل فى فئة قليلة من الفلاسفة — فكل ما يفعله هو الرجوع إلى النقطة التى يبدأ منها الإنسان العادى ، والتى يسلم فيها بأن لديه معرفة ، وبأن هناك عالماً خارجياً وذوات أخرى ، إلخ . أما إذا انتهى الفيلسوف إلى نتيجة سلبية ، فإن النتيجة هى التشكيك فى أبسط وقائع الموقف الطبيعى ، والانتهاى إلى تلك الحالة التى يتناقض فيها التفكير النظرى مع السلوك العملى أشد التناقض . وهكذا تنفرد الفلسفة بأنها ذلك المبحث الذى يقضى فيه أناس متخصصون حياتهم كلها فى التأمل والتفكير ، وينتهون آخر الأمر إلى أن العالم الخارجى غير موجود ، أو أن وجود الذوات الأخرى أمر مشكوك

فيه ، فى الوقت الذى لا يكفون فيه عن التعامل مع موضوعات ذلك العالم الخارجى أو مع الذوات الأخرى على نفس النحو الذى يتعامل به معهما من يكتفى بالموقف الطبيعى .

وأعترف هنا فى خاتمة هذا البحث — كما اعترفت فى مقدمته — بأن دهشة « الإنسان العادى » واستنكاره لمحاولة التشكيك فى « وجود العالم أو وجود الذوات الأخرى » لم تفارقنى لحظة واحدة طوال دراستى الفلسفية . وإنى لأعتقد أن مثل هذا « الإيمان الطبيعى » ، بما يتميز به من قوة شديدة ، وبفضل عملية التحقيق المستمرة التى يثبت بها سلوكنا العملى أن الموقف الطبيعى هو الوحيد المتسق مع نفسه فى مجاله الخاص ، كفىل بأن يؤدى بالمرء إلى رفض المواقف المثالية دون أى تأثر بحججها البارعة . ومع ذلك ، فإن هذه الحجج قد نوقشت بشىء من التفصيل فى هذا البحث ، الذى لم نلجأ فيه ، كما يفعل الكثير من خصوم المثالية ، إلى مجرد الإهابة بذلك الإيمان الطبيعى واستنكار المثالية على هذا الأساس وحده . ذلك لأن الحجج المثالية قائمة ، وكثير منها قوى لا يسهل التخلص منه ، ولكن الإيمان الطبيعى كفىل من ناحية أخرى بأن يقنع المرء بضرورة وجود خطأ أو مغالطة فى هذه الحجج هو هكذا تبدأ محاولة التفنيد .

إن من العسير إصدار أحكام على المستقبل فى ميدان من ميادين المعرفة فريد فى بابة كالفلسفة . ولكنى أستطيع أن أقول إن يوما سيأتى على الفلاسفة يكفون فيه عن إثارة مثل هذه المشاكل المتعلقة بالتشكيك فى الموقف الطبيعى أو إنكاره . حقاً إن الفلسفة ظلت تناقش مثل هذه المشاكل منذ خمسة وعشرين قرناً ، غير أن العصر الحاسم الذى نعيش فيه ، والذى تتغير فيه وقائع أقدم عهداً من ذلك التاريخ ، سيشهد حتماً تغييراً مقابلاً فى ميدان الفلسفة .

وسيجىء اليوم الذى ينظر فيه الفلاسفة أنفسهم بدهشة إلى كل من يخطر بباله سؤال مثل : هل الأشياء الخارجية ، أو الأذهان الأخرى ، موجودة ؟ أجل ، سيجىء اليوم الذى يعرف فيه الفلاسفة حدود الموقف الطبيعى ، وحدود الموقف العلمى ، ولا يخلطون كلا بالآخر ، والذى يدركون فيه أن هذا الموقف الطبيعى هو الوحيد الممكن فى حدوده الخاصة وبالنسبة إلى أغراضه الخاصة . وعندئذ لن يصبح للفلسفات المثالية — بالمعنى الذى استخدمناه هنا — أى مبرر ، ولن يظهر ذلك النمط من المفكرين الذين يقضون حياتهم فى سبيل إثبات فكرة يكذبها سلوكهم العلمى نفسه فى كل لحظة ، ولا تؤدى — حتى إذا أخذ بها — إلى أى تغيير فى هذا السلوك ، أو إلى إضافة أى شىء إلى « محتوى » المعرفة البشرية أو حذف أى شىء منه .

ومما لا شك فيه أن مجال الفلسفة ، كما نعرفها اليوم ، سيضيق كثيرًا إذا حدث مثل هذا التطور ، إذ أن معظم المسائل التى تثار اليوم فى الفلسفة تتخذ من رفض الموقف الطبيعى نقطة بداية لها . ولكن سيظل للفلسفة مع ذلك مجالها الخاص ، فى حدود جديدة يخفى فيها التنافس القديم بينها وبين العلم ، ذلك التنافس الذى جعل الفلاسفة يظنون حتى اليوم أنهم يأتون فعلاً بنظريات جديدة عن العالم ، وأن آراءهم تؤدى إلى تغيير فعلى فى محتوى المعرفة . وستحدد مجال الفلسفة بوصفها مبحثًا إنسانيًا (humanistic) يتضمن تعميمات « مستمدة » من عدة مجالات أخرى ، ومحاولة لتنظيم التجارب البشرية فى شتى الميادين ، واستخلاص أحكام عامة منها « وتاريخًا » لتطور الفكر البشرى فى اجتهاداته الصائبة والباطلة ، وسجلًا للانتقال التدريجى البطيء من التفكير الخرافى القديم إلى التفكير

العلمى الحديث . ولسنا ندعى أن هذا تعريف أو تحديد للمجال الوحيد الذى يمكن أن يدور فى نطاقه التفلسف ، وكل ما فى الأمر هو أن الفلسفة لو سارت فى هذا الطريق فستكون فرص بقائها فى عالم المستقبل أعظم كثيرًا منها لو ظلت تؤكد أن الأشياء الخارجية غير موجودة ، وأن أحدًا لا يوقن بوجود الآخرين ، أو بوجود الذات ، وأن أولى خطوات التفلسف هى رفض الموقف الطبيعى للإنسان .

تذيل

حجة الأحلام فى نظرية المعرفة

للشكاك والمثاليين طريقة مفضلة يتبعونها كلما حاولوا تشكيك الإنسان فى واقعية العالم الذى يعيش فيه ، وإثبات مثالية هذا العالم — هذه الطريقة هى الالتجاء إلى أمثلة من « الحالات الشاذة » التى تطرأ على إدراك الإنسان ومعرفته الواقعية لهذا العالم . وعن طريق هذه الحالات الشاذة يهتدون إلى الثغرة التى يمكن أن ينفذ منها النقد الشكى أو المثالى ، وذلك عن طريق استدلال يسير دائماً — مع بعض الاختلاف فى التفاصيل — على النحو الآتى :

« إذا كان لديك إدراك شاذ مثل أ أو ب أو ج ... فما الذى يضمن ألا يكون كل إدراك لديك من نفس النمط ؟ »

وهكذا نجد الشكاك والمثاليين يتخذون نقطة بدايتهم من تعديد أمثلة لحالات فى الإدراك — كحالة « انكسار العصا فى الماء » ، أو « ازدواج الإبصار » أو الهلوسة ، إلخ ... وبغض النظر عن صحة أو عدم صحة المبدأ العام الذى يخضع له هذا النوع من الاستدلال ، وهو المبدأ القائل إن شذوذ ، أو حتى خطأ ، الإدراك فى بعض حالاته يبرر الشك فيه كله أو تفسيره بطريقة مضادة للطريقة الواقعية « المألوفة » — فلزام على كل باحث فى نظرية المعرفة أن يواجه هذه الحجج الأساسية ، ويكون أمامه إما أن يقتنع بها ، وينتهى إلى النتائج التى استخلصها منها الشكاك أو المثاليون — وإما أن يناقشها من حيث تفاصيلها ومن حيث مبدئها العام الذى تركز عليه ، وعندئذ يكون فى ذلك

أيضا مناقشة للاستنتاجات الشكية والمثالية ذاتها .

والهدف من هذا المقال هو مناقشة حجة مألوفة من أمثلة حالات الشذوذ « التي أشرنا إليها من قبل ، هي حجة الأحلام . وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الحلم ظاهرة مألوفة إلى أبعد حد ، وأن من الخطأ بالتالي إدراجها ضمن حالات الشذوذ . ولكن الواقع أن الحلم مألوف من حيث هو ظاهرة نفسية . أما من حيث هو طريقة من طرق الإدراك ، على نحو ما يستخدمه الفلاسفة في حجتهم هذه ، فهو حالة شاذة بالقياس إلى ما اصطللحنا على تسميته بإدراكنا في « حياة اليقظة » .

فلنتبع إذن أمثلة لتلك الحجة التي يهيب فيها الفيلسوف بإدراكنا في الحلم لكي يؤكد أن كل إدراك لنا ، بوجه عام ، مشكوك فيه ، أو أنه ذو طابع ذاتي ، لا يتناول « عالما موضوعياً » على نحو ما نعتقد في « واقعيتنا الساذجة » . وليس هدفنا هنا هو أن نقدم بحثاً « استقرائياً » شاملاً لطريقة عرض الفلاسفة لهذه الحجة ، بل سنختار بعضاً من أوضح الأمثلة على سبيل التماذج فحسب ، لكي ننتهي آخر الأمر إلى إصدار حكم على قيمة هذه الحجة بوصفها جزءاً من الاستدلال الشكي أو المثالي في نظرية المعرفة .

ونستطيع أن نقول إن حجة الأحلام « أوجهها » يؤدي كل منها إلى الآخر . وهذه الأوجه قد تمثل كلها ، أو بعضها ، في تفكير الفيلسوف الواحد ، ولكن التميز بينها يفيد في استخلاص نواحي النقد الممكنة التي يمكن أن توجه إليها . وهذه الأوجه ، في نظرنا ، هي :

(١) التشكيك — ولو مؤقتاً — في حقيقة العالم المسمى ، في النظرة

المعتادة ، باسم العالم الموضوعي .

(٢) نقد الإدراك الحسي .

(٣) تأكيد مثالية العالم .

وأوضح حالة تتمثل فيها المرحلة الأولى لحجة الأحلام هي حالة ديكارت . ومن المعروف أن ديكارت قد اتخذ موقف الشك التام وسيلة للوصول إلى نقطة ارتكاز ثابتة يبدأ منها التفلسف على أساس لا يتزعزع . وهنا كان دور حجة الأحلام في الشك الديكارتي أساسيا .

وينبغي في بداية مناقشة أية حجة متعلقة بالشك الديكارتي أن نوضح مسألة على جانب كبير من الأهمية : ذلك لأن من الممكن الاعتراض بأن مرحلة الشك عند ديكارت كانت بأسرها مرحلة افتراضية ، ممهدة لمرحلة أخرى من اليقين ، وأن ما يتقدم به ديكارت من الحجج في هذه المرحلة لا ينبغي أن ينظر إليه حسب قيمته الظاهرة ، وإنما على أنه فرض مبالغ فيه ، ولا هدف منه إلا هدم جميع المعتقدات المتلقاة لكي يبدأ بداية جديدة تماما . على أن هذا الاعتراض يجب استبعاده ، إذ لا بد أن ديكارت قد وجد أساسا للحجج التي عرضها في مرحلة الشك ، وإلا لما عرضها أصلا . ويجب أن نتوقع منه تقديم حساب عن هذه الحجج ، إذ لا بد أنه وجد فيها نوعا من الصحة بحيث أدت بالفعل إلى تبرير شكوكه في العالم .

ولقد كانت حجة الأحلام ممتازة بوصفها وسيلة تبرير الشك : إذ أن من أقوى الأسباب التي يرجع إليها الاعتقاد « الساذج » بأن إدراكنا تسببها « أشياء » موجودة بالفعل في عالم واقعي ، حدوث هذه الإدراكات رغما عن إرادتنا . وهذه اللاإرادية في فئة معينة من الإدراكات سلاح قوى جدًا في يد الواقعي ، إذ أنه يستطيع دائما أن يخرج المثالي غير الدقيق بقوله : إذا كان العالم ذاتيا كما تقول ، فما هو الفارق بين تمثلي لأفكارى الخاصة وتمثلي للموضوعات الخارجية ؟ ولماذا أستطيع أن أنتج الأولى بإرادتي بينما الثانية تفرض نفسها فرضا عليّ ، ولا تحدث إلا إذا توافرت شروط معينة لا أستطيع التحكم فيها بنفسى ؟ لا بد أن للأولى مصدرا ذا طبيعة مغايرة تماما لمصدر الثانية . وهنا يكون أفضل

رد للمثالى هو أن يشير إلى ظاهرة الأحلام ، التى هى بدورها لا إرادية ، ولكن لا يستطيع أحد أن يقول إن محتوياتها مطابقة لموضوعات فعلية فى العالم الخارجى . وهذا بالفعل ما يلجأ إليه ديكارت فى « التأمل الثالث » . ففى ظاهرة الأحلام مثال واضح لإدراكات يتعلق الكثير منها بموضوعات خارجية ، وتحدث رغما عن إرادة الإنسان ، ومع ذلك فمصدرها ليس الأشياء الخارجية .

وهنا تقوى حجة الشك إلى أبعد حد : فإن كانت لدى هذه الفئة من الإدراكات ، فما الذى يضمن ألا يكون كل إدراك أسميه حسيا ، من هذا النوع ذاته ؟ هذا هو السؤال الذى لا يفتأ ديكارت يردده كلما كان بصدد التعبير عن شكه المنهجى ^(١) . وصيغة السؤال ، فى هذه المرحلة ، لا تتجاوز الطابع السلبى ، أى أن الحجة لا تقطع هنا بأى شىء ، بل إن كل ما تؤكده هو أن العالم الخارجى — من الوجهة المنطقية الخالصة — قد يكون خداعا ، مما يمهّد السبيل للارتكاز على حقيقة أولى لا ترجع حجتها إلا إلى البداهة الذاتية المباشرة ، التى لا تتصل بأى موضوع خارجى .

ومن الطريف جداً أن نعيد إلى الأذهان الطريقة التى تخلص بها ديكارت من حجة الأحلام فى مرحلتها الأولى هذه ، ومما تؤدى إليه من شك فى حقيقة العالم الخارجى . فلم يكن تخلص ديكارت من هذه الحجة هنا عن طريق الإتيان بحجج مضادة لها ، أو عن طريق تفنيدها منطقيا ، بل تم ذلك بفضل استعادة ثقته بالعالم حين أيقن من وجود إله خالق له . ولتحلل بدقة تعبيره ذا الدلالة البالغة عن الطريقة التى استبعد بها شكوكه هذه ، وخاصة الشك المتعلق بعدم

القدرة على التمييز بين النوم واليقظة : « إذ إننى أدرك بينهما الآن فارقا هائلا ، هو أن ذاكرتنا لا تستطيع أبداً أن تربط وتضم أحلامنا بعضها إلى بعض وإلى بقية أطراف حياتنا ، مثلما تألف ضم الأشياء التى تمر بنا فى يقظتنا ... ولا ينبغى بأية حال أن أشك فى حقيقة هذه الأشياء ، إذا ما حدث بعد أن حشدت كل حواسى وذاكرتى وفهمى لفحصها ، إن لم يرد إلّى عن طريق إحدى هذه القوى ما يتنافر مع ما يرد إلّى من الأخباريات . إذ أن استحالة كون الله خادعا تستتبع بالضرورة ألا أكون فى هذا الصدد مخدوعا . ولكن نظراً إلى أن ضرورة الظروف ترغمنا فى كثير من الأحيان على أن نضع قراراً دون أن نكون قد أتيت لنا المهلة الكافية لفحصه بعناية ، فينبغى أن نعرف بأن حياة الإنسان معرضة للخطأ فى كثير من الأحيان بالنسبة إلى الأشياء الخاصة ، وأن نعرف أخيراً بتهافت طبيعتنا وضعفها » (١) .

من الواضح إذن أن الوسيلة التى يراها ديكرت كفيلة باستعادة ثقته بالعالم ، وللتمكن من التمييز بين عالم اليقظة وعالم الأحلام ، هى (اتساق) أفكارنا الخاصة بالعالم الواقعى أو عالم اليقظة وعدم وجود تنافر بينها : وهنا ينبغى أن نتساءل : هل يعد هذا ردّاً مقنعاً على الشك الكامل الذى أثاره ديكرت فى البداية ؟ الواقع أن شكّه كان أقوى من أن تبدده فكرة الاتساق هذه ، إذ أنه ، فى حالة الشك هذه ، كان خليقاً بأن يقول إن أحلامه كثيراً ما تبدى له تامة الاتساق ، وأى فارق بينها وبين اليقظة فى هذا الصدد سيكون فارقاً فى الدرجة فحسب ، بحيث لا بد أن توجد حالات يعجز فيها المرء عن إيجاد تفرقة قاطعة بين العالمين من خلال فكرة الاتساق وحدها .

، وفضلاً عن ذلك ، فإن كان الاتساق كافياً لتبديد هذه الشكوك ، فما الذى منع ديكرت من استنتاج وجود هذا الاتساق منذ البداية ، فلا يبقى لشكّه أى

أثر منذ بداية الأمر ؟ إن ديكارت — كما هو واضح — لم يستنتج من شيء . فلا بد إذن أن نفترض أنه يقول بالاتساق بعد أن هدأت نفسه عندما توصل إلى فكرة الله ، إذ تأكد عندئذ أن العالم ليس فوضي ، وأنه أهل للثقة ، وفي ضوء هذه الثقة وحدها يمكننا أن نبرر اكتفائه بفكرة اتساق اليقظة لتبديد شكوك كانت ، بلا شك ، أقوى من أن تبدد بهذه السهولة .

أما من الوجهة المنطقية الخالصة ، فلم يكن ديكارت محتاجا إلى هذه الرحلة الطويلة ، التي انتقل فيها من الشك إلى اليقين ، لأنه لم يستنتج منها منطقيا شيئا في هذا الصدد : إذ أن فكرة الاتساق ليست في حاجة إلى الكوجيتو أو فكرة الله . هذا إلى أن آخر ما ينتهي إليه في التأملات ما زال نوعا من الشك أو عدم الثقة في معرفة الإنسان ، التي ظل إلى النهاية يعدها ضعيفة هشة ، معرضة للخطأ .

ففائدة هذه المرحلة المتوسطة إذن لم تكن منطقية ، وإنما هي في رأينا « نفسية » : وديكارت كان محتاجا إلى دعامة نفسية يستعيد بها ثقته في العالم — وكان يكفيه أن يجد هذه الدعامة في فكرة الله لكي تصطبغ كل الأشياء بصبغة جديدة ، ويصبح أكثر استعدادا للاقتناع بأفكار كانت هي ذاتها غير قادرة على تبديد الشك في بداية الأمر .

وإذا كان الوجه الأول للحجة يتعلق بالشك في إدراكنا الخارجي ، فإن الوجه الثاني يتعلق بالشك في طريقتنا أو وسيلتنا إلى هذا الإدراك . ولا شك أن بين الأمرين ارتباطا وثيقا : فإذا وصل بنا الأمر إلى حد توجيه السؤال : أليس من الجائز أن يكون إدراكنا للعالم الخارجي مجرد إدراك ذاتي ، ما دمتنا في حالة الأحلام نمارس مدركات تبدو لنا خارجية ، ولا نتوقف بالفعل على إرادتنا ، ومع ذلك فنحن على يقين من أن مصدرها ليس هو الأشياء

الخارجية ؟ — إذا وصل الأمر إلى هذا الحد ، فمن الطبيعي أن يتضمن هذا الشك شكاً آخرًا في وسيلتنا إلى إدراك هذا العالم ، إذ أن هذه الوسيلة تؤكد لنا أنه خارجي ، بينما (قد يكون) هذا العالم — كما رأينا الآن — داخليًا بحت . واستخدام حجة الأحلام للشك في المعرفة الحسية قديم مألوف في تاريخ الفلسفة . وإذا كان ديكارت قد جعل هذه الحجة كلاسيكية في كتاباته ، فإنه لم يكن على الإطلاق أول من تنبه إليها — فمنذ أفلاطون استخدمت الحجة وسيلة للطعن في صحة المعرفة الحسية ذاتها ، إلى جانب العالم الحسى . ويتمثل الارتباط بين الوجه الأول والوجه الثانى لحجة الأحلام بوضوح في قول أفلاطون في (تيتاتوس) :

« سقراط : ... كيف يمكنك أن تحدد ما إذا كنا في هذه اللحظة نياما . وكل أفكارنا حلم ، أم أيقاظا ، يتحدث كل منا إلى الآخر عن وعى ؟ »
« تيتاتوس : الحق أننى لست أدري يا سقراط كيف أرجع أحد الأمرين على الآخر ... »

« سقراط : .. وهكذا ترى أن من الممكن بسهولة إثارة الشك حول حقيقة الحس ، ما دام هناك شك حتى فيما إذا كنا أيقاظا أو نياما . ولما كان وقتنا مقسما بالتساوى بين النوم واليقظة ، فإن النفس تؤكد في كل من مجالى الوجود هذين أن الأفكار الحاضرة في أذهاننا في تلك اللحظة صحيحة فتؤكد صحة أحدهما في أحد نصفي حياتنا ، وصحة الآخر في النصف الآخر ، ويكون لدينا نفس القدر من الثقة بالأمرين معا » (١) .

وبغض النظر عن قيمة الحجة التى يقدمها أفلاطون ، والتى تناولتها المثالية من بعده وعرضتها بصور شتى ، فلنلاحظ هنا ، على الأقل ، أن عرضه لم يكن

موفقاً تماماً ، إذ أنه بعد تقسيمه الحياة « بالتساوى » إلى نوم و يقظة ، يفترض أن الأحلام تحتل كل هذا النصف المسمى بالنوم . ورغم أن الفارق بين ما يقول به أفلاطون وبين ما يحدث في الواقع — حيث لا يمثل النوم « نصف » وقتنا ، ولا تشغل الأحلام من النوم إلا وقتاً ضئيلاً — فارق في الكم فحسب ، فلا جدال في أن قيمة حجة الأحلام كانت تعلو كثيراً لو كان وقت الإنسان مقسماً بالتساوى بين نصفين يمتلىء أحدهما بإدراكات يسميها « يقظة » والآخر بإدراكات يسميها « حلماً » . غير أن المسألة لحسن الحظ ليست معقدة إلى هذا الحد ، ولا جدال أنه ، حتى مع افتراض حالة الشك ، فإن حياة اليقظة مرجحة — كمياً على الأقل — على حياة الأحلام بدرجة كبيرة .

ولو اخترنا عن كتب هذا النقد الذى يوجه إلى الإدراك الحسى عن طريق حجة الأحلام ، لوجدنا أنه ، حتى لو صح ، فلا يمكن أن يعد اعتراضاً على صحة المعرفة بالحواس . فكل ما يؤدى إليه هذا النقد الذى لم يكن أفلاطون إلا الحلقة الأولى من سلسلة طويلة من موجهيه — هو أننا لا نستطيع أحياناً أن نتأكد إن كانت تجربتنا حسية أم لا ، أى أن إدراكنا الحسى يصعب تمييزه بصفة قاطعة من إدراكنا غير الحسى فى الأحلام ، بحيث لا يستطيع المرء أن يجد معياراً دقيقاً يحدد به أيهما هذا وأيها ذاك : وبعبارة أخرى فإذا استطعنا أن ننتهى إلى طريقة تميز بها دائماً بين الإدراك الحسى وبين الأحلام ؛ فسوف تكون مهمة هذا النقد قد انتهت ، ويتهى الإشكال بالنسبة إليه ، فدور هذا الوجه من حجة الأحلام ينحصر إذن فى التشكيك فى إمكان التفرقة بين الإدراك الحسى وإدراك الأحلام ، ولكنه ليس على الإطلاق تفنيداً للإدراك الحسى ذاته ، بل إنه لا يمس على الإطلاق . ومن الممكن جداً أن يكون الإنسان مؤمناً كل الإيمان بأن الإدراك الحسى يلعب الدور الأهم فى المعرفة — على عكس ما كان يعتقد أفلاطون — ويظل مع ذلك يشكو من وجود ذلك النوع الآخر من الإدراك الذى يشككنا فى أصالة إدراكنا الحسى . فليس مما

يخط من قدر الإدراك الحسى فى ذاته أبداً أن يكون هناك نوع آخر من الإدراك يشبهه إلى حد يجعل الأمر بينهما مختلطاً على ذهن الإنسان .

ولنضرب لذلك مثلاً : فإذا كان لديك عدد من العملات بعضها زائف وبعضها من الذهب الخالص ، دون أن يمكنك التمييز بينهما على نحو قاطع ، فسوف تشك فى قيمة أية واحدة منها إن حاولت تداولها . غير أن مثل هذا الشك لا يعدو أن يكون عجزاً عن التفرقة بين الصحيح والمزيف — ومن المحال أن ينطوى على أى تشكيك فى قيمة الذهب ذاته ، بل إنك لو تمكنت من فصله من غيره على نحو قاطع ، بحث تستخرجه نقياً ، فلن يعود شكك الأول منصبا عليه .

* * *

والوجه الأخير والأكمل لحجة الأحلام هو ذلك الذى تغدو فيه الحجة عنصراً إيجابياً مكملًا للرأى المثالى فى نظرية المعرفة . وهذا الوجه بدوره لا يمكن فصله بحال عن الأوجه السابقة ، التى تعد فى الواقع تمهيداً ضرورياً : إذ أن حجة الأحلام إن كانت تؤدى إلى شكنا فى الموضوعات الخارجية وإلى « نقد » المعرفة الحسية ، فإن الخطوة الطبيعية التى تلى ذلك هى القول إيجابياً بمثالية المعرفة . والوسيلة التى تستخدم بها حجة الأحكام لإثبات مثالية المعرفة ، هى القول إيجابياً بأن عالم الأحلام لا يتميز بالفعل عن عالم الواقع . فهنا يستخدم المثالى حجة الأحلام لا بوصفها تعبيراً عن مرحلة من الشك سرعان ما يتجاوزها ، بل بوصفها حجة قائمة عنيدة لا يمكن التخلص منها ، وتؤدى بالفعل إلى نوع من محو التفرقة بين عالم اليقظة وعالم الأحلام .

ففى فلسفة باركلى تلعب هذه الحجة دوراً هاماً ، لأنها فى نظره دليل «إيجابى » على إمكان وجود إدراكات لا تقابلها أجسام خارجية .
« فما يحدث فى الأحلام يدل على أن من الممكن أن نتأثر بجميع الأفكار

التى لدينا الآن دون أن تكون هنالك أجسام تشابهها . وعلى ذلك فمن الواضح أن افتراض الأجسام الخارجية ليس ضروريًا لإحداث أفكارنا ، مادام من المعترف به أن هذه الأفكار قد تحدث أحيانًا ، وربما كانت تحدث دائمًا ، بنفس الترتيب الذى نراها به حاليًا ، دون وجود الأجسام الخارجية » (١)

هنا إذن تستخدم حجة الأحلام لإثبات أن « افتراض وجود الأجسام الخارجية ليس ضروريًا لإحداث أفكارنا » ، وهو كما نرى هدف يتجاوز الهدفين السابقين ، إذ أنه ليس مجرد « شك » عابر فى وجود العالم الخارجى أو نقد لدور إدراكنا الحسى فى المعرفة ، بل هو النتيجة الضرورية التى يستخلصها المثالى من هذه القضايا السابقة .

والسؤال الذى لا تتضمن فلسفة باركلى ردا صريحًا عليه هو : إذا كان التماثل فى ترتيب أفكار الأحلام وترتيبها فى عالم اليقظة يؤدى إلى القول بأن أفكارنا لا تحتاج فى حدوثها إلى موضوعات خارجية ، فعلى أى نحو نستطيع أن نميز بين ما نراه فى الأحلام وما يحدث فى اليقظة ؟ ولا شك أنه يكاد يكون من المستحيل ، إذا سلم المرء بجميع استنتاجات باركلى ، أن يهتدى إلى معيار قاطع . ومن المؤكد أنه هو ذاته ، بعد أن استخدم الحجة على هذا النحو ، لم يحاول تقديم هذا المعيار ، وترك الأمر معلقًا عند هذا الحد .

وكما كانت « المثالية النقدية » عند كانت هى فى عمومها محاولة لإصلاح كثير من أخطاء المثالية « المادية » عند باركلى ، فقد حاول كانت أن يسد هذا النقص فى فلسفة باركلى . إذ أنه كان واعيًا بما يؤدى إليه رأى باركلى ، وأى مذهب مثالى آخر ينكر وجود أشياء خارجية تطابق إدراكاتنا أو « أفكارنا » من عجز عن التفرقة بين فئة « الأفكار » التى ننسبها إلى موضوعات

خارجية ، وتلك التى تبدو منتسبة إليها ، ولكن يُعترف بأن لها أصلاً داخلياً فى نهاية الأمر ، كاهلوسات والأحلام . وأياما كان موقف المفكر من مشكلة وجود العالم الخارجى ، فلا بد أن يعترف بأن هاتين الفئتين متميزتان فى ذهننا على الدوام ، وبأن من الضرورى — تبعاً لذلك — أن يكون هناك معيار ما للفرقة بينهما . هذا المعيار هو تسلسل الظواهر الزمنى تبعاً لقاعدة ، وهو ما يحدث فى حالة العلاقة الموضوعية وحدها . « فإذا ما تساءلنا عن تلك الصفة الجديدة التى تضيفها « العلاقة بموضوع » على تمثلاتنا ، وعن الشرف الذى تكتسبه التمثلات بفضل هذه العلاقة ، لو وجدنا أن تلك العلاقة لا تسفر إلا عن إخضاع التمثلات لقاعدة ، وبالتالي تجعل من المحتم علينا ربطها على نحو محدد ما ، ولو وجدنا مقابل ذلك أن تمثلاتنا لا تكتسب معنى موضوعياً إلا بقدر ما يكون من المحتم إخضاعها لقاعدة معينة فيما يتعلق بعلاقاتها الزمنية » (١) . هذه القاعدة التى تنظم العلاقات الزمنية للتمثلات ، هى فى رأى كآنت ، تعاقب العلة والمعلول : « وإذن فعلاقة الظواهر (بوصفها إدراكات ممكنة) ، وهى العلاقة التى يتحدد فيها الحادث اللاحق فى الزمان بالضرورة ... بشيء سابق عليه وفقاً لقاعدة — أعنى ، بعبارة أخرى ، علاقة العلة بالمعلول — هى شرط للصحة الموضوعية لأحكامنا التجريبية ، فيما يتعلق بسلسلة الإدراكات ، وبالتالي بحقيقتها التجريبية ، أى أنها هى شرط التجربة » (٢) . ولو لم يتوافر هذا الشرط أى « لو أكدت السابق ولم يتل منه اللاحق بالضرورة ، لتحتم على أن أعد التعاقب مجرد ممارسة لخيالنا . فإذا ما ظللت مع ذلك أتمثله شيئاً موضوعياً ، فعندئذ يكون على أن أسميه مجرد حلم » (٣) . وفى « المدخل إلى كل ميتافيزيقا » تتخذ فكرة الخضوع لقوانين التجربة

هذه اسم « الترابط » ، فيقول « إن الفارق بين الحقيقة Wahrheit (كان الأدق استخدام كلمة Wirklichkeit في هذا المجال) والحلم لا ينتج عن طبيعة التمثلات التي تتعلق بالأشياء ، إذ أن هذه التمثلات واحدة في الحالتين ، وإنما عن ترابطها ، تبعاً للقواعد التي تحدد ارتباط التمثلات في تصور الموضوع ، وبقدر ما يمكن اقتران هذه التمثلات ، أو عدم اقترانها ، في تجربة »^(١) .

وهكذا تُعد المثالية النقدية عند كانت تقدماً على مثالية باركلي الأقرب إلى السذاجة ، إذ أن كانت على الأقل أكثر شعوراً بما يمكن أن تؤدي إليه المثالية ، في إنكارها وجود الموضوع الخارجي ، من عجز عن التفرقة بين عالم اليقظة وعالم الأحلام .

ولا يستطيع المرء إلا أن يعترف مع كانت بأن كثيراً من الأحلام تفتقر إلى الارتباط العلى الذى تتميز به حياة اليقظة . ولكن هذا الرأى ، كما لاحظ شوبنهاور ، يحتاج إلى إيضاح ، فكثير من الأحلام تتميز بالتماسك الداخلى وبالارتباط العلى بين حوادثها المفردة^(٢) . فالافتقار إلى العلية إذن ليس صفة كامنة فى الحلم ذاته ، يتميز بها عن حياة اليقظة ، وإنما هو صفة « للعلاقة » بين حياة اليقظة والأحلام . ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن تطبيق هذا المعيار يحتاج إلى انتباه ودقة قلما تتوافر فى تجربة الإنسان المعتادة . فقد أتذكر مثلاً أننى رأيت صديقى فى مكان ما منذ مدة ما ؛ ونظراً إلى غموض هذا التذكر ، فقد يداخلى الشك فيما إذا كنت رأيت بالفعل أم حلمت بأننى رأيت . ولكى أطبق معيار كانت ، فعلى أن أبحث عن سلسلة الحوادث المرتبطة برؤية صديقى فى

§ 13. Note 3.

(١)

Schopenhauer : The World as Will and Representation

(٢)

(Trans, by E. F. J. Payne). The Falcon's Wing Press, Colorado. 1958

Vol. 1, P. 16.

ذلك الحين حتى أصل حلقة حلقة ، إلى حادث أجربه في اللحظة الحالية — وهو أمر يكاد في كثير من الأحيان يكون مستحيلا .

ومن جهة أخرى فإذا كان في حياة اليقظة اتصال ، وفي داخل الحلم أيضا اتصال ، فكيف نميز بينهما على أساس موضوعي ؟ إن التمييز الموضوعي محال في رأى شوبنهاور ، إذ أننا « إذا اتخذنا موقفا في الحكم خارجا عن كليهما ، فلن نجد فارقا مميزا في طبيعتهما ، وسنضطر إلى التسليم مع الشعراء بأن الحياة حلم طويل »^(١) . وربما رد قائل على ذلك بأننا لا نستطيع اتخاذ موقف في الحكم خارج عن الاثنين ، إذ أننا دائما مندمجون في إحدى الحالتين ، فإما حلم وإما يقظة . وهنا تعود المشكلة كما كانت منذ البداية ، إذ يترد السؤال الأصلي : كيف نشق من أننا في هذه الحالة ولسنا في تلك ، وما المعيار القاطع للتمييز ؟ . هكذا يبدو أن المعيار الذي أتى به كانت قد أخفق ، وهنا لا يجد الفيلسوف المثالي مفرًا من الاعتراف بعجزه عن إيجاد تفرقة قاطعة بين المجالين . ذلك لأنه ينكر من جهة أن تكون الإدراكات ناتجة عن موضوع خارجي مستقل عن الذات ، ومن جهة أخرى يضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وهو أن الأحلام بدورها ليس لها مصدر خارجي .

ويمتاز شوبنهاور على كانت — من هذه الناحية — بأنه يعترف صراحة بعجزه عن التمييز بين الحلم والواقع من خلال فلسفته الخاصة . ففي الصفحات الأولى من المجلد الثاني من كتابه الرئيسي « العالم إرادة وتمثلا » ، يقول : « هكذا ينبغي أن نعترف بأن العالم ، في واحد من أوجهه على الأقل ، مشابه للحلم ؛ بل يمكن أن يدرج مع الحلم في فئة واحدة . ذلك لأن فاعلية المخ التي تخلق خلال النوم عالما تام الموضوعية . مدركا ، بل ملموسا ، لا بد أن يكون لها دور مماثل في تشكيل عالم اليقظة الموضوعي »^(٢) .

وهنا تصل حجة الأحلام إلى قمة فعاليتها ، إذ تثير هذا السؤال الخطير :
أليس من الجائز أن تكون حياتنا بأسرها حلما متصلا ؟ والأهم من ذلك أن
السؤال لا يثار ، في هذه المرحلة ، على مستوى الشك المؤقت أو المنهجي ، بل
يثار بوصفه احتمالا جديا لا يستطيع المثالي بوسائله الخاصة أن يستبعده تماما. وإذا
تخذ الحجة هذا الوجه الهام فإنها تغدو أيضا أداة في يد المثالي لها خطرها الكبير
عليه ، إذ أن إخفاقه في التمييز بين الحلم والواقع هو في الوقت ذاته حكم على
مذهبه كله بالإخفاق .

ونستطيع أن نقول إن هذه النتيجة لحجة الأحلام لا تتعلق بفيلسوف بعينه
أو بفترة خاصة من فترات التفكير الفلسفي ، وإنما هي في الواقع نتيجة كامنة
في طبيعة الموقف المثالي ذاته ، الذي أعنى به ، عموما ، موقفا ينكر استقلال
الأشياء الخارجية ، إما في وجودها أو في صورتها المدركة على الأقل ، عن
الذات المدركة ، ويرد هذا الوجود أو هذه الصورة المدركة إلى وجه من أوجه
الذاتية . ونستطيع أن نقول ، بوجه عام ، إن التمييز المنطقي بين الأحلام
وحالة اليقظة يغدو أصعب كلما ازداد الفيلسوف تمسكا بالمبادئ المثالية :
فالنظر إلى الحياة على أنها حلم متصل ، هي إمكانية قائمة على الدوام في التفكير
المثالي الاصيل .

ومن الأدلة على ذلك أن هذه الإمكانية تظهر لدى أقدم ممثلي التفكير المثالي
وأحدثهم عهدا .

فلنتأمل قليلا مغزى « أسطورة الكهف » عند أفلاطون . إنها لا تعدو في
واقع الأمر أن تكون تعبيرا مجازيا عن هذه الفكرة ذاتها ، أعنى فكرة « العالم
بوصفه حلما متصلا أو شاملا » . فهنا توصف حياة الإنسان في هذا العالم
بأنها خداع ، ومعرفته بأنها معرفة ظلال فحسب . وإن التقابل بين حالة
الوجود في الكهف ، وبين حالة تأمل الضوء « الحقيقي » ورؤية الأشياء وقد

أنارتها « الشمس الحقيقية » ، إنما هو موازٍ تمامًا للتقابل بين الحلم واليقظة . فهنا يحمل أفلاطون على معرفة الإنسان في هذا العالم بأسرها ، لا على لحظات أو نواح معينة في هذه المعرفة ، ويثير صراحة إمكانية كون حياة الإنسان في هذا العالم خداعًا أو حلمًا متصلًا .

وفي الطرف الآخر من تاريخ الفكر الفلسفى ، يجد المرء أمثلة عديدة لمفكرين معاصرين أو قريبي العهد لم يسعهم إلا أن يأخذوا مأخذ الجد تلك الفكرة القائلة باحتمال كون الحياة حلمًا متصلًا .

مثال ذلك أن عالما ومفكرًا مشهورًا مثل « هلمهولتس » ، إذ رأى أن الإحساسات لا تشابه موضوعاتها ، وأنها لا تعدو أن تكون « علامات » ، لا « صورًا » لها ، قد بدا له أن الأمر مادام كذلك فربما كانت إحساساتنا لا تشير إلا إلى موضوعات خيالية ، لا حقيقية ، ومن ذلك انتهى إلى قوله « لست أدري كيف يمكن تنفيذ المذهب المثالى الذاتى الذى يذهب إلى حد القول إن الحياة لا تنطوى إلا على أحلام »^(١) .

ويتحدث « برتراند رسل » عن هذا الاحتمال ذاته ، على أساس منطقى بحث ، فى عدة كتب له . فهو فى كتاب « معرفتنا بالعالم الخارجى » يقول : « ... إنه لو اوضح أن من الممكن ألا يكون ما نسميه بعالم اليقظة سوى كابوس متكرر متردد إلى حد غير عادى ... وقد يكون ذلك صحيحًا ، إذ لا يمكن إثبات بطلانه ، ومع ذلك فإن أحدا لا يعترف به حقيقة . فهل هناك أى أساس منطقى « للقول بأن هذه الإمكانيّة غير محتملة »^(٢) ؟ .. » ويحيب رسل على

Helmholtz : Vorträge und Reden. Brunswick. Vol. II, P. 242 (١)

1896.

B. Russell : Our Knowledge of the External World. New York (٢)

(Norton & Co 1929. P. 99, 100.

هذا السؤال بالنفى . وإلى مثل هذه النتيجة ينتهى رسل فى كتابه « مشكلات الفلسفة » ، حيث يذهب إلى أن من الممكن ، من وجهة النظر الفلسفية ، أن تكون الحياة حلما طويلا متصلا^(١) . وهكذا يعترف بأن الفلسفة والمنطق يعجزان معا ، إذا ما اقتصر على ما لديهما من الوسائل ، عن استبعاد هذه الإمكانية .

وتكشف هذه المسألة ذاتها عن نقطة ضعف أخرى فى الموقف المثالى ، أعنى عجزه عن التخلص من مذهب « الذات الوحيدة » solipsism . فمن المحال أن تثار فكرة كون الحياة حلما متصلا إلا فى ظل مذهب مبنى على فكرة « الذات الوحيدة » هذه . ذلك لأننا إذا تساءلنا : حلم من هذا الحلم المتصل ؟ فلن يكون لهذا السؤال من جواب سوى أنه حلم ذات واحدة ، ما دام من المستحيل تصور كثرة من الذوات تحلم حلما متصلا . وهكذا فإن فكرة « الذات الوحيدة » هى بدورها من النتائج التى لا يكون للمثالية مفر منها إذا ما مضت إلى أقصى مداها .

* * *

وفى رأينا أن حجة الأحلام ليس لها من القوة ما يبدو لها لأول وهلة ، بل إن من الممكن ، فى واقع الأمر ، تنفيذها من جميع أوجهها . وسوف يكون تنفيذنا للوجهين الأولين (تبعا للترتيب الذى عرضا به فى البداية) موجزا ، أما الوجه الثالث ، الذى يمثل أعلى مراحل الحجة ، والذى هو المعيار الحقيقى لقوتها ، فسوف يفند بالتفصيل .

(١) ففى الوجه الأول لهذه الحجة ، أعنى ذلك الذى تودى فيه إلى الشك فى وجود عالم خارجى ، تفترض الحجة مقدما وجود سبب « داخلى

أو باطن » للأحلام . وهكذا ، ففى وسط كل ذلك الشك الشامل الذى عرض به فيلسوف مثل ديكارت حجة الأحلام فى أول أوجهها ، يتقرر شيء ما — وأعنى به المصدر الداخلى للأحلام — بطريقة توكيدية جازمة . فإذا كان من الأمور اليقينية أن مصدر الأحلام داخلى ، فلا شك فى أن هذه الفكرة اليقينية تجر وراءها حتماً أفكاراً يقينية أخرى . فكيف علمنا أن هذا المصدر « داخلى » ؟ إن معرفة ما هو داخلى تفترض مقدماً معرفة ما هو « خارجى » . ومن المستحيل على المرء أن يؤكد أن فئة معينة من إدراكاته لها مصدر داخلى إلا إذا افترض مقدماً أن فئة أخرى منها لها مصدر خارجى . ومجرد كون المرء قادراً على أن يجزم عن مصدر الأحلام على هذا النحو من اليقين ، يعنى أن هذه الأحلام مميزة عن إدراكات أخرى بصفة خاصة بها — وهذا يتضمن القول بأن لهذه الإدراكات الأخرى طبيعة مقابلة ، أى خارجية .

(٢) والوجه الثانى للحجة ، أى ذلك الذى يؤدى فيه إلى نقد للإدراك الحسى من حيث هو مصدر للمعرفة ، يهدم نفسه بنفسه . فمثل هذا النقد يتضمن بطبيعة الحال القول بأن المعرفة المستمدة من الذهن ، لا من الحواس ، صحيحة . ولو سلم المرء بذلك لكان عليه أن يفترض أن الأحلام ، بوصفها ظواهر ذهنية، ينبغى أن تكون أدق من الإدراكات الحسية ، على حين أنها فى واقع الأمر حافلة بالتناقض . هذا التنفيذ ينبغى أن يرد إلى « لوك » ، وإن كان قد أتى به فى سياق مخالف^(١) . والواقع أن هذا الوجه من الحجة يمكن أن يؤدى إلى نتيجة مضادة تماماً لما تقول به الحجة ذاتها. فمن الممكن أن يقال إن تناقض الأحلام دليل على الخلط والاضطراب الذى ينتج كلما فقد الذهن صلته بالعالم الخارجى ولم يستعن بالحواس فى إدراكه .

J . Locke : An Essay Concerning Human Understanding. (١)

(٣) أما الوجه الثالث لحجة الأحلام ، وهو الوجه الذى تغدو فيه الحجة جزءا لا يتجزأ من النظرة المثالية الذاتية إلى العالم ، ويعجز فيه الفيلسوف عن إيجاد تمييز قاطع بين الحلم واليقظة — أما هذا الوجه فلا يفيد فيه أى تنفيذ نفسانى، فمن العبث أن يؤكد المرء أن حالة اليقظة أوضح وأكثر حيوية من الحلم ، أو أن من الممكن ، عن طريق الاختبار الواعى ، التمييز بين ما هو حلم وما هو يقظة على أساس أن اليقظة وحدها هى التى تصمد لهذا الاختبار . ذلك لأنه سيظل من الممكن دائما الإتيان بأمثلة لأحلام لا تقل حيوية ووضوحا عن أى حادث يمر بنا أثناء اليقظة. أما الاختبار الواعى لحياة اليقظة ، فلا يمكن أن يحدث إلا بالنسبة إلى « اللحظة الحاضرة » فى هذه الحياة ، ومن المحال أن يطبق على حادث مضى لكى ندرك إن ذلك الحادث كان حلما أم حقيقة .

أما معيار الارتباط العلى ، كما قال به كانت ، فلا شك فى أنه معيار سليم ، بشرط أن يسبقه تنفيذ منطقى لفكرة « الحلم المتصل » . ذلك لأن الاعتراض الجدى الوحيد على المعيار الذى وضعه كانت ، هو ذلك الاعتراض الذى يثير إمكانية كون الحياة بأسرها حلما طويلا متصلا . فإذا أمكن استبعاد هذا الاحتمال منطقيا ، أى إذا ثبت منطقيا أن الأحلام تقترب دائما بواقع ولا يمكن أن تكون شاملة أو تشغل وحدها حياة الإنسان ، فعندئذ يغدو معيار كانت ، وهو معيار الارتباط العلى ، هو الأصلح فى التمييز بين هذين الوجهين للحياة بعد أن يثبت ضرورة وجودهما معا .

وهكذا يتضح أن مهمتنا الرئيسية ، فى هذا الصدد ، هى الإتيان بتنفيذ منطقى للرأى القائل بأن الحياة قد تكون حلما متصلا ، أعنى إثبات أن هذه الإمكانية لا يمكن أن تثار فى أى بحث فلسفى متسق مع ذاته .

١ — وتظهر لدى لوك ، مرة أخرى ، وسيلة من وسائل تنفيذ هذا الوجه للحجة . فإذا كان كل ما حولنا حلما طويلا ، فعندئذ تغدو المعرفة والحقيقة

مستحيلة . بل إن نفس الشك الذى يعرب عنه من يثير هذا الاحتمال يكون عندئذ حلما ، وبالتالى شيئا لا يعول عليه^(١) .

٢ — وهناك احتمال آخر مضاد لم يشر إليه أحد من قبل ، وإن لم يكن أقل إمكانا من الاحتمال القائل بأن كل شيء قد يكون حلما . فلماذا لا نقول ، على العكس من ذلك ، إن الحياة بأسرها ، وضمنها الأحلام ، هى سلسلة متصلة من الحوادث « الحقيقية » ؟ ولنفرض أننى حلمت بأنى أرى رجلا ذا رأسين ، فهل هناك استحالة منطقية فى القول بأننى رأيت « بالفعل » رجلا كهذا ؟ إننا على استعداد للتسليم بجميع الحجج المؤيدة للرأى المضاد : أعنى القول باستحالة وجود تمييز منطقى بين الأحلام واليقظة ، وبأن الحلم قد تكون له نفس حيوية أية تجربة « حقيقية » ، إلخ ... كل هذه الحجج يمكن أن تستخدم ، فى الواقع ، لتأييد الرأى المضاد ، القائل إن كل ما يحدث فى الأحلام قد يكون « حقيقيا » شأنه شأن أى شيء آخر . أما عن امتناع هذا القول الأخير ، فلست أظنه أكثر امتناعا من الفرض القائل إن كل شيء قد يكون حلما .

وهكذا فإن نفس المقدمات التى تؤدى إلى فكرة « الحلم الشامل » يمكن أن تؤدى أيضا إلى نتيجة مضادة تماما هى « انعدام الحلم » أو « الحقيقة الشاملة » . فإذا ما ووجه المثل إلى هذا الاحتمال المضاد ، فسوف يضطر هو ذاته إلى البحث عن وسيلة للتمييز بين الحلم وبين حياة اليقظة ، وبذلك يتخلى عن فكرة الحلم الشامل .

٣ — والتفنيد المنطقى الحاسم للفكرة القائلة إن الحياة قد تكون حلما متصلا ، أو أنه ليس ثمة تمييز قاطع بين الحلم والواقع، هو أن لفظي الحلم

والواقع أو اليقظة لفظان متضايقان لا يتصور أحدهما دون الآخر . فمن المستحيل « لغويا » الكلام عن حلم بلا واقع . ونفس معنى لفظ « الحلم » مستمد من تقابله مع الواقع ، ومن المحال تصور الحلم إلا مغلفا بالواقع ومحاطا به .

هذه هي الحقيقة البسيطة التي غابت على « مناطق » مثل برتراند رسل فإذا كانت تؤدي بنا إلى استرداد ثقتنا بالعالم ، الذي « لا يمكن » أن يكون حلما متصلا ، فعندئذ يمكن استخدام معيار الارتباط العلى « بعد » استبعاد إمكانية كون العالم حلما شاملا .

وينبغى أن نذكرها هنا أن هذا التنفيذ المنطقي لا يقتصر أثره على حجة الأحلام وحدها ، بل إنه ينطبق على أية حجج تثير إمكانية وجود خداع شامل في المعرفة البشرية — فالتعبير « خداع شامل » ، شأنه شأن التعبير « حلم متصل » هو تناقض في الألفاظ . ومجرد كوني أستطيع التحدث عن حلم أو خداع . يعنى أن لدى المعيار الذى أميزهما به بما هما كذلك . وكوني أدرك الخداع على أنه خداع ، أو الحلم على أنه حلم ، يعنى أن فى وسعى تجاوز حالة الخداع أو الحلم وهذا ، فى ذاته ، تفنيد للحجة .

وهكذا فإن ظاهرة الإدراك فى حلم أو الإدراك الخداع ينبغى أن تُستخدم ، لا من أجل نقد المعرفة البشرية أو التشكيك فيها ، بل من أجل دعمها وتأيدها ، طالما أن الكلام عن الحلم أو الخداع يفترض مقدما وجود الواقع والحقيقة . ومعنى ذلك أن على الفيلسوف ، حتى قبل أن يتجاوز مرحلة الشك ، وحتى قبل أن يصل إلى نقطة بداية يعدها ثابتة راسخة ، كالكوجيتو ، أن يرفض مقدما إمكانية كون العالم حلما متصلا ، إذ أن المنطق المجرد يحتم عليه ، بالأحرى ، أن يقول : الخداع موجود ، « إذن » فالحقيقة موجودة ؛ أو أنا أحلم ، « إذن » فالواقع موجود .

فهرس

الصفحة

٧ مقدمة
١١ إيضاحات مبدئية
١٦ الموقف الطبيعي والعلم
٥٠ الفلسفة والموقف الطبيعي
٥٩ مراحل المثالية
٥٩ (ا) الشك في الحواس
٦٧ (ب) صفات الأشياء : موضوعية أم ذاتية ؟
٧٦ (ج) الأشياء بوصفها ظواهر
٨٩ (د) مذهب الظاهريات والموقف الطبيعي
٩٩ مشكلة خارجية العالم
١٣٦ دور العقل في مشكلة المعرفة
١٤٨ المثالية ومحتوى المعرفة
١٦١ المثالية والإنسان
١٧٤ خاتمة : نظرية المعرفة والعلم
	تذييل
١٨٦ حجة الأحلام في نظرية المعرفة

رقم الإيداع ١٨٦٣ / ١٩٩١

I. S. B. N. 977 - 11 - 0635 - X

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

الثلثين ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه